د. محمد سعيد عبد ربه

وَشَائِجُ الفِكْرِ وَالسُلْطَةِ

فِي عَصْرِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فِي الأَنْدَلُسِ



وَشَائِجُ الفِكْرِ وَالسُلْطَةِ فِي عَصْرِ

مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فِي الأَنْدَلُسِ

- الكتاب: وشائج الفكر والسلطة في عصر ملوك الطوائف في الأندلس
- المؤلف: د. محمد سعيد عبد ربه عبد الرحمن
- الطبعة الأولى 2024
- الناشر: ببلومانيا للنشر والتوزيع – مصر
- رقم الإيداع: 8617
- الترقيم الدولي ISBN: 978 – 977 – 994 – 390-9
- مدير عام: جمال سليمان - مدير إداري: ديانا حمزة – مدير تنفيذي: م
- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 002026064518 - 002026337855
- محمول: 0020120101153 – 00201030504636 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/bibliomania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com
- البريد الإلكتروني (E-Mail): bibliomania.eg@gmail.com

وَشَائِجُ الفِكْرِ وَالسُلْطَةِ فِي عَصْرِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فِي الأَنْدَلُسِ

(400 - 483هـ/1010-1090م)

دكتور

محمَّد سعِيد عبد ربِّه عبد الرَّحمَن

بيبلومانيا

بيبلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

بلومانيا

ببلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

www.bibliomaniapublishing.com

وَشَائِجُ الفِكْرِ وَالسُلْطَةِ فِي عَصْرِ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ فِي الأَنْدَلُسِ

(400 - 483هـ/1010-1090م)

دكتور

محمَّد سعِيد عبد ربِّه عبد الرَّحمَن

الإهداء

إلى كل مفكر صاحب قلم يسعى إلى صلاح مجتمعه

إلى كل مفكر غرس بذرة في حقل العلم والثقافة فأنبتت نباتًا حسنًا

إلى أصحاب القلوب الصافية والعقل المستنير الساعي إلى رقي المجتمع

المقدمـــة

عاشت الأندلس عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري/العـاشر المـيلادي، تحكمهـا دويلات متفرقة ومتناحرة فيما بينها، كل واحدة منها تسعى إلى تحقيـق مـصالحها الشخـصية، وقـد انعكس ذلك سلبًا على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد. ومما زاد ذلك الوضع سوءًا تلك الاعتداءات المتكررة والغارات المتوالية من قبل النصارى الأسبان على الأراضي الأندلسية.

وفي ظل هذه الأوضاع برزت فئة المفكرون الذين كان لهم دور فعال على مسرح الأحـداث، وعلى جميع الأصعدة الثقافية والاجتماعيـة والـسياسية؛ وقـد حظيـت هـذه الفئـة بمكانـة بـارزة في المجتمع الأندلسي، فقد كان المفكرون أصحاب الكلمة المسموعة، باعتبـارهم مثقفـي الأمـة واللـسان المعبر عن أحوال المجتمع، ونظرًا لذلك سعى أمراء الطوائف في كثير مـن الأحيـان لتقـريبهم وكـسب رضاهم، وإفادة المجتمع منهم، ومن علومهم، وفي أحيان أخرى سعوا للقضاء عليهم والتخلص منهم، عند تجاوزهم وتطاولهم.

تجلت مكانة المفكرين في الأندلس في الوقوف إلى جانب السلطة يوجهونهـا ويقـدمون لهـا النـصح والإرشـاد، ويـشاركونها بـصورة فعليـة في مجمـل نـشاطها الـسياسي والأدبي والفكـري تـارة، وينتقدونها ويرفضون تنفيذ أوامرها تارة أخرى، حتى أصـبحنا معهـا لا نـستطيع تفـسير الكثـير مـن ظواهر التاريخ الأندلسي في عصر الطوائف من غير أن نضع نصب أعيننا دور المفكرين الذين احتلـوا في عصر ملوك الطوائف منزلة رفيعـة في نظـر العامـة والخاصـة، حيـث تنـافس ملـوك الطوائـف في اجتذاب أرباب الفكر حتى أصبح عددًا من رجالهم ومستشاريهم ووزرائهم من العلماء والأدباء.

وفي هذه المجموعة من الفصول المتنوعة التي كتبت، تناولنا فيها العلاقة بين السياسة والفكر، وصراع الفكر نفسه عن طريق الاستعانة بالـسلطة، مـن خـلال تجـسدها في أداء بعـض الشخـصيات البـارزة في عـصر

الطوائف في المجالين السياسي والفكري، مع محاولة تفسير سلوكهم ودوافعهم، لكشف الغموض عن الكثير من أسباب الثراء الفكري والثقافي في ذلك العصر، والتعرف على الكثير من أحداث العصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

أولاً: أهمية الدراسة

تسلط الدراسة الضوء على علاقة الفكر بالسلطة في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، فتناولت العديد من المفكرين وعلاقتهم بالسلطة، ونشأتهم العلمية والأدبية، ودورهم في الازدهار العلمي والثقافي، وأثر المفكرين العميق في تشكيل ثقافة الأندلسيين، والمكانة السامية التي بلغوها في نفوسهم، ليصبحوا بذلك أحد أهم جسور الثقافة التي ربطت مراكز الثقافة الإسلامية داخل الأندلس ببعضها من جهة، وربطتها بالثقافة الإسلامية المشرقية من جهة أخرى، مما أكد على وحدة الفكر الإسلامي مشرقه ومغربه، وجدير بالذكر أنه يصعب الحديث عن جهود المفكرين الأدبية، دون الإشارة إلى بقية نشاطاتهم الأخرى، خاصة العلمية واللغوية والفلسفية، فقد كان كثير منهم مفكرون موسوعيون يتخصصون في أكثر من مجال علمي وأدبي.

تكمن أهمية الدراسة أنها ستترجم لعلماء برزوا ولمعوا في عصر الطوائف في الأندلس، كان لهم دور كبير في التأثير على مجرى الأحداث، وثراء الحياة العلمية والأدبية بها، كما أن الدراسة تبين لنا دور السلطة المثقفة والراعية للثقافة في رعاية المفكرين، وإسناد الكثير من المناصب الحيوية إليهم، وفي نفس الوقت تتناول دور السلطة الغير المهتمة بالعلوم والآداب في هروب المفكرين من بلاطتهم إلى بلاطات أخرى واعية وحريصة على الفكر والثقافة، كما تتناول علاقة المفكرين ببعضهم ما بين مودة ومحبة وثناء، وأخرى عداوة وتحريض وهجاء ووشاية ببعضهم البعض عند السلطة.

عكف بعض المتخصصين في الدراسات الأندلسية على دراسة الحياة الثقافية والفكرية في عصر الطوائف في الأندلس، كما تناول الكثير منهم تراجم لعدد من مفكري الأندلس، غير أن تلك الأعمال تناولت تفاصيل العلوم والآداب في تلك الحقبة بصفة عامة، أما العرض التفصيلي المستفيض لتلك العلاقة بين المفكر والسلطة وطبيعتها، وإلقاء الأضواء عليها، ودورها في ثراء الحياة الفكرية والثقافية، فلم تحظ بالعناية الكاملة من الدراسات السابقة، نظرًا لطبيعة موضوعاتها، باستثناء بعض الأعمال العلمية والأدبية المتفرقة في هذا المجال، حيث تعرضت بإشارات متفرقة عن تلك العلاقة دون أن تفرد لها دراسة خاصة تبين طبيعة تلك العلاقة وتأثيرها على مسرح الأحداث السياسي والفكري.

ثانيًا: مناهج الدراسة

اعتمدت على العديد من المناهج النقدية في معالجة موضوعات هذه الدراسة؛ فعولت على منهج يقوم على جمع النصوص المشتتة من مظانها، ثم قمت بترتيبها وتنسيقها حسب التقسيمات المطروحة، وقراءتها قراءة مؤسسة تمتد عبر مساحات معرفية متنوعة، تسعى إلى التفسير، والنقد، وكشف أبعاد النص واستنباط مضمراته، فيما عرف بالمنهج التحليلي الاستقرائي، مع الحرص على توثيق كل فكرة، أو تحليل، أو تخريج، كما حرصتُ على الاستشهاد بأكبر قدر ممكن من النصوص الأدبية، والتاريخية.

واتبعت المنهج الوصفي اعتمادًا على المادة العلمية الجديدة التي وظفت في سد الفجوات المتعلقة بتراجم مفكري العصر.

واعتمدت أيضًا المنهج المقارن خاصة عند معالجة علاقة الفكر بالسلطة، وعلاقة المفكرين ببعضهم البعض، كما اعتمدت عليه في ترجيح رواية على أخرى، نظرًا لتعدد الروايات، واختلافها في الكثير من أحداثها بالنسبة لعدد كبير من المفكرين.

واعتمدت مقارنة الروايات بمثيلتها، وذلك في محاولة لتصحيح بعض الأحكام التي صدرت عن مؤرخين قدامى، وباحثين محدثين تخصصوا في دراسة الأدب الأندلسي.

وأخيرًا اعتمدت على المنهج التاريخي، ودوره في الدراسة غني عن التعريف، فقد أورد للتسلسل الزمني، فقد رأيت من باب الضرورة أن أقدِم للمفكر وعلاقته بالسلطة، ثم أعرض هذه العلاقة حسب التسلسل التاريخي، مشيرًا إلى مكانة المفكر وعلاقته للسلطة، وما أسباب ارتباطه بها؟، وأشرت إلى مكانة المفكر العلمية ودوره في المجتمع، وألمحت إلى حالة أمراء الأندلس في عصر الطوائف بين الحلم والغضب، وفي ضوء المنهج التاريخي أيضًا قمت بتحليل الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بهدف الوصول إلى أسباب تغير العلاقة بين المفكر والسلطة من صداقة ومودة إلى غضب وغيرة، وذلك من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع والدراسات والبحوث المتصلة بعصر الطوائف في الفترة موضوع الدراسة.

ولابد من الإشارة إلى إعداد ملحق زمني توضيحي خاص بعصر ملوك الطوائف في الأندلس يوضح أسماء دول الطوائف ومدنهم وأبرز ملوكها، وسنوات حكمهم.

ثالثًا: تقسيم الدراسة

قدمت لهذه الدراسة بمقدمة تناولت أهمية الموضوع، ومناهج الدراسة، وتحليل لأهم المصادر والمراجع، ثم دراسة تمهيدية تدور حول مفهوم وشائج الفكر والسلطة اللغوي والاصطلاحي، ودور السلطة في ازدهار الحياة الفكرية في الأندلس، ثم أحد عشر فصلاً تناولا عدد من المفكرين وعلاقتهم بالسلطة بداية من ابن دراج القسطلي جوال الأندلس، وانتهاءً بالسَّميسر بائع البر.

رابعًا: تحليل المصادر والمراجع

إن هذه الدراسة تحتاج إلى استقراء تام للمصادر الأولية التي ترجمت للكثير من مفكري عصر الطوائف في الأندلس، والتي تناولت الحركة اللغوية والفكرية خلال الحقبة التي ندرسها، ويقف على رأسها المصادر اللغوية، والأدبية، وكتب البرامج، والتراجم والطبقات، وأيضًا المصادر التاريخية والجغرافية، وتتضح قيمة بعض هذه المصادر وأهميتها في أنها كانت معاصرة للعصر موضوع الدراسة، وساهم مصنفوها بقسط وافر في صنع الأحداث، بالإضافة إلى ثرائها، وتنوع نصوصها ورواياتها.

ويعتبر كتاب الذخيرة لابن بسام الشنتريني من أعمدة الدراسة، فمؤلفه كان المؤرخ الأدبي للحقبة التي ندرسها، وأمدنا بروايات كثيرة قيمة عن علاقة الفكر بالسلطة مثل علاقة ابن زيدون بملوك الطوائف؛ كما يكتسي كتاب جذوة المقتبس للحميدي أهمية كبيرة لمعظم مباحث الدراسة؛ فقد أمدنا بمعلومات قيمة عن ابن دراج القسطلي وتجوله في مدن الأندلس بحثًا عن المال، وعن دخول أبي الفتوح الجرجاني بغداد ثم الأندلس.

ويعتبر كتاب فهرسة ابن خير الإشبيلي من المصادر التي استقينا منها جُل معلوماتنا عن التكوين الثقافي لأبي الفتوح الجرجاني بجرجان، والعراق، وكان كتاب المغرب في حلي المغرب لابن سعيد من الكتب ذات الأهمية الكبيرة التي نقلت لنا أخبار عن كثير من مفكري العصر دورهم في الحياة الثقافية والفكرية به، وعولت أيضًا على بعض كتب طبقات النحويين واللغويين والأدباء، ومنها: إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، وبغية الوعاة في طبقات النحويين والنحاة للسيوطي، للتعريف بالكثير من المفكرين ومؤلفاتهم؛ كما اعتمدت على ثبت كبير من المراجع العربية.

الدراسة التمهيدية

وشائج الفكر والسلطة لغويًا واصطلاحًا

وعوامل ارتباط الفكر بالسلطة في

عصر الطوائف

الدراسة التمهيدية

وشائج الفكر والسلطة لغويًا واصطلاحًا

وعوامل ارتباط الفكر بالسلطة في عصر الطوائف

أولاً: وشائج الفكر لغويًا

الوشائج لغة مأخوذة من وَشَجَ يَشِجُ وَشْجًا ووَشِيجًا، وتأتي للدلالة على معانٍ متعددة منها: اشتَبَكَت، وتَشابك، والتَفَّ، وتداخل، واختلط، ووصل؛ ووَشِيجَةٌ بمعنى مشتبكة متصلة[1]، أما الفكر فهو الفَكْرُ والفِكْرُ، وهو إعمال الخاطر في الشيء أو أعمل العقل فيه ليصل إلى نتيجة أو حلّ أو قرار، ومن معاني الفكر أيضًا: الخاطر، ومعنى فكَّر الشخص أي مارس نشاطه الذهني[2].

ولفظ الفكر ورد في القرآن الكريم في مواضع كثيرة منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللـه لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[3]، أي تتذكرون، وفي موضع آخر قال اللـه عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللـه لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[4]، أي تعتبرون، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللـه قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[5]، أي تتدبرون، وجاء الفكر بمعنى التدبر أيضًا في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[6]، وأيضًا في قوله تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[7]، وجاءت في آية أخرى بمعنى ليعلموا، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج2، ص398-399.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص65.

(3) القرآن الكريم، سورة البقرة: 219.

(4) القرآن الكريم، سورة البقرة: 266.

(5) القرآن الكريم، سورة آل عمران: 199.

(6) القرآن الكريم، سورة الأنعام: 50.

(7) القرآن الكريم، سورة الأعراف: 176.

نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1]، ووردت بنفس المعاني في مواضع كثيرة ، غير أنها وردت بمعنى التفكير نفسه في قولـه تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾[2].

ثانيًا: وشائج الفكر اصطلاحًا

والوشائج اصطلاحًا هي مُلْتَفًا دخل بعضهُ بعضًا، وهي لِيفٌ يُفْتَلُ ثـم يُـشْبَكُ بـين خـشبتين ينقل بهما البُرُّ المَحْصود، وكذلك ما أَشبهها من شـبكة بـين خـشبتين، فهـي وشـيجة، والواشِـجة هـي الرَّحِمُ المشتبكة المتصلة[3].

أما الفكر اصطلاحًا هو إعمال العقل في أمر ما للوصول إلى معرفة المجهول، فمثلاً حين يُقال: لِي في الأمر فِكْرٌ، يكون المقصود من كلمة فكر هو نظرٌ ورؤية، والفِكرَةُ هي الصورة الذهنية لأمر ما، في حين يُعرف التَّفْكِيرُ بأنه إعمال العقل في مشكلة ما من أجل التوصل إلى حلها[4]، أي أن الفكر هـو نتاج عملية التفكير، وتُعرَّف عملية التفكير أيضًا بأنها نشاط ذهني داخـلي يتـضمن مـرور التَّخـيلات والخواطر والمُدركات الانفعالية والحسية التي ترافق أو تـسبق القيـام بـأي سـلوك خـارجي، ويقـوم الإنسان بهذا النشاط بشكلٍ واعٍ أو غير واعٍ، أي أن الفكر هو جهد بشري يحتمل الصواب أو الخطـأ، فلا يتَّصف بالقداسة، ولكنه يقترب من الصواب ويبتعد عن الخطأ إذا كان مستندًا إلى عقـلٍ صريـح، ونقل صحيح، وإذا كان منسجمًا مع الوقائع والطبائع[5].

ثالثًا: السلطة لغويًا

السلطة لغـة مـأخوذة مـن سُـلط بالـضم، وتعنـي الـشدة والقهـر، وقـد سَـلطَه اللـــه فتَــسَلطَ علــيهم، والــسليط الــشديد، ولفــظ ســلطان مــشتق مــن الــسليط

(1) القرآن الكريم، سورة الأعراف: 184.

(2) القرآن الكريم، سورة المدثر: 18.

(3) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص398-399.

(4) ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص65.

(5) فتحي حسن مكاوي، مختصر البناء الفكري، الطبعة الأولى، مركز معرفة الإنـسان للدراسـات والأبحـاث والنـشر والتوزيع، عمان- الأردن، 2016م، ص36-37.

وهو الحجة والبرهان، والسلطان إنما سمي سُلطانًا لأنه حجةُ الله في أرضه، إذن فالسلطة هي الشدة والقهر والحجة والبرهان والسيطرة والتحكم والقدرة[1]، ومنها جاءت لفظة سلطان بمعنى الحاكم المسيطر أو القوي القاهر، ولقد وردت في القرآن الكريم في عدة مواضع منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾[3]، وقوله أيضًا: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[4].

أما الفيروز آبادي فقد عرف السلطة بأنها القدرة والقوة[5]، فالسلطة إذن هي القهر، والقوة، والسيادة، والتحكم، والشدة.

رابعًا: السلطة اصطلاحًا

السلطة هي القوة المناط بها إدارة المجتمع الإنساني وحكومته، وهي من الضروريات التي لا يمكن الاستغناء عنها[6]، فهي عبارة عن واقع اجتماعي وجودها ضروري في المجتمع البشري، فتتواجد السلطة حيث يتواجد المجتمع البشري، فالسلطة ليست مفهومًا سياسيًا مطلقًا[7]، فهي

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص320-322.

(2) القرآن الكريم، الحجر: 42.

(3) القرآن الكريم، الإسراء: 33.

(4) القرآن الكريم، الحاقة: 29.

(5) بطرس البستاني، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج10، ص273.

(6) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م، ج2، ص365.

(7) حنان لطرش، السلطة والمجتمع في الجزائر أواخر العهد العثماني، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005-2006م، ص12.

مفهوم يتعلق بنشأة ظاهرة خضوع المجموعات البشرية وطاعتها لفرد أو مجموعة فيما يقرره من أوامر ونواهٍ[1].

وتمثل الدولة السلطة التي لا تعلوها سلطة، وهذا لامتلاكها السيادة ووسائل الإكراه، والقوة لتطبيق القوانين في المجتمع[2]، وفيما يتعلق بالسلطة في الفكر الإسلامي فتتمثل في السلطة الشرعية المكلفة بحماية المصالح الاجتماعية عن طريق الالتزام بالقواعد والمبادئ والحقوق التي أقرها الإسلام للرعية، ومنه تعتبر السلطة الشرعية هيئة تمثيلية لحماية مصالح العامة[3].

فالسلطة إذن هي الحق الشرعي الذي يُمنح لشخص ما في إصدار الأوامر والقوة في إجبار الآخرين على تنفيذها[4]، وأيضًا هي الحق في اتخاذ قرارات تنفيذية تحكم تصرفات المرؤوسين وأفعالهم[5].

ومن خلال ما قدمنا نستطيع أن نبين أن المقصود من وشائج الفكر والسلطة هو تشابك وتداخل والتفاف الأفكار والرؤى والمعارف والنظريات والخواطر والمدركات الانفعالية والحسية مع السلطة التي تمثل القوة المناط بها إدارة المجتمع الإنساني وحكومته.

---

(1) حسن حسن وآخرون، الموسوعة العسكرية، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، 1990م، ج4، ص312.

(2) عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، الطبعة الثالثة، بيروت، 1990م، ص315.

(3) فاروق النبهان، المدخل للتشريع الإسلامي، الطبعة الثانية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1981م، ص55.

(4) فؤاد الشيخ سالم وآخرون، المفاهيم الإدارية الحديثة، القاهرة، 1995م، ص171.

(5) عبد الوهاب خلاف، السلطات الثلاث في الإسلام، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1405هـ ص18-32.

فالسلطة في عصر الطوائف في الأندلس كان لها دور كبير في التأثير في أفكار ومعارف وعلوم ورؤى ونظريات المجتمع من خلال الاهتمام بالحياة الثقافية العلمية والأدبية بها، خاصة وأنها ورثت كم هائل من العلوم والمعارف من عصر الدولة الأموية، الأمر الذي لعب دور كبير في بروز الكثير من المفكرين في عصر الطوائف في الأندلس، متأثرين بنشأتهم العلمية والأدبية، كما أن في قدوم بعض المفكرين إلى الأندلس دور في التأثير في المنتجات الثقافية بها، ولقد لعبت علاقة المفكرين بالسلطة دورًا كبيرًا في ازدهار الحياة الثقافية، كما أثرت على مجرى الأحداث السياسية والاجتماعية.

خامسًا: عوامل ارتباط الفكر بالسلطة في عصر ملوك الطوائف

يعود ارتباط الفكر بالسلطة في عصر الطوائف بالأندلس إلى أسباب دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية أثرت في الجانبين الجانب الفكري والجانب السياسي ممثل في السلطة؛ فمما لا شك فيه أن النهضة العلمية في عصر الطوائف، التي وصلت إلى مستوى مرموق في كثير من مجالات العلم والمعرفة لم تنشأ من فراغ كما لم تكن وليدة يومها، وإنما جاءت نتيجة تضافر جهود الملوك والأمراء والمفكرين في تهيئة المناخ المناسب لها ومن ثم النهوض بها، ورغم بعض السلبيات التي شهدتها تلك العلاقة بين المفكر والسلطة، إلا أنها في الوقت نفسه حملت الكثير من الإيجابيات؛ فمن أهم عوامل الارتباط بين المفكر والسلطة:

1- أسباب دينية

حث الدين الإسلامي جميع المسلمين على التعليم والتعلم ولا أدل على ذلك أن أول آية نزلت من القرآن الكريم هي قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1]، وذلك ليتمكن المسلمون من مزاولة شعائر دينهم وأمور

(1) القرآن الكريم، العلق: 1.

دنياهم على بصيرة، حيث إن الدين الإسلامي ليس مقصورًا على الشعائر التعبدية بل هو منهج متكامل للحياة يتناول كل ما يتعلق بالإنسان نحو ربه ونفسه والناس كما يحدد الحقوق والواجبات التي يجب على المسلم اتباعها[1].

وقد تأصل هذا المبدأ عند مسلمي الأندلس منذ أن استقرت الأمور في الأندلس بعد أن فتحها المسلمون، حيث استشعر الجند الفاتحون أن مهمتهم ليست مقصورة على الفتح العسكري، بل هي إلى جانب ذلك فتح حضاري، كما استشعروا أن مسئوليتهم لا تنتهي بمجرد هزيمة العدو، وتثبيت أقدامهم في البلدان، بل إنها من هنا تبدأ وتتأكد، وأن عليهم توفير حرية الاعتقاد للناس بكل ما تتطلبه هذه النقلة من مسؤوليات ومهام ومن توضيح حقيقة الإسلام والدعوة إليه مع عدم الإكراه عليه، ولتحقيق هذا الغرض اصطحب أولئك الجند معهم حين عبروا إلى الأندلس عددًا من العلماء والدعاة وذلك لدعوة الناس إلى الإسلام ولبيان حقيقة ما يدعون إليه[2].

وقد ظلت المسيرة العلمية في بلاد الأندلس تسير جنبًا إلى جنب مع حركة الفتح الإسلامي دون تعثر أو تأخر، ولهذا ازداد النشاط العلمي شيئًا فشيئًا في أرجاء بلاد الأندلس منذ أن دخلها المسلمون، وفي عصر الولاة وما تلاه من عصور كانت الحركة العلمية تزداد سعة وانتشارًا، كما أخذ الناس بمختلف فئاتهم يقبلون على العلم والتعلم، وهكذا نشأ المجتمع الإسلامي

(1) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982م، ص65.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق كولان وليفي بروفنسال، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ج1، ص42؛ المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م، ج1، ص278.

"محبًا للعلم وأهله ونشأ أبناؤه على ذلك، لأن العلم فرض في العقيدة الإسلامية على كل مسلم ومسلمة"[1].

ولما كان المجتمع الأندلسي في عصر ملوك الطوائف -عصر الازدهار العلمي- مجتمعًا متصلاً بما قبله حيث لم ينشأ في أيامهم، كما لم يكن مبتوت الصلة بما قبله فقد أفاد من ذلك الميراث الثقافي الذي خلفه له المسلمون خلال القرون الماضية، حيث اقتات مما غرسه الأوائل فبقى مستمرًا في حب العلم والتعلق به وأنه مصدر فخر، وهذا دليل على تأصل هذا الاتجاه عند مسلمي الأندلس، وكما هيأ للمسيرة العلمية المناخ الملائم والتربة الخصبة للنماء السريع في عصر ملوك الطوائف[2]، حيث أصبح الناس حكام ومحكومين في ذلك العصر على الرغم من الفوضى السياسية والضعف العسكري والانهزام النفسي الذي مني به الكثير منهم، كانوا يقدرون العلم والتعليم ويسعون في طلبه مهما كان واقعهم السياسي والفكري حيث تعددت حلقات العلم خاصة تلك التي كانت تحت رعاية السلطة، وانضم إليها كثير من المفكرين، كما انتشر العلماء وتوفرت الكتب التي كان منها ما ألف بطلب من السلطة، ومنها ما أهدي إليها[3].

(1) عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 92-897هـ الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق-بيروت، 1402هـ ص411، 415.

(2) محمد عبود، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مطبعة النور، المغرب، 1987م، ص218.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م، رقم 342، ص258؛ الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري-دار الكتاب اللبناني، القاهرة-بيروت،1989م، ج1، رقم599، ص307-308؛ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق د.عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1995م، ج1، رقم615، ص186.

2-أسباب سياسية

شهد عصر ملوك الطوائف في الأندلس تنافس سياسي بين حكامه وأمرائه، وامتد هذا التنافس إلى الحياة الفكرية والثقافية، فتنافسوا في اجتذاب أرباب الفكر حتى أصبح عددًا من رجالهم ومستشاريهم ووزرائهم من العلماء والأدباء، حيث أولى ملوك الطوائف العلم والعلماء اهتمامًا كبيرًا حتى غدت قصور الكثير منهم منتديات ثقافية علمية وأدبية(1).

وقد تحدث المؤرخون عن هذا الأمر حيث ذكروا أن ملوك الطوائف كانوا يتنافسون في اجتذاب العلماء والأدباء إلى ممالكهم(2)، لتكريمهم، ويدرك المتتبع لهذه الظاهرة في عصر ملوك الطوائف أن مبعث هذا الاهتمام يعود لأمرين:

أحدهما شعور ملوك الطوائف بالخلل السياسي الذي مني به عصرهم نتيجة لانعدام الوحدة بينهم، وما تمخض عن ذلك من تناحر على السلطة والسلطان، فأراد ملوك الطوائف -برعاية النواحي العلمية- التقليل من أوجه القصور عندهم فالعلماء- في كل عصر ومصر كانوا- عامل استقرار وإصلاح،

---

(1) ابن سعيد، رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق النعمان بن عبد المتعال، مطابع الأهرام، القاهرة، 1973م، ص38؛ حاشية4؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص222-224؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص113، 412-413.

(2) ابن خاقان، قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق د. حسين يوسف خريوش، الطبعة الأولى، مكتبة المنار للنشر والتوزيع، الأردن، 1989م، ص199؛ ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997م، ق4، م1، ص245-246.

لمن يأخذ برأيهم ويعطيهم مكانتهم اللائقة بهم[1]، أما الأمر الثاني فهو كون كثير من ملوك الطوائف قد اشتهروا بأنهم من طلاب العلم، وهو ما زاد من الارتباط بين الفكر والسلطة في عصرهم[2].

3-أسباب اجتماعية

مما لا شك فيه أن علماء الأمة يشكلون شريحة هامة من شرائح المجتمع الإسلامي فهم قادة الأمة الحقيقيون وحسب فتاواهم وتوجيهاتهم يسير الناس، وإذا جنح الناس إلى الفوضى والخروج عن طاعة القيادة السياسية حينما يلحظون عليها انحرافًا أو تقصيرًا، فإن هذا لا يكون بالنسبة لقادة الفكر الذين ينطلقون في توجيهاتهم للأمة من منطلقات شرعية، لذلك حرصت سلطات ملوك الطوائف على توثيق علاقاتها بعدد كبير من المفكرين والمثقفين، ليكونوا لسانها عند العامة، كما تساعد أفكارهم على استقرار المجتمع وبالتالي استقرار السلطة السياسية نوعًا ما.

ولقد أنعم الله على مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف بأن قيض لهم علماء ناصحون رفعوا الراية وحاولوا نشر العلم بين الناس مستفيدين في ذلك من الفرص التي أتيحت لهم والتي كان من أهمها الحرية في طرح ما يريدون فضلاً عن فرص التنقل بين بلدان ملوك الطوائف دون قيد أو مضايقة، وهو ما رحب به ملوك الطوائف، فأحسنوا استقبال الكثير من المفكرين في بلاطهم، وأخذوا بمشورتهم ونصحهم في محاولة لإصلاح

---

(1) حمد بن صالح السحيباني، عصر الازدهار العلمي في الأندلس "دراسة تحليلية" لأهم عوامل الازدهار العلمي في عصر ملوك الطوائف، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1994م، ص192-193.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص23؛ ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، تحقيق د. شوقي ضيف، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، 1993م، ج1، ص117؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص193-194.

الحال، وفي حالات أخرى تعرض عدد من المفكرين الناصحين الساعين إلى إصلاح أحوال المجتمع إلى البطش والفتك بهم، إما لرفض السلطة تلك النصائح من ناحية، أو لفرط بعضهم في النصح وهجائهم السلطة من ناحية أخرى(1).

4-أسباب اقتصادية

تمثلت الأسباب الاقتصادية في الترابط بين المفكرين والسلطة، فقد عانى كثير من مفكري العصر من قلة المال والرزق، خاصة هؤلاء الذين عملوا بأشعارهم وعلومهم، فخرجوا يتجولون في الأندلس باحثين عن بلاط يضمهم، ومدن تأويهم، وسلطة تنعم عليهم بالمال، وتوسع لهم في الرزق والهدايا والهبات، من خلال المناصب والامتيازات التي قد يحصلون عليها، لذلك ارتبط كثير من المفكرين بملوك وأمراء الطوائف الذين تميزوا بالإكثار من تكريم وإغداق العطايا على حاشيتهم من المثقفين والمفكرين، وفي نفس الوقت أعرض كثير من المفكرين عن الملوك والأمراء الذين اتصفوا بالبخل، والشح في العطايا والهدايا والهبات لهم، الأمر الذي كان له بالغ الأثر في علاقة المفكرين والسلطة(2).

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق2، م1، ص81-94.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم186، ص162-166،163؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص59-62؛ ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقائهم وأدبائهم، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، 1989م، ج1، رقم77، ص76-77؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم343، ص201-203؛ ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق أ.إبراهيم الإبياري ود.حامد عبد المجيد ود.أحمد أحمد بدوي ، دار العلم، بيروت، 1955م، ص156-157؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، المغرب، 1994م، ص25؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص42-43؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص60-62، 299-345؛ رايات المبرزين، ص186-187؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص274؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص195؛ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، الطبعة السادسة، دار الثقافة، بيروت، 1981م، ص238-250.

5-أسباب ثقافية

ومن العجيب أن يكون الجانب الثقافي العامل الأبرز في ارتباط الفكر بالسلطة، فالسلطة المثقفة، والسلطة الراعية للثقافة كانت تهتم اهتمامًا بالغًا بضم عدد كبير من المفكرين في بلاطها، خاصة هؤلاء البارزين منهم، الذين سيتزين بهم بلاطهم، ويباهوا بهم منافسيهم من أمراء وملوك المدن الأخرى، لذلك لا نتعجب أن تعقد السلطة -خاصة المثقفة المتمكنة من العلوم والآداب- اختبارات ثقافية وعلمية للمفكرين قبل أن تلحقهم ببلاطها، وذلك للوقوف على مستواهم الثقافي والفكري من جانب، وزيادة قوة بلاطهم العلمي من جانب آخر[1].

ومن الأسباب الثقافية التي أدت إلى ارتباط الفكر بالسلطة، هو صراع المفكرين أنفسهم مع بعضهم البعض، وذلك وفق طبيعة العصر، وعادة الأدباء والعلماء، ورغم الجوانب السلبية التي حملها ذلك الصراع من هجاء لبعضهم، والوشاية والسعاية ببعضهم البعض عند السلطة، إلا أنه حمل الكثير من الجوانب الإيجابية، ومنها: حرص الكثير من المفكرين على تطوير أنفسهم

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم342، ص258-259؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم599، ص308، المقري، نفح الطيب، ج3، ص84.

وإبراز قدراتهم في أكثر من علم، وذلك بغية توثيق علاقتهم بالسلطة من جانب، وحتى يحتلوا الريادة في علومهم وتخصصهم من جانب آخر[1].

ويعود أسباب صراع المفكرين مع بعضهم البعض إلى تميز بعضهم الثقافي والفكري، وريادتهم في الكثير من العلوم والآداب، الأمر الذي جعل من هم أقل منهم علمًا وثقافة وفكرًا يسعون بهم، نظرًا لقلة الحيلة لديهم، فلا يستطيعون عقد مناظرات علمية معهم، ولا يستطيعون إثبات تفوقهم العلمي عليهم في منتديات السلطة الثقافية، فسعوا للتخلص منهم بأسهل الطرق، وهي الوشاية بهم، وتحريض السلطة عليهم، أضف إلى ذلك أن من أسباب الوشاية ببعضهم البعض كانت تقرب بعضهم من السلطة وتوثيق علاقتهم بها، وحصولهم على الكثير من الامتيازات، مما أثار الغيرة في نفوس إخوانهم المفكرين لهم، فسعوا بهم عند السلطة، للانتقام منهم، والتخلص من منافساتهم لهم[2].

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص439-440؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة، تحقيق د.محمد بن شريفة، د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973م، السفر السادس، ص224-227.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق د.محمد علي شوابكة، الطبعة الأولى، مؤسسة رسالة، بيروت، 1983م، ص198.

الفصل الأول

ابن دراج القسطلي

جوال الأندلس

الفصل الأول

ابن دراج القسطلي جوال الأندلس

أولاً: نسبه وولادته وموطنه

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي، ولد سنة 347هـ/958م في بيت ذي مكانة وشأن من بيوت قسطلة، حيث نسبت البلد إلى الجد الأعلى للأسرة، فقيل لها: "قسطلة دراج"، كما كان هذا الجد وبنوه الذين ينتمي إليهم شاعرنا، يتداولون رئاسة تلك البلد، ولابد من الإشارة إلى أن مولد ابن دراج القسطلي كان في أواخر خلافة الخليفة عبد الرحمن الناصر، حيث مرت الأندلس خلال تلك الفترة من 316-422هـ/929-1031م بأحداث جسام غيرت مجرى السياسة فيها، اتسمت بالقوة حينًا، وبالضعف أحيانًا أخرى حتى قلّلت من شأن الخلفاء الذين جاءوا بعد الخليفة الحكم المستنصر بن الخليفة عبد الرحمن الناصر 350-366هـ/961-976م بل أدّت إلى ذهاب مُلك بني أمية بالأندلس، وهو ما عاصره ابن دراج من أحداث وتأثر بها، وتركت صداها في شعره، فنشأ أثناء العصر الذهبي للخلافة الأموية بالأندلس 316-366هـ/929-976م، وعاش في ظل الدولة العامرية 367-399هـ/977-1009م أرغد العيش، فنال منزلة كبيرة لدى الحاجب المنصور بن أبي عامر 366-392هـ/976-1001م، الذي أكثر فيه المدح تقربًا منه، كما أكثر المدح في أبناء الحاجب المنصور، فبقيت مكانته على حالها بعد وفاة الحاجب المنصور، فمدح العامريين بقصائده، كما مدح الكثير من رجال الدولة، ثم أدرك الفتنة 399-422هـ/1009-1031م، وتأثر بها[1].

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم186، ص162-166،163؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص59-62؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم77، ص76-77؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم343، ص201-203؛ ابن دحية، المطرب، ص156-157؛ المراكشي، المعجب، ص25؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص42-43؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص60-62، 299-345؛ رايات المبرزين، ص186-187؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص274؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص195؛ عباس، تاريخ الأدب (قرطبة)، ص238-250.

وحينما نحلل نسب ابن دراج نجد أن لقب القسطلي نسبة إلى بلدة قسطلة Cacella في غرب الأندلس[1]، غير أن ابن سعيد ذهب إلى أن ابن دراج من قسطلة أخرى في إقليم جيان[2]، حيث اختلف حول تحديد موقع قسطلة دراج المؤرخون الأندلسيون القدماء والباحثون المحدثون، فالحميري أفرد في معجمه الجغرافي مادة لقسطلة دراج، فقال إنها قرية في غرب الأندلس، وأما ابن سعيد فقد ترجم لابن دراج في الكتاب الثاني من الكتب التي يشتمل عليها كتاب المملكة الجيانية وهو كتاب "السراج في حلي قسطلة دراج"، ومن الجدير بالذكر أن ابن سعيد جعل جيان وأعمالها منتمية إلى وسط الأندلس، ثم عاد فألح على كون قسطلة من عمل جيان في كتاب آخر له[3].

غير أن معظم الباحثين المحدثين استقروا على ما قاله الحميري في معجمه، فأجمعوا على أنها قرية داخلة اليوم في حدود البرتغال والتي تسمى

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص51-53؛ روضة بنت بلال بن عمر المولد، الاغتراب في حياة ابن دراج وشعره، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية اللغة العربية وآدابها جامعة أم القرى، السعودية، 2007م، ص2-5؛ لميس نسرين، بناء القصيدة عند ابن دراج القسطلي، رسالة دكتوراة غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2019، ص7-20.

(2) ابن دراج القسطلي، ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق د. محمود علي مكي، الطبعة الأولى، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، 1961م، ص28-32؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص60-61.

(3) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص60-61؛ رايات المبرزين، ص186؛ الحميري، صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، 1984م، ص479-480.

الآن Cacella من أعمال منطقة Algarve (وهذا الاسم مأخوذ من كلمة "الغرب" العربية)، وتقع هذه القرية على ساحل المحيط الأطلنطي بين الحدود الإسبانية ومدينة طبيرة Tavira، وعلى ذلك ينبغي أولًا أن نفرق بين ثلاثة مواضع تحمل اسم "قسطلة" في جغرافية الأندلس العربية، فالموضع الأول قسطلة الواقعة في غرب الأندلس، وهي التي أشار إليها الإدريسي في جغرافيته[1]، وهي الواقعة الآن في البرتغال، وقد نبه عليها ابن سعيد، فقال إنها من أعمال شلب[2] Silves ولهذا أضاف إلى ذلك أنها هي المعروفة باسم قسطلة الغرب، والموضع الثاني هو قسطلة التابعة لعمل جيان، وهي التي أشار إليها المقدسي، وابن سعيد، والمقري الذي قال: إن "من أعمال جيان: أبدة وبياسة وقسطلة"، والموضع الثالث هو قسطلة من قرى "الجزيرة الخضراء" (وتسمى الآن Algeciras) في أقصى جنوب الأندلس على مضيق جبل طارق، وقد أشار إليها ابن سعيد مفردًا لها فصلًا تحت عنوان "الأهلة في حلي قرية قسطلة" من كورة الجزيرة الخضراء[3].

(1) الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، 1894م، ج2، ص542.

(2) شلب Silves: مدينة بغربي الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام، وهي غربي قرطبة، وهي قاعدة ولاية أشكونية، وبينها وبين قرطبة عشرة أيام للفارس المجد، وليس بالأندلس بعد إشبيلة مثلها، وبينها وبين شنترين خمسة أيام، وقلَّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعرًا ولا يعاني الأدب، وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم، وأهل بوادي هذه البلدة في غاية من الكرم لا يجاريهم فيه أحد؛ (انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م، ج3، ص357؛ الحميرى، الروض المعطار، ص342).

(3) لمزيد من التفاصيل انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه د.محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م، ص192؛ القسطلي، ديوان، ص28-32من مقدمة المحقق؛ العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب "ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك"، تحقيق د.عبد العزيز الأواني، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م، ص107؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص542؛ ابن سعيد، المغرب، ص60-61؛ رايات المبرزين، ص186؛ الحميري، الروض المعطار، ص479-480؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م، ص321؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص165؛ هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ص302-303؛ عباس، تاريخ الأدب (قرطبة)، ص237.

أما أي من المواضع الثلاثة كان بلد ابن دراج فإننا نميل إلى ما أيده الدكتور محمود علي مكي في مقدمة تحقيقه لديوان ابن دراج إلى رأي ابن سعيد في أن "قسطلة دراج" موطن شاعرنا هي التي من عمل جيان، وأنها ليست قسطلة الغرب (التي تقع الآن في البرتغال)، كما قال الحميري وتبعه على ذلك كل الباحثين المحدثين، فابن سعيد كان يعرف المواضع الثلاثة بدليل تفريقه بينها في دقة ووضوح، بينما لم يشر الحميري منها إلا إلى واحدة فقط، مما يحتمل معه أن يكون قد خلط بينها، وينبغي ألا ننسى أن ابن سعيد ممن لا يشك في معرفتهم بجغرافية الأندلس، فضلًا عن أنه أقدم من الحميري، كما أن ابن سعيد من المؤكد أنه أعرف الناس بجغرافية إقليم جيان بوجه خاص، فهو موطنه وموطن أسرته، فنحن نعرف أنه من "قلعة يحصب"، و(تسمى الآن Alcalà la Real) أو "قلعة بني سعيد"، وهي تقع على بعد متوسط بين جيان وغرناطة، ولا شك أن ابن سعيد أعلم بهذه المناطق المجاورة لبلده من غيره من الجغرافين والمؤرخين[1].

ترجع أصول أسرة ابن دراج إلى أصول بربرية تنتمي إلى صنهاجة، وكانت على الأرجح من البربر الذين دخلوا الأندلس في فترة الفتح، ثم اندمجت هذه الأصول في البيئة الأندلسية، واتحدت مع العناصر البشرية الأخرى التي كونت المجتمع الأندلسي، حتى أصبحت بمضي الزمن أندلسية تمامًا، لا يكاد يربطها بالبربر إلا هذا النسب المحفوظ، وهذا شأن كل العناصر البربرية التي دخلت الأندلس في تاريخ مبكر[2].

(1) القسطلي، ديوان، ص28-32من مقدمة المحقق.

(2) القسطلي، ديوان، ص24-28؛ ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، 1965م، ص266-267؛ ليفي بروفنسال، سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها ألقاها عامي 1947و1948، ترجمة محمد عبد الهادي شعيره، راجعه عبد الحميد العبادي بك، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1951م، ص9؛ هيكل، الأدب الأندلسي، ص311؛ محمد زكريا عناني، تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م، ص78-86؛ وسام قباني، عامريات ابن دراج القسطلي (347-421هـ)، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م، ص30-33.

ثانيًا: مكانته العلمية والأدبية

كان ابن دراج نموذجًا لجيل من المفكرين الذين نشؤوا في أوج عصر الفتنة، وعاشوا شبابهم كله وشيخوختهم في ذلك العصر فلم يستمتعوا بشيء كبير من حرية الفكر وازدهار الإبداع ونهضة الفنون كما كانت في الفترات التاريخية السابقة عليهم، وعلى الرغم من ذلك برز ابن دراج في الأندلس كواحد من أبرز شعرائها وأنبغ مفكريها، غير أنه وقع ضحية الفتنة، كما وقعت قرطبة نفسها ضحية لها، حيث تعرض لضيق الحال، وقلة الرزق، الأمر الذي دفعه إلى التقرب من كثير من حكام عصر الفتنة وملوك الطوائف بحثًا عن مكانة ثقافية وريادة فكرية في بلاطهم بالإضافة لكسب المال وسعة الرزق[1].

تأثر القسطلي بعصر الفتنة، الذي كان له دور كبير في التأثير على منجزاته الأدبية والثقافية، فقد حول أشعاره إلى مدح السلطة أيًا كانت بغية الحصول على المال والعيش الكريم، ورغم أنه كان من أكبر وأبرز شعراء الأندلس إلا أن أشعاره وقدراته الفكرية لم تجد من يقدرها، ويوجهها، حسبنا أنها أمدتنا بمعرفة الكثير عن عصر الفتنة، وعصر ملوك الطوائف، إلا أن ذلك لا يقلل أبدًا من قدر شاعرنا، ولا يقلل من مكانته الفكرية والأدبية في الأندلس، ككونه واحد من ألمع مفكري وأدباء الأندلس.

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص63-75؛ كمال السيد أبو مصطفى، تاريخ مدينة بلنسية الإسلامية (95-495هـ/714-1102م)، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، بدون تاريخ، ص93.

ثالثًا: ابن دراج القسطلي في موطنه قرطبة

عاش ابن دراج القسطلي في عصر الطوائف بشعره، فكانت صناعته قول الشعر ومدح الملوك، فغدا يفد على من يعرف ومن لا يعرف، ويمدح كل الناس ويقول غير ما يعتقد، ولعل تهافته على المدح وتسابقه في هذا الميدان ووقوفه بين أيدي الملوك والأمراء هو الذي أكسبه هذه الشهرة، على أن عصره كان عصر الشعراء المداحين، لأنه مبدأ الاضطراب بخروج الأمر من يد بني أمية وتألب الناس على دولة بني عامر، والاشتغال بالدسائس، فبقدر تخبط السياسة والشعب في غمرات تلك الفتنة الجائحة كان تخبط الأدباء والشعراء، فهم لا يدرون إلى من يقبلون وعمن يدبرون، يحبون حياتهم يومًا بيوم دون أن يعرفوا ماذا يكون من أمر غدهم ولا أي كارثة تتربص بهم الدوائر ؟ (1).

لذا لا نستغرب أن يساير ابن دراج تقلب الدول على قرطبة، فما أن أعلن عبد الجبار ثورته حتى يتوجه إليه مادحًا بقصيدته التي أولها:

قُلْ للخِلاَفَةِ قد بَلَغْتِ مُناَكِ ... ورَأَيْتِ ما قَرَّتْ بِهِ عَيْناَكِ

مَهْدِيُّ أُمَّةِ أَحمدٍ وكريُمها ... وحليمُها يأْوِي إلى مأْواكِ

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم186، ص164-166؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم77، ص76-77؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم 343، ص203-204؛ الحميري، الروض المعطار، ص480؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، إ.ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المكشوف، بيروت، 1956م، ق2، ص122؛ إميليو غرسية غومس، نظرات حول انهيار قرطبة الأموية، المجلد الثاني عشر، مجلة الأندلس، 1947م، ص267-293، 273؛ أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، الطبعة الثانية، دار المعارف، تونس، 1998م، ص111.

وسليلُ نفسِ إمامِها وشهيدِها[1] **قَمَرَيْكِ في الدنيا، وما قمراك[2]**

وفي آخر القصيدة يجهر ابن دراج القسطلي بشكواه، وضعف مقدوره المادي، فيبكي حظ أدبه المضيع فيقول:

وأَنا الشَّريدُ وظلُّ عزِّك موئِلِي **وأَنا الأَسيرُ وفي يديكَ فَكَاكِي**

أَدَبٌ أَضاءَ المشرقَيْنِ وتحتَهُ **حظٌّ يَئِنُّ إليك أَنَّةَ شاكِ[3]**

إلا أن الأمور لم تسير في صالح ابن دراج القسطلي، فلم يستقر هذا الأمير الأموي في الخلافة إذ سرعان ما ثار عليه أموي آخر وهو سليمان بن الحكم الملقب المستعين[4]، ويستمر الصراع بين هذين حتى يقتل المهدي بتدبير أنصاره أنفسهم، ويعتلي عرش الخلافة للمرة الثانية في شوال سنة 403هـ/ مايو سنة 1013م[5]، ومن المؤكد أن ابن دراج -شأنه في ذلك كشأن سائر شعراء الدولة العامرية- قد تلبث في قرطبة، وهو يعلل نفسه برجاء

(1) يقصد بهذا الشهيد أبا الممدوح: هشام بن عبد الجبار المهدي، الذي كان عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر قد قتله حينما اتهمه بالقيام عليه في المؤامرة التي دبرها عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع لخلع الدولة العامرية، وتنصيب هشام المذكور، وقد كان مصرع هشام على يد المظفر من الأسباب التي دعت ابنه محمدًا إلى الثورة على عبد الرحمن شنجول بن المنصور؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص34-36، 61-62؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص109).

(2) القسطلي، ديوان، ص50-51.

(3) القسطلي، ديوان، ص153.

(4) تولى سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الخلافة بقرطبة مرتين ولقب بالمستعين بالله، فكانت ستة أشهر (ربيع الآخر سنة 400 - شوال سنة 400هـ/ نوفمبر سنة 1009م - مايو سنة 1010م، ثم تولى الخلافة بقرطبة مرة ثانية (شوال سنة 403هـ/ أبريل 1013م)، واستمر إلى أن قتل على يد علي بن حمود (محرم سنة 407هـ/ يونيو سنة 1016م)؛ (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص91، 112-114؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص119-121).

(5) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص61.

انقشاع الأزمة وانجلاء الفتنة [1]، التي أثرت تأثير كلي ليس على أشعاره فحسب، بل على الحياة الثقافية والفكرية بوجه عام.

ظل ابن دراج طوال تلك السنوات الثلاثة راكد القريحة على غير عادته الطبيعية التي جُبل عليها، فكان من أبرز مفكري عصره الذين أبدعوا في مجال الشعر، غير أن الفتنة والحاجة المادية أثرت على نشاطه الفكري[2]، إذ أن الديوان لم يحتفظ لنا بشيء من شعره خلال هذه الفترة، حتى عادت إليه صبابة من أمل بعد ولاية المستعين، ويؤكد لنا ذلك ما ذكره ابن الخطيب في أعمال الأعلام: "واغتنمه (أي سليمان المستعين) شعراء الدولة العامرية والدولة الأموية، وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة، واشتدت فاقتهم وحمت طباعهم، وكانوا كالبزاة النذة الجياع انقضت لفرط الضرورة على الجرادة، فلم يبلَّ صداهم، ولا سد خلتهم لاشتغاله بشأنه واشتداد حاجة سلطانه"[3].

سبب حاجة ابن دراج إلى المال تأثير كبير على نشاطه الفكري، فكان يعيش بشعره، فكانت صناعته قول الشعر ومدح الملوك، وناهيك بمن تكون هذه صناعته، يفد على من يعرف ومن لا يعرف، ويمدح كل الناس ويقول غير ما يعتقد، ولعل تهافته على المدح وتسابقه في هذا الميدان ووقوفه بين أيدي الملوك والأمراء هو الذي أكسبه هذه الشهرة، على أن عصره كان عصر الشعراء المداحين، لأنه مبدأ الاضطراب بخروج الأمر من يد بني أمية وتألب الناس على دولة بني عامر، والاشتغال بالدسائس، الأمر الذي كان له أبلغ الأثر على ابن دراج وشعره، على الرغم من أنه كان من أفضل وأبرع شعراء أهل

---

(1) غومس، نظرات، ص267-293.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص62.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص122.

الأندلس أجمعين، إلا أن الفتنة اضطرته إلى الحاجة، فلجأ إلى الملوك والأمراء يمتدحهم بغية الوصول إلى طائل، ويد تنتشله مما هو فيه[1].

ويروي لنا ابن بسام أن الخليفة سليمان المستعين لما تولى الخلافة تهافت الشعراء خاصة العامريين على مدحه والتقرب منه، فصاغوا في مديحه أشعارًا حسنة، وأنشد الكثير منها في مجلس الخليفة، وكان ممن أنشد في ذلك اليوم ابن دراج، فأنشده قصيدته الدالية التي مطلعها:

شَـــهِدتْ لــك الأيــامُ أنــك عيــدها   لـــك حَـــنَّ موحِـــشها وآبَ بعيـــدها

وأضـــاءَ مُظلِمُهـــا، وأفْـــرَخ رَوْعهـــا   وأطـــاعَ عاصـــيِها، ولان شَـــديدها[2]

ثم مدحه بنونيته المشهورة:

هنيئًـــا لهـــذا المُلْـــك رَوْح ورَيْحـــانُ   وللـــدّينِ والـــدُّنيا أمـــان وإيمـــانُ

فـإنّ قعيــد الخــزي قــد ثُــلَّ عَرْشُــهُ   وإنّ أمـــيرَ المـــؤمنينَ ســـليمان[3]

وله فيه ثالثة:

تَخَـــيَّرْتَ فاستمْـــسَكتَ بـــالعُروَةِ الـــوُثْقى   فَبُـــشْرَاكَ أَنْ تَفنـــى عِـــدَاكَ وأَنْ تَبْقـــى

فـــما أبطـــلَ الـــرحمنُ باطِـــلَ مـــن بَغـــى   عَـــلَى اَلحـــقِّ إلا أَنْ يُحِـــقَّ بِـــكَ اَلحقَّـــا[4]

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص60-61؛ ضيف، بلاغة العرب، ص111-112

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص67-68.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص70.

(4) القسطلي، ديوان، ص167.

عبرت القصائد الثلاثة التي مدح فيها ابن دراج القسطلي السلطة ممثلة هنا في الخليفة سليمان المستعين عن ميوله وأصوله البربرية، فهو ينطق فيها بلسان الحزب البربري الذي تزعمه الخليفة سليمان، ويروي مشاهد القتال بينه وبين الحزب الأندلسي الذي كان منضويًا تحت لواء المهدي، وعلي الرغم من أن قصائده الثلاثة تعبر عن شعر سياسي وميول سياسية إلا أنه لم يهدف منها إلا طلب الحاجة، فعندما لم يجبه الخليفة بشيء عبر بقصيدة أخرى وجهها إليه مصرحًا بشكواه وآلامه فقال:

بَلَّغَتْ عَبْدَكَ الخطوبُ مَدَاها ... يومَ تبليغِكَ النُّفُوسَ مُناها

وتَناهى جَهْدُ الحَياةِ بِمَنْ لَمْ ... يَسْعَ فيما رَضِيتَ إلا تَناهى

وعَجيبٌ أَنْ يُفْنِيَ الظِّمْءُ نَفْسًا ... أَبْحُرُ الأَرْضِ في يَدَيْ مَوْلَاها[1]

حاول ابن دراج القسطلي بكل جهده وأفكاره من أجل لفت أنظار السلطة إلى احتياجاته ومطالبه، غير أن الخليفة سليمان المستعين لم يلتفت إليه، ولم يفِ له بأي شيء يريده، كما أنه لم يلتفت إلي أيٍّ من المفكرين والأدباء الذين حاولوا أن يظفروا منه بطائل، فلم ينعم عليهم بأي شيء، الأمر الذي جعل الكثير منهم ينصرفون عنه ومنهم ابن دراج نفسه، مما كان لذلك أثر كبير على الحياة الأدبية في قرطبة في ذلك الوقت[2].

(1) القسطلي، ديوان، ص69-70.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص67.

لما يئس ابن دراج القسطلي من الخليفة سليمان المستعين، وحينئذ يولي وجهه تجاه أحد وزرائه: القاسم بن حمود[1] العلوي[2]، وكان في ذلك الوقت وزير للخليفة سليمان في قرطبة، ولعل ابن دراج أحس بما كان يدبره

(1) ينسب الحموديون أنفسهم إلى إدريس مؤسس مدينة فاس، أي أنهم ينتمون إلى سلالة شريفة وهي العائلة العلوية وبالتالي فأنهم أحفاد النبي صلى اللـه عليه وسلم ومع ذلك؛ وعلى الرغم من أصولهم العربية فإن الحموديين قد أصبحوا برابرة كليًا، ومن أبرز شخصيات هذه الأسرة يحيى بن علي ابن حمود الذي تمت بيعته بالخلافة في قرطبة بعد هرب عمه القاسم 412هـ / 1012م، واتخذ يحيى ابن علي بن حمود لقب الخلافة المعتلي باللـه، وقد تقرب يحيى إلى الأندلسيين، وقرب العلماء والأدباء خاصة، ثم قرر ترك قرطبة، وانتقل إلى مالقة حيث يشعر بأمان كبير، فكان حكمه في قرطبة عامًا واحدًا وستة شهور إلا يومًا واحدًا؛ (انظر: المراكشي، المعجب، ص54-57؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص131-133؛ سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م، ص358-363).

(2) هو القاسم بن حمود بن ميمون بن حمود الإدريسي الحسني، ولد سنة 348هـ/960م، وكان هو وأخوه (علي) من جملة قواد سليمان بن الحكم (المستعين) حينما ولي الخلافة للمرة الثانية في سنة 403هـ/1013م إذ كانا من أمراء المغاربة الذين شايعوه، فنزلا بشقندة (من ضواحي قرطبة) ثم قدم سليمان، علي بن حمود على سبتة، وولي القاسم على طنجة وأصيلا، على أنه يبدو ظل بقرطبة، ثم انتقل منها إلى إشبيلية بعد أن جاز أخوه (علي) من سبتة إلى قرطبة وقتل سليمان المستعين واستأثر بالخلافة، فلما قتل علي بن حمود في أول ذي القعدة سنة 408هـ/21مارس سنة 1018م توجه إلى قرطبة من إشبيلية وبويع فيها بالخلافة، ثم ضعف أمره وثار عليه أبناء أخيه يحيى بن علي القائم بسبتة وإدريس بمالقة وجاز يحيى البحر، فلما رأى القاسم عجزه عن مقاومته فر إلى إشبيلية في 22من ربيع الآخر سنة 412هـ/5أغسطس سنة 1021م، وأعلن يحيى نفسه خليفة بقرطبة، ثم ضعف أمر يحيى فاضطر إلى الفرار، واستدعى أهل قرطبة القاسم مرة ثانية، فعاد إلى قرطبة وولي الأمر للمرة الثانية حتى ثار عليه القرطبيون مرة أخرى فهرب إلى إشبيلية في 21من جمادي الآخر سنة 413هـ/9سبتمبر سنة 1023م، فمنعه أهلها من دخولها بتدبير من القاضي ابن عباد، فانصرف منها إلى شريش وتوفي بها محبوسًا عند ابن أخيه إدريس بن علي سنة 427هـ/1036م؛ (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص119-135؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص130-135).

العلويون وعلى رأسهم علي بن حمود[1] حاكم سبتة وأخوه القاسم من أجل الإطاحة بعرش الخليفة سليمان، وإقامة دولة علوية تخلف دولة الأمويين في حكم الأندلس، ففي سنة 404هـ/1014م يمدح ابن دراج، القاسم الحمودي بقصيدة أولها:

كَمْ أَستَطِيلُ تَضَلُّلِي وِتَلَدُّدِي وأَرُوحُ فِي ظلَمِ الخطوبِ وأَغْتَدِي

والأَرضُ مُشْرِقَةٌ بِنُورَيْ رَبِّها والفجرُ مُنْبَلِجٌ لِعَيْنِ المُهْتَدِي

بأَغَرَّ من بيتِ النُّبُوَّةِ والهُدى كالبدرِ من وَلَدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

القاسِمِ المقسُومِ راحَةُ كَفِّهِ في بَسْطِ معروفٍ وقَبْضِ مُهَنَّدِ[2]

كما حاول خطب ود أحد رجال السلطة، وأبرز أفرادها في ذلك الوقت، حيث صور في تلك القصيدة ما حل به وبأسرته من أهوال الفتنة في أسلوب مؤثر نابض بالألم، فقال في أولها:

في سِتةٍ ضَعُفُوا وضُعِّفَ عَدُّهُمْ شدَّ الجلاءُ حَمْلا لمبهورِ الفُؤَادِ مُبَلَّدِ

رِحالَهُمْ فتَحَمَّلَتْ أَفْلاذَ قَلْبٍ بالهُمُومِ مُبَدَّدِ[3]

وإذا ما لاحظنا تاريخ قول هذه القصيدة، فمن المؤكد أنه يكون في أثناء خلافة سليمان المستعين حينما كان علي بن حمود واليًا له على سبتة

(1) دخل علي بن حمود قرطبة في سنة 407هـ/1016م، ونصب نفسه خليفة بها، بعدما تأكد من مقتل هشام المؤيد، واتهم سليمان المستعين بمقتله، وقتله من أجل ذلك، واتخذ علي بن حمود اللقب الشرفي الذي كان لعبد الرحمن الثالث وهو الناصر لدين الله؛ (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص17؛ حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الأندلس (تاريخ وفكر وحضارة وتراث)، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1996م، ص412-414).

(2) القسطلي، ديوان، ص69-70.

(3) القسطلي، ديوان، ص74.

في بلاد المغرب والقاسم مازال بقرطبة في سنة 404هـ/1014م، وذلك في الوقت الذي كان يهم (علي) فيه بخلع طاعة سليمان والجواز إلى الأندلس[1].

حاول ابن دراج بقدراته الثقافية والفكرية تحريك القاسم لانتشاله مما هو فيه، غير أن تلك المحاولات باءت بالفشل، فمن المؤكد أن ابن دراج لم يجد لدى القاسم ما كان يؤمل ويحقـق لـه مـا يتمناه، وحينئذ قرر مغادرة قرطبة لأول مرة، فتوجه في هذه السنة عابرًا مضيق جبل طارق إلى أخيه (علي) بن حمود بسبتة.

رابعًا: ابن دراج في سبتة ببلاد المغرب

ترك ابن دراج قرطبة وقلبه يحترق من ألم الفراق، وعيناه تدمع من ضيق المعيشة، فبمجرد وصوله سبتة أنشد علي بن حمود لاميته المشهورة التي فضلها ابن بسام، وهي التي يستهلها بقوله:

لَعَلّـــكِ يـــا شَـــمسُ عنـــد الأصـــيلِ	**شَـــجيتِ لِـــشَجْوِ الغريـــبِ الـــذَّليل**
فكُـــوني شَـــفيعي إلى ابـــنِ الـــشّفيعِ	**وكـــوني رســـولي إلى ابـــن الرَّســـول**
فإمَّـــا شَـــهِدت فـــأزْكَ شـــهيدٍ	**وإمَّـــا دَلَلْـــتِ فأهـــدى دليـــلِ**[2]

كانت هذه أول رحلة لابن دراج خارج حدود وآخرها على ما يظهـر، ونحـن لا نـراه يجـاوز مدينة سبتة على ساحل الشمال الأفريقي إلى غيرها من بلاد المغـرب، ولاشـك في أن سـن ابـن دراج -وكان قد قارب الستين سنة- وكثرة أبنائه وارتباطه الشديد بوطنه -رغم كل ما لاقاه فيه- كل ذلـك لم يكن يسمح لابن دراج بهجرة طويلة المدى عن الأندلس[3].

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص115.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص88.

(3) ذهب بعض الباحثين إلى أن ابن دراج رحل إلى المشرق واستشهد ببعض الأبيات التي مدح بها خـيران العـامري، غير أن الدكتور مكي يرى أن ذلك لا يدل على أي رحلة، وإنما هي نفثة مصدور ضاقت بـه بـلاده، فـضاق بهـا، وعبر عن سخطه على مصيره بما يشير إليه من ضياعه في بلاد الأندلس، على الرغم من سـيرورة شـعره وحفـاوة بلاد المشرق به لو أنه عزم على الرحلة إليها؛ (انظر: القسطلي، ديوان، ص67من مقدمة المحقق).

لذلك لعب الجانب المادي والضائقة الاقتصادية لابن دراج دورًا كبيرًا في خروجه سريعًا من سبتة، وقد انقطع رجاؤه أو كاد من الحموديين ودولتهم التي لم تستطع أن تفرض نفسها على الأندلس بل انحصرت في جزء صغير من جنوبي شرقي الجزيرة[1].

خامسًا: ابن دراج رحالة بين العديد من مدن الأندلس

بحث ابن دراج في أرجاء الأندلس عن مستقر جديد يحقق من ورائه غايته ومبتغاه، فضرب في مناكب شبه الجزيرة يبحث عن ذلك المستقر الجديد الذي يحقق من ورائه ما رمى إليه من سعة للرزق وتقديرًا للعلم والمفكرين، فاتجه نظره إلى دول الموالي العامريين، الذين كانوا من الصقالبة الذين خدموا في دولة بني عامر ثم وثبوا على بلاد شرق الأندلس حينما انفرط عقد الخلافة، فاستبدوا بمدنها واستقل كل منهم بإحدى إمارتها[2].

ومن المرجح أن الذي ساق ابن دراج إلى التوجه لهؤلاء العامريين وطلب ودهم، كان هو الصلة القديمة التي كان يَمُتُّ بها إلى المنصور بن أبي عامر وذريته، ولعله كان يعرف بعض هؤلاء في أثناء خدمته في بلاط المنصور، مما أطمعه في أن يجد لديهم مستقرًا يطمئن إليه، ويشبع حاجته ورغبته من المال ورغد العيش.

ورغم كل الظروف التي ألمت بابن دراج إلا أنه كان شاعرًا موهوبًا، رزق القدرة على الوصول إلى لب الحقيقة من بين الوقائع والروايات، وكانت أدواته في هذا الوصول علمًا غزيرًا، وفكرًا نافذًا إلى دلالة الوقائع، ومنهجًا قادرًا على الفحص والدرس والمقارنة والاستنتاج، إلا أن العصر الذي عاشه

(1) القسطلي، ديوان، ص67من مقدمة المحقق.

(2) لمزيد من التفاصيل عن هؤلاء الموالي العامريين ودولهم في الأندلس انظر: أحمد مختار العبادي، الصقالبة في إسبانيا، نشر معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1953م.

كان له تأثير كبير على أشعاره، وتوجيه أفكاره، فسخر كل إبداعاته وقدراته لمدح ملوك وأمراء الأندلس بغية الوصول إلى مكانة تفتح له كل الأبواب المغلقة، أو عطايا تحقق له رغد من العيش تأمن له حياته، ومستقبل أبنائه في عصر عانى فيه الجميع آلام الدنيا من اضطرابات وفقر وفتن وحروب ونزاع شرد بسببه الكثير من أفراد المجتمع.

تردد ابن دراج ما بين سنتي 404-408هـ/1014- 1018م بين المرية[1] Almeria وبلنسية[2] Valencia وشاطبة Jàtiva وطرطوشة[3] Tartosa مادحًا أمراء هذه المدن دون أن يظفر منهم بطائل أو يحقق من وراءهم أي منفعة.

---

(1) المرية Almeria: مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، وكانت هي وبجانة بابي الشرق، وتقع على ساحل البحر المتوسط بين مالقة ومرسية، ولم تكن المرية قديمة العمارة بل اتخذت في بادىء الأمر رباطًا، فكان الناس يرابطون فيها؛ (انظر: ابن حوقل، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م، ص110؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه د.إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1975م، ص140).

(2) بلنسية Valencia: كورة ومدينة وقاعدة من قواعد الأندلس الشرقية، وتبعد المدينة عن الساحل مسافة 4كم، يرويها نهر جار يصلح للملاحة وتدخله السفن، سمي النهر الأبيض أو الوادي الأبيض Guadalviar وهو فرع من نهر توريا Turia ويروي مزارعها وبساتينها الشهيرة، ومدينة بلنسية تقع في سهل فسيح مستو من الأرض، وقد بسط الجغرافيون القول في وصفها حتى سموها (مطيب الأندلس) و (بستان الأندلس) وأطلقوا عليها اسم (مدينة التراب) لحسنها وجمالها وكثرة مواردها ورياحينها، فقد "خصها الله -كما قال ابن سعيد- بأحسن مكان وحفها بالأنهار والجنات فلا ترى إلا مياهًا تتفرع، ولا تسمع إلا أطيارًا تسجع ولا تستنشق إلا أزهارًا والمدينة في ذاتها مسورة، أتقن سورها وأحكم، ولها خمسة أبواب، وقد اشتهرت بزراعة الزعفران والأرز، كما أنها مركز تجاري مهم في الأندلس؛ (انظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ج2، ص556؛20؛ ابن غالب، فرحة الأنفس فرحة الأنفس، نشر د. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج2، القاهرة، 1955، ص285؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص167).

(3) طرطوشة Tortosa : إحدى مدن الثغر الأعلى في شمال شرق الأندلس، تقع على سفح جبل، لها سور حصين وبها أسواق وعمارات وضياع، تشتهر بخشب الصنوبر الموجود بوفرة في جبالها، ويصنع منه المراكب، وكانت المنفى الذي درج أمراء الأندلس وحكامها على أن يبعدوا إليه من يغضبون عليه، أو تلحقه النكبة من قبلهم وكانت قصبتها المنيعة الشاهقة هي محبس هؤلاء وممن أودع بها الكاتب المعروف عبد الملك بن إدريس الجزيري عندما غضب عليه الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور ابن أبي عامر سنة 394هـ/1004م؛ (انظر: ابن حيان، السفر الثاني من كتاب المقتبس، حققه وقدم له وعلق عليه د. محمود علي مكي، الطبعة الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2003م، ص550؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص190؛ كمال أبو مصطفى، تاريخ مدينة طرطوشة وحضارتها في عصر دويلات الطوائف (بحث من بحوث ندوة الأندلس قرون من التقلبات)، الرياض، 1994م، ص3-10).

ولعل أول من قصده من هؤلاء الفتيان العامريين كان خيران[1] الذي تولى حكم المرية في سنة 405هـ/1015م، وظل يحكمها حتى سنة 419هـ/1028م؛ فقد مدحه ابن دراج بقصيدة طارت شهرتها في المشرق والمغرب، أملًا في الحصول على دعم مادي واطمئنان نفس، وهي النونية التي أولها:

لكَ الخيرُ، قد أَوْفى بَعهدِكَ خَيْرانُ وبُشْرَاكَ، قد آواكَ عِزٌّ وسُلْطانُ

هو النُّجْحُ، لا يُدْعى إلى الصُّبْح شِاهِدٌ هو الفَوْزُ، لا يُبْغى عَلَى الشَّمْسِ بُرْهانُ

إلَيْكَ شَحَنَّا الفُلْكَ تَهْوي كَأَنَّها -وقَدْ ذُعِرَتْ عَنْ مَغْرِبِ الشَّمْسِ-غِرْبانُ[2]

(1) خيران العامري الصقلبي كان من جلة فتيان الحاجب المنصور بن أبي عامر، فلما نشبت الفتنة كان من بين من أيدوا محمد بن هشام المهدي حتى بدا لهم في أمره فغدروا به، ولما دخل سليمان المستعين قرطبة فر منها، ثم كان ممن أعانوا (علي بن حمود) في ثورته على سليمان إلا أنه حين دخل قرطبة معه كان يطمع في أن يجد هشامًا المؤيد حيًا، فلما لم يجد استراب من ابن حمود وفر من قرطبة واشترك مع منذر بن يحيى في تدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى، ولكنه عاد فغدر به ودبر قتله بعد هزيمته أمام أسوار غرناطة سنة 409هـ/1019م، وكان خيران قد استقل بالمرية في سنة 405هـ/1015م، واستولى كذلك على أريوله ومرسية، وبقى على المرية حتى توفي سنة 419هـ/1028م؛ (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص166-167؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص210-215).

(2) القسطلي، ديوان، ص86-87؛ (أما عن تاريخ تلك القصيدة فقد نص ابن الخطيب على أنه قالها في سنة 407هـ/1017م؛ انظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص212؛ العبادي، الصقالبة).

فكانت تلك القصيدة من أجمل ما نظم ابن دراج وأصدقه، ولا نقصد بصدقه هنا إخلاصه في مدح هذا الصقلبي الذي لم يكن على حظ كبير من تقدير الشعر أو العناية به، وإنما نعني به تصوير ما جرته الفتنة على الأندلس من ويلات وكوارث، أما خيران فإنه لم يكافئ ابن دراج على مدحه إياه إلا بقدر ما سمحت به حماقة وغلظ الطبع الصقلبي وبعده عن تذوق الفن والثقافة، فالحميدي يذكر "أنه بخس ابن دراج حظه في الجائزة والعطايا، فبلغ الخبر أبا جعفر بن جواد[1]، فوصل الشاعر بخمسة عشر مثقالًا دفعها إليه وقال له: أعذر أخاك فإنه في دار غربة"[2].

وقد سارت فعلة خيران هذه حتى ضرب بها المثل، وبقى صداها يتردد في الأندلس، ويتندر به أدباؤها حتى آخر عهد الإسلام بهذه البلاد، حتى إننا نرى الشاعر الغرناطي الفقيه عمر الزجال يقول لأحد ممدوحيه:

ولا خير إن تجعل كفاء قصيدتي كفاء ابن دراج على مدح خيران[3]

وفي ذلك الوقت بايع خيران ومنذر بن يحيى التجيبي، عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالمرتضي[4] زعيم الحزب الأموي سنة 407هـ/1017م، خالعين طاعة علي بن حمود، وجمعا له جيشًا كبيرًا انضم إليه بعض الأفرنج من أهل برشلونة وتوجهوا إلى غرناطة حيث تجمع البربر تحت لواء زاوي

---

(1) أبو جعفر بن جواد: اشتهر بالفضل، والمروءة وسعة النفس والإيثار، وكان من أطباء الأندلس؛ (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، رقم931، ص578؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم1526، ج2، ص698).

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم931، ص578؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1526، ص698.

(3) المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1939م، ج1، ص120.

(4) أبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن المرتضى الملقب بالغزال لوسامته، فكان مولعًا بالفكاهة والنادرة، محبًا في الظرفاء؛ (انظر: المقري، نفح الطيب، ج3، ص590).

بن زيري الصنهاجي، وفي هذه المناسبة مدح ابن دراج، عبد الرحمن المرتضى بداليته التي مطلعها:

جِهــادُكَ حُكْــمُ اللـــه مَــنْ ذا يَــرُدُّهُ؟ وعَزْمُــــكَ أَمْــــرُ مَــــنْ ذا يَــــصُدُّهُ؟

وطـــائِرُكَ الــيُمْنُ الَّــذِي أَنْــتَ يُمْنُــهُ وطَالِعُــكَ الــسَّعْدُ الَّــذِي أَنْــتَ سَــعْدُهُ[1]

واختص ابن دراج، منذر بن يحيى بجانب كبير مـن هـذه القـصيدة، ولعلـه كـان يبيـت في نفسه منذ ذلك الحين التوجه إلى منذر في سرقـسطة[2] للاختـصاص بـه[3]، بحثًـا عـن المـال والعيـشة الكريمة.

---

(1) القسطلي، ديوان، ص81-82؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص82.

(2) سرقسطة Zaragoza: قاعدة كبيرة ومدينة مشهور في شمال شرق الأندلس، فهـي أم الثغـر الأعـلى، وتقـع عـلى خمسة أنهار تحيط بها من جوانبها هي نهر ابرو (النهر الأعظم)، ونهر جلق، ونهر شلون ونهر روية المعـروف ببلطش، ونهر فنتش، ولهذا وصفت سرقسطة بأنها أطيب البلدان بقعة، وأكثرهـا ثمـرًا، غزيـرة الخـيرات كثـيرة البركات، وفواكهها وأطعمتها مـن الكـثرة والجـود بحيـث قـد شـاع في جميـع الأقطـار، وهـي متـصلة الجنـات والبساتين، وقد شبه موسى بن نصير بساتينها بغوطة دمشق، والمدينة مبنية عـلى مثـال الـصليب، ولهـا أربعـة أبواب، فهي مدينة كبيرة آهلة حميدة الأطناب واسعة الشوارع والرحاب حسنة الـديار والمـساكن، ولهـا سـور مبني من الحجارة والرخام، وأطلق عليها اسم المدينة البيضاء؛ (انظر: اليعقوبي، البلدان، وضع حواشيه محمـد أمين ضناوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ ، ص106؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص105؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص288-289؛ الإدريسي، نزهـة المـشتاق، ج2، ص554؛ ابـن حيـان، المقتـبس، نـشره بدرو شالميتا وآخرون، مدريد، 1979م، ص285، 357؛ ابن سعيد، الجغرافيا، ص180؛ الحميري، الروض المعطار، ص317؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص150، 166).

(3) القسطلي، ديوان، ص70من مقدمة المحقق.

ولم ير ابن دراج بدًا من ترك المرية والتوجه إلى بلنسية حيث كان يحكم مبارك ومظفر[1]، وهما خصيان من موالي الحاجب المنصور بن أبي عامر، كان شأنهما قد ارتفع حتى تسلطا على إمارة بلنسية، ولعل ابن دراج أمل لديهما ما كان المتنبي قد أمله في كافور الإخشيدي حين قصده بعد مفارقته لسيف الدولة، فمدحهم ابن دراج بقصيدتين الأولى جاء في مطلعها:

أَنُــــورُكِ أَمْ أَوْقَـــدْتِ بالليـــلِ نـــارَكِ لِبـــاغٍ قِـــراكِ أَو لبـــاغٍ جـــوارَكِ؟[2]

والقصيدة الثانية قالها حينما دعيا إلى ولاية طليطلة، حيث جاء في مطلعها:

أُهَنِّـــيكُمَا مـــا يَهْنِـــىء الـــدِّينَ مِـــنكُمَا هُـــدىً ونَـــدىً فلْيَـــسْلَمِ الـــدِّينُ واسْـــلَمَا[3]

حاول ابن دراج البحث عن تحقيق مكاسب من وراء قدراته الفكرية والثقافية، وذلك بهدف تأمين حياة كريمة لنفسه، فكانت مهنته قول الشعر، لذلك لم يقتصر على مدح هذين الصقلبين أميري بلنسية، بل إنه توجه كذلك إلى بعض أصاغر الأمراء ممن كانوا يدينون بالطاعة لهذين، فنجده يمدح لبيب العامري صاحب طرطوشة بقصيدة مطلعها:

---

(1) تمكن الفتيان الصقالبة مبارك ومظفر العامريين من انتزاع مدينتي بلنسية وشاطبة من حكم مجاهد العامري، وسعى كل من مبارك ومظفر على بناء وإعمار بلنسية وازدهارها، واستمر مبارك ومظفر في حكم إدارة بلنسية بنجاح وفي سنة 408هـ/1017م، مات مبارك بحادث؛ (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص160؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص333؛ محمد بشير حسن راضي العامري، تاريخ بلد الأندلس في العصر الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014م، ص110).

(2) القسطلي، ديوان، ص101-102.

(3) القسطلي، ديوان، ص520.

هَـــلْ تَثْنِـــيَنَّ غُـــرُوبَ دمـــعٍ ســـاكِبِ مَـــنْ شـــامَ بارِقَـــةَ الغـــمامِ الـــصَّائِبِ[1]

وفي تلك القصيدة يذكر بما يربط بينهما من خدمة الدولة العامرية، بل ويشفع بهم إليه:

بَيْنِـــــي وَبينَـــــكِ أَنْ يُلَبِّـــــيَ دعــــوتِي داعـــي "لَبِيــبٍ" مـــن مُنـــاخِ ركـــائِبي

وَأُهِـــــلَّ نَحْــــوَ فِنِائِـــــهِ وَعَطائِـــــهِ فيُهِـــلَّ نحـــو وَســـائِلِي وَرغـــائبي

وَأَشِـــــيمَ بَـــــرْقَ يمِينِـــــهِ وجبينـــــه وَيـــــشُمَّ رِيـــــحَ أوَاصِرِي وَمَطـــــالبي

وَأَهُـــــزَّهُ بـــــشوافِعٍ مـــــن عـــــامِرٍ تُـــزْرِي بكـــلِّ قرابـــةٍ وَمَناسِـــبِ[2]

كذلك مدح ابن دراج القسطلي الفتح بن أفلح صاحب دانية بأبيات أولها:

غرائـــب مـــما أغـــرب الـــدهر أطلعـــت عليـــك هـــلال العلـــم مـــن أفـــق الغـــربِ

طـــوت فلـــوات الأرض نحـــوك وانطـــوت كبـــدر إلى محـــق، وشـــهر إلى عقـــب[3]

وهكذا تردد ابن دراج القسطلي على هؤلاء الموالي العامريين دون أن يجد منهم أذنًا مصغية أو يدًا رفيقة، وهو ما صوره ابن بسام عن هذه الوفادات قائلًا: "ولم يزل يتقلَّبُ بين أطباقها، ويترشَّفَ أسآرَ ثمادِهـا وأرناقِـه، فكـم لـه مـن وفـادةٍ أخـزى مـن وفـادة البرجمـي[4]، ووسـيلةٍ أضـيعَ مـن المـصحف

---

(1) القسطلي، ديوان، ص109.

(2) القسطلي، ديوان، ص112.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص12.

(4) من المثل "إن الشقيّ وافدُ البراجم" وقصة هذا المثل أنه لما قتل بني تميم سعد بـن هنـد أخـا عمـرو بـن عبـد الملك، فَنَذر عمرو ليقتلَنَّ بأخيه مائةً من تميم، فجمع أهل مملكتـه فـسار إلـيهم، فـبلغهم الخـبر، فتفرقـوا في نواحي بلادهم، فأتى دارهم فلم يجد إلا عجوزًا كبيرة، فاحتدم النقاش بينهم، فأمر عمـرو بإحراقهـا، فـما لبـث أن أقبل عليه راكبٌ يسمى عمارًا أناخت راحِلتُه إليه، فقال له عمرو: مَنْ أنـت، قـال أنـا رجـل مـن الـبَرَاجم؟، قال: فما جاء بك إلينا؟، قال: سطع الدخان، وكنت قـد طَويـتَ (أي جعـت) منـذ أيـام فظننتـه طعامًـا، فقـال عمرو: إن الشقيّ وافدُ البراجم، فذهبت مثلًا، وأمر به فألقي في النار؛ (لمزيد مـن التفاصـيل انظـر: الإمـام أبـو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني، مجمـع الأمثـال، المعاونيـة الثقافيـة للآسـتانة الرضـوية المقدسة، 1987م، ج1، ص594).

في بيت الزنديق الأميّ، بقصائد لو مدِحَ بها الزمانُ لما جار، أو رواها الزبرقان (القمر) لأَمِنَ السّرار، ورسائلَ أعذبَ من ماء الثغور، وأعجبَ من الدرِّ بين الترائبِ والنحور، يتخللها بشكوى أحرَّ من الجمر، وعذرٍ في البكاء أوضح من الفجر،..."[1].

سادسًا: ابن دراج في بلاط التجيبيين

بدأ ابن دراج يفتش ويفكر فيمن ينتشله من بئر الفقر وطلب الحاجة، فوجد في منذر بن يحيى التجيبي[2] منقذه وأمله الكبير فتوجه إليه، بعد فترة عصيبة من التغرب والتشرد، قدرت بحوالي ثماني سنوات كانت سنوات عجاف عانى فيها مرارة العيش وضيق الحال، فقد شجعت صلة منذر التجيبي بالخليفه الأموي عبد الرحمن المرتضى في سنه 407هـ/1017م، ابن دراج على التوجه إلى منذر بعد أن يئس من الفتيان العامريين الذين لم ينظروا إليه أي نظرة تقدير ورأفة، رغم وسائله التي أعيته للتقرب إليهم،

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص10-11.

(2) أبو الحكم منذر بن يحيي التجيبي كان قد ترقي إلى القيادة في الثغر الأعلى(سرقسطة) في آخر الدولة العامرية ثم اشترك في الفتنة القرطبية، وأيد سليمان بن الحكم المستعين في دولته الثانية (سنة 403هـ/1013م) فأقره على سرقسطة ثم قام مع خيران العامري بتدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى حتى غدرا به وتسببا في مصرعه سنة 409هـ/1019م، ووقعت أحداث كثيرة بينه وبين جيرانه من ملوك الطوائف على أنه ظل متسلطًا على سرقسطة والثغر حتى وفاته سنة 412هـ/1021م، وخلفه ابنه يحيى، وفي المراجع العربية اختلاط واضطراب كثير حول الدولة المنذرية في سرقسطة ومرد ذلك الخلط بين منذر بن يحيى هذا وحفيد له يحمل نفس الاسم تولى سرقسطة أيضًا بعد ذلك؛ (انظر: العذري، ترصيع الأخبار، ص48).

وكانت أول قصائده في مدح منذر عند قدومه على سرقسطة في سنة 408هـ/1018م، وكان منذر حينئذ حاجب، هي الرائية التي استهلها بقوله:

بُشْرَاكَ من طُولِ التَّرَحُّلِ والسُّرى صبحٌ بِرَوْحِ السَّفْرِ لاَحَ فَأَسْفَرَا

مِنْ حاجِبِ الشَّمْسِ الذِي حَجَبَ الدجى فَجْرًا بأَنهارِ النَّدى مْتفَجِّرا[1]

ولم يخب أمل ابن دراج في هذه المرة، فقد أتيح له في سرقسطة جو من الاستقرار لم ينعم به منذ فارق قرطبة في سنوات الفتنة، وفي بلاط منذر التجيبي وولده المظفر يحيى من بعده (412-427هـ/1021-1035م) قضى ابن دراج نحو عشر سنوات تمتع خلالها ببعض الهدوء والنعمة، وإلى هذين الملكين وجه ابن دراج شطرًا كبيرًا يبلغ نحو الثلث من إنتاجه الشعري[2].

وكان سبب قصد ابن دراج الحاجب المنصور منذر بن يحيى صاحب سرقسطة، ما اشتهر به منذر بن يحيى بالكرم، فكان يهب لقصاده مالًا عظيمًا، فوفدوا عليه "وعمرت بذلك حضرته سرقسطة، فحسنت أيامه وهتف المداح بذكره"[3]، وذكر ابن حيان أن منذر بن يحيى "استكتب عدة من الكتاب النبهاء، وقصده أكابر الشعراء"[4].

وقد كان منذر على نصيب من الأدب حمله على العناية بالشعراء والعلماء والمفكرين، ولاريب أنه قدر ما في إيوائه لشاعر مثل ابن دراج من

(1) القسطلي، ديوان، ص124-125؛ ولابد من الإشارة إلى أن ابن الخطيب في كتاب الأعلام أورد تاريخ تلك القصيدة خطأ فذكر أنها سنة 428هـ ولكنها فيما يبدو كانت سنة 408هـ؛ (انظر: القسطلي، ديوان، ص125).

(2) القسطلي، ديوان، ص72.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص227؛ وانظر أيضًا: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص152وما بعدها؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص435؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص175وما بعدها؛ آنخل جنثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955م ، ص107-108.

(4) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص228.

إشادة بذكره بين ملوك الطوائف؛ أما ابن دراج فلعله رأى في حياته في ظل التجيبيين صورة -مصغرة بلا شك- من حياته الماضية في رحاب العامريين حيث كان شاعر دولتهم (الرسمي) وكاتب الرسائل في ديوانهم.

ساعدت قدرات ابن دراج الفكرية على توثيق علاقته ببلاط سرقسطة، فأعاد في ظل منذر بن يحيى عهده مع الحاجب المنصور بن أبي عامر، فلا يكاد يدع مناسبة تمر إلا وأنشد فيها شيئًا، وقد كان لمنذر نصيب من جهاد المسيحيين المجاورين لمملكته، ووجد ابن دراج في ذلك متنفسًا لشعره كما كان يجد في غزوات العامريين لمن جاورهم من الممالك النصرانية؛ ومن أجمل قصائده في ذلك تلك التي يستهلها بقوله:

أَهَلَّ بالبَيْنِ فانْهَلَّتْ مَدَامِعُهُ ... وَآنَس النَّفْرَ فاسْتَكَّتْ مَسامِعُهُ

وَوَدَّعَ المَنْزِلَ الأَعْلى فَأَوْدَعَهُ ... في القَلْبِ لا عِجَ بَثٍّ لا يُوَادِعُهُ

يا مَعْهَدًا لَمْ يُضِعْ عَهْدَ الوَفاءِ لَهُ ... مُكَسَّفُ النُّورِ عافِي القَدْرِ ضائِعُهُ[1]

وأخرى مدحه بها وقد انصرف من إحدى غزواته أولها:

نِعَمٌ يُبَشِّرُ بَدْؤُها بِتَمامِ ... فَتْحُ القُدُومِ ونُصْرَةُ الإِقْدَامِ

وُدِّعْتَ مَحْمُودًا، وَصَلْتَ مُظَفَّرًا ... فاقْدَمْ بِطِيبِ تحبَّةٍ وسَلَامِ

والْبَسْ بِعِزَّةِ مَنْ سَعَيْتَ لِنَصْرِهِ ... تاجَ الجلالِ وحُلَّةَ الإِعْظامِ

واسْعَدْ لِعِزِّ الدينِ والدُّنْيا مَعًا ... واسْلَمْ لنَصْرِ اللهِ والإِسلامِ[2]

من المؤكد أن ابن دراج وجد ضالته المنشودة في بلاط سرقسطة، فقد أتيح له شيء من اليسر والثروة في خلال إقامته بسرقسطة، فنحن نعرف من شعره أنه اقتني ضياعًا وجنانًا يتحدث عنهما في قصيدتين أرسلهما إلى

(1) القسطلي، ديوان، ص137-138.

(2) القسطلي، ديوان، ص211.

قاضي سرقسطة يحتج على زيادة الضرائب على هذه الضياع، وهما قصيدتان أشبه بالرسائل منهما بالشعر[1].

ولما مات منذر بن يحيى[2] في سنة 412ه/1021م، وخلفه على عرش سرقسطة ابنه يحيى، وقد لبث ابن دراج في سرقسطة طوال مدة منذر الأول ثم شطرًا من إمارة يحيى بن منذر، أما منذر الثاني فلم يدركه القسطلي، وإن كان قد أشار إليه في بعض مدائحه لأبيه يحيى وكان حينئذ ولي عهده[3].

بقى ابن دراج في كنف الأمير الجديد يحيى بن منذر على حاله الأول مادحًا له مسجلًا كل ما وقع في عهده من أحداث مهمة في غزوة أو سفارة أو ما إلى ذلك، هذا فضلًا عما كان معتادًا عليه من شعر المناسبات والتهنئات ومقطعات أخرى غنائية[4].

لم تكن علاقة ابن دراج في سرقسطة مقتصرة على هذين الأميرين التجيبيين فحسب، وإنما كان على صلة وثيقة ببعض رجالات سرقسطة نذكر

(1) القسطلي، ديوان، ص72.

(2) حول منذر بن يحيى التجيبي وسنوات حكمه وحكم ابنه يحيى من بعده خلاف كبير بين المؤرخين واضطراب في أقوالهم مما أوقع الباحثين المحدثين كذلك في خلاف واضطراب أشد، حتى ظن الكثيرون أنه لم يكن هناك من التجيبيين إلا ملك واحد هو منذر هذا ثم ابنه يحيى بن منذر دون أن يهتدوا إلى تحديد سنوات ولايتيهما ووفاتهما، ونذكر هنا أن التجيبيين ملوك سرقسطة قبل دولة بني هود كانوا ثلاثة: الأول منذر بن يحيى وقد استقل بحكم سرقسطة منذ سنة 408هـ/1017م حتى سنة 412هـ/1021م؛ وخلفه من بعده ابنه يحيى بن منذر الذي حكم بين سنتي 412هـ/1021م و417هـ/1026م، وثالثهم هو منذر بن يحيى (الثاني) وحكم بين 427هـ/1035-1036م و430هـ/1038-1039م حين اغتاله عبد الله بن حكم منهيًا بذلك حكم التجيبيين في سرقسطة في خبر مشهور؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص156-158؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص178-181؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص196-197).

(3) العذري، ترصيع الأخبار، ص41-48.

(4) القسطلي، ديوان، ص287-292.

منهم الكاتب ابن أزرق الذي كان من جلة من تولوا العمل في ديوان الرسائل في سرقسطة[1]، وكذلك القائد ابن باق[2] الذي كان على الأرجح -من شعر ابن دراج- من أعظم القواد والوزراء على عهد التجيبيين[3].

على أن العلاقة بين ابن دراج ويحيى أصابها شيء من الفتور لأسباب لا نعرفها على وجه التحقيق، ولعل الأمير لم يعامل الشاعر بمثل ما كان يعامل به أبوه منذر، وقد باح ابن دراج بذلك في قصيدة وجهها إلى صديقه القائد ابن باق، وتحدث فيها بكثير من الامتنان عن منذر وابنه يحيى، إلا أنه يشكو من إضاعة يحيى لحقه وإلوائه بجزائه:

فَهلْ في الوَرى غَيْرِ سَمْعٍ شهيدٍ — يُلَبِّيهِ كُلُّ فؤادٍ لَبيبِ

بأَنْ لَمْ يَفُزْ قَبْلَهَا مُلْكُ مَلْكٍ — بِقِدْحٍ كَقِدْحِ مَلِيكَيْ تُجِيبِ

فأَنْجِبْ بِمُورِثِهِ مِنْ مَليكٍ — وأَسْعِدْ بوارِثِهِ مِن نَجيبِ

وأَعْجِبْ بأَوْفى مليكٍ أَضَاعَ — مِنَ الذِّكْرِ والفخرِ أَوْفى نَصِيبِ![4]

وقد بلغ به الضيق أن هدد بفراق جوار يحيى بن منذر، وطلب من ابن باق أن ينهي ذلك إلى الأمير:

(1) القسطلي، ديوان، ص327-331؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص154؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص177.

(2) لم يرد في المراجع التاريخية شيء عن القائد ابن باق هذا، على أننا عثرنا على إشارة عابرة إلى قائد كاتب يدعى أحمد بن محمد بن باق كان واليًا على مدينة سالم، وبها قتل في سنة 419هـ/1028م أو 420هـ/1029؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البابانى، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مطبعة البهية، استانبول، 1951م، ج2، ص89).

(3) القسطلي، ديوان، ص468-473؛ 489-492.

(4) القسطلي، ديوان، ص470-471.

فـــإِنْ تُنْـــهِ عَنِّـــي فـــأَوْلى مُجـــابٍ	دِعَـــــا للمكـــــارِمِ أَهْـــــدى مُجِيـــــبِ
وكُنْـــــتَ بـــــذلِكَ أَحظـــــى مُثـــــابٍ	لـــــه مـــــن ثَنَـــــائِيَ أَوْفى مُثِيـــــبِ
ومـــن يَمْنَـــعِ الـــضَّيْفَ رَحْـــبَ الفِنـــاءِ	فقـــــد قـــــادَهُ للفـــــضاءِ الرَّحِيـــــبِ[1]

لا تمدنا المصادر بأي تفصيل عن الأيام الأخيرة لإقامة ابن دراج في سرقسطة، ويفهم من نص لابن حيان أنه قضى آخر سنوات حياته في هذا البلد في كنف يحيى بن منذر التجيبي إذ يقول: "فلـم يزل عنده (أي عند منذر) وعند ابنه بعده مادحًا لهما، مثنيًا عليهما غـير بـاغٍ بـدلًا بجـوارهما إلى أن مضى لسبيله"[2].

غير أنه يبدو لنا أن ابن دراج قد ضاق أخيرًا بمقامه في سرقسطة كما سبق أن أوضحنا، وقـد رأينا كيف جرى ذلك على لسانه في قصيدته التي أرسلها إلى ابن باق معرضًـا لـه بمغـادرة سرقـسطة، ويظهر أنه اضطر أخيرًا إلى ذلك بالفعل، فنحن لا نلبـث أن نـراه بعـد ذلـك في دانيـة مادحًـا أميرهـا مجاهد العامري[3] في سنة 419هـ/1028م في قصيدة جاء فيها:

---

(1) القسطلي، ديوان، ص473.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص61.

(3) أبو الجيش مجاهد العامري: الملقب بالموفق، فهو مجاهد بن عبد اللـه أصله رومي مولى للحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، نشأ في قرطبة، وكانت له هـمة وصلابة وجرأة، من أذكى ملوك الطوائـف، وأمهرهــم بالشؤون المالية، والتجارية، كما كان محبًا للقرآن، وعلوم القراءات، والتفسير واللغة العربية، خرج أبو الجـيش مجاهد من قرطبة يوم قتل المهـدي سنة 400هـ / 1009-1010م، وبايع المرتضى الأمـوي، وسـار إلى طرطوشـة ثم تركهـا، وانتقل إلى دانية واسـتقل بهـا، ثـم اسـتولى عـلى الجزائـر الـشرقية(جـزر البليـار: ميورقـة ومنورقـة ويابسة) سنة 405هـ/1014م، واستبد بها سنة 413هـ / 1022م، وفي سنة 406هـ/1015م غزا جزيـرة سردانيـة ولكنه لم ينجح في الاستيلاء عليها، وكان مجاهد من أعظم ملوك الطوائف وأكثرهم عنايـة بـالعلم والأدب، وفي كنفه عاش عدد من كبار علماء الأندلس في هذه الفترة، وكانت وفاة مجاهـد في سـنة 436هــ/1044-1045م؛ (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، رقم830، ص522-524؛ المراكشي، المعجب، ص77؛ ابن سـعيد، المغـرب، ج2، ص401؛ العبادي، الصقالبة، ص21-26).

إلى أَيٍّ ذكـــــرٍ غـــــيرِ ذكـــرِكَ أَرتـــاحُ ومـــــنَ أَيٍّ بحـــــرٍ بعـــــد بحـــرِكَ أَمتـــاحُ
إليـــكَ انتهـــى الـــرِّيُّ الـــذي بـــكَ ينتهـــي ولاحَ لِيَ الـــــرَّأْ يُ الـــــذي بـــــك يَلْتَـــــاحُ
وفي مائِـــكَ الإِغـــداقُ والـــصَّفْوُ والـــرَّوى وفي ظلِّـــــكَ الريحـــــانُ والـــــرَّوْحُ والـــــرَّاحُ
وكـــــلٌّ بأَثمـــــارِ الحيـــــاةِ مُهَـــــدُّلٌ وبـــــالعطفِ مَيَّـــــاسٌ وبـــــالعُرْفِ مَيَّـــــاحُ[1]
فأَغْـــدَقَ للظـــمآنِ مَحْيًـــا ومَـــشْرَبْ وأَفْـــــصَحَ بالـــــضَّاحِي[2] غُـــــضُونٌ وأَدواحُ[3]

ومن خلال مطلع قصيدته في مدح مجاهد يمكننا أن نستنتج أن أمرًا خطيرًا هـو الـذي دفـع ابن دراج إلى هذه الرحلة، وهو قد ناهز السبعين من عمره، ورغم عدم إشارة المصادر إلى ذلك الأمر الخطير الذي وقع بين ابن دراج ويحيى بن منذر، إلا أننا يمكننا الاستنتاج بـأن الفرقـة التـي وقعـت بينهما كان سببها وشاية من أحد منافسيه نظرًا لتنافس مفكري ذلك العصر في التقرب مـن الـسلطة وأملًا في كسب المال وراحة العيش.

سابعًا: ابن دراج في بلاط مجاهد العامري

رأى ابن دراج في مجاهد آخر أمل له بعد أن أدركه اليأس، وهو يعود إلى الحديث في هـذه القصيدة عما ألم به من خطوب ألجأته إلى حضرة مجاهد:

إليهـــا حَـــدَتْنِي حادِثـــاتْ كأَنهَّـــا بَـــوارِحُ يَحْـــدُوهُنَّ بَـــرْحٌ وأَبْـــرَاحُ[4]

(1) أي جواد كثير العطاء.
(2) هو الذي أصابته الشمس.
(3) القسطلي، ديوان، ص478-479.
(4) ربما كانت "وأتراح" أي أحزان؛ (انظر: القسطلي، ديوان، ص481).

ولسنا نعلم كنة هذه الحادثات إلا أننا لا نستبعد أن تكون العلاقات قد ساءت بينه وبين يحيى بن منذر إلى حد أنه خاف على حياته، فقرر الهجرة من سرقسطة، وعاد مرة أخرى إلى الاستجارة بأحد الموالي العامريين، وكان في هذه المرة مجاهدًا العامري، ولعل ابن دراج بلغته أنباء إكرام مجاهد للعلماء وحفاوته بهم[1].

ونستدل من الروايات أن ابن دراج تعرض في دانية لاختبار قدراته العلمية والفكرية والأدبية، قبل أن ينال شرف الالتحاق ببلاط مجاهد، وينضم إلى جملة مشاهير العلماء والأدباء بمجلسه، وقد جرت العادة بذلك في بلاطات حكام الأندلس في عصري الدولة الأموية وملوك الطوائف، ومنها: بلاط مجاهد بدانية، فعندما كان يحضر أديب أو لغوي إلى مجلس الأدباء والشعراء من بلاط آخر أو من خارج الأندلس، كان يتعرض لامتحان قاس من العلماء والأدباء المحيطين بالحاكم، قصد تعجيزه، وبيان أنه لا يصل إلى المستوى العلمي لأدباء المجلس[2].

ويذكر هنري بيريس سببًا آخر لعقد مثل هذه المناظرات، وهو أن ملوك الطوائف ما كانوا يتنافسون في الميدان السياسي فحسب، وإنما يحاول كل

---

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم343، ص260-261؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم287، ص200-201؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم602، ص309؛ الحموي، معجم الأدباء، ، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م، ج2، ص769؛ القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية، القاهرة، بيروت، 1982م، ج1، ص259؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص300؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص166؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص135، 171، 172، 190.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم342، ص258-259؛ رقم510، ص345-346؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم599، ص307-308؛ ج2، رقم 854، ص413-417؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص402-403؛ إبراهيم عبد المنعم سلامة أبو العلا، أضواء جديدة على المؤثرات الحضارية المشرقية في الأندلس منذ أواخر القرن الثاني حتى الثلث الأول من القرن الخامس الهجريين (180-431هـ/796-1039م)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2020م، ص88.

حاكم أن يتفوق على جيرانه ومنافسيه، باختيار كتابه من بين الأدباء الأوسع شهرة، والأكثر تفوقًا على زملائهم في البلاطات الأخرى، والأقدر على استخدام الكلمات القديمة المهجورة، وتنافسوا أيضًا في ميدان آخر وهو حيازتهم كُتّابًا مشهورين بقوة فصاحتهم، وبراعتهم التي كانت تمكّنهم من التبريز في مجالس الأدب[1].

ومن المرجح أن مجاهد قد اختبر قدرات ابن دراج بنفسه، فقد كان أديبًا عالماً، وكان يتمتع بملكة نقد قوية، وكان له في العروض والقافية باع يدل على قوته فيه؛ تأليفه لكتاب في علم العروض والقافية[2]، حتى إن الشعراء حينما كانوا يقفون أمامه للإنشاد كانت تملأ قلوبهم الرهبة، ولم تكن تفوته الهفوة البسيطة، أو الكلمة القلقة، أو عدم انسجام الأسلوب، أو سلامة اللفظ، كان يزن القصيدة بميزان دقيق، فيجزل العطاء للشاعر المبدع، ويقل أو يمنع عطاءه للناظم[3].

ومن المؤكد أن ابن دراج قد اجتاز هذه المناظرة العلمية بنجاح باهر، وأثبت لمجاهد وأدباء مجلسه غزارة علمه وأدبه، وقوة حفظه في اللغة، وقدراته الثقافية والفكرية الراقية، فلم يكن له مثيل في بلاغته وفصاحته،

(1) هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1988م، ص29.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم830، ص522-523؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم 1384، ج2، ص632؛ كليليا سارنللي، مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غربي البحر المتوس في القرن الخامس الهجري، الطبعة الأولى، القاهرة، 1961م، ص217-219.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص23؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص156؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص251؛ أبو العلا، أضواء جديدة، ص89؛

Huici Miranda (Ambrosio), Historia Musulmana de Valencia Y su Region, Valencia, 1969,Vol 1, PP.229-230.

لذلك ضمه مجاهد إلى مجلسه، وأكرمه وبالغ في بره[1]، فكانت دانية هي المحطة الأخيرة في حياة مفكرنا المبدع.

ودليل ذلك أن ابن دراج على الأرجح توفي هناك في دانية، حيث أقام بها نحو سنتين، فنحن نعلم أنه توفي في سنة 421هـ/1030م[2]، وما يؤكد لنا وفاته في دانية أن ابنه الوحيد الذي احتفظت كتب التراجم لنا ببعض أخباره وهو الفضل بن أحمد بن دراج كان من شعراء إقبال الدولة علي بن مجاهد الذي حكم دانية والجزائر الشرقية بعد وفاة أبيه ممدوح بن دراج في سنة 436هـ/1044-1045م[3].

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم186، ص162-163؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم77، ص76-77؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم343، ص201-204؛ الحموي، معجم الأدباء، ج4، ص347؛ ابن دحية، المطرب، ص145؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص135؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص60؛ ابن العماد، اشذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ، ج3، ص217.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص138.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم757، ص481؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، رقم1003، ص677؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1286، ص581؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص61.

الفصل الثاني

عبادة بن ماء السماء

رائد شعر الموشحات

الفصل الثاني

عبادة بن ماء السماء رائد شعر الموشحات

أولاً: نسبه وكنيته

أبو بكر عبادة بن عبد اللـه بن ماء السماء، من ذرية سعد بن عبادة، أديب مثقف اشتهر بالشعر خاصة الموشحات[1]، وله كتاب في أخبار شعراء الأندلس[2].

إن عبادة بن ماء السماء رغم ما يمكننا أن نوجه إليه من نقد لاذع نتيجة ارتباط أفكاره وقدراته الأدبية بالسلطة إلا أنه يعد من أبرز رائدي شعر

(1) الموشحات: تشبيهها بالوشاح أو القلادة، حين تنظم حباتها من اللؤلؤ والجوهر، على نسق معين، وترتيب معين، فالموشح هو كلام منظوم على وزن مخصوص، وهو فنٌّ من فنون الشعر العربي، ويختلف عن غيره من الفنون الأخرى بالتزامه قواعد معينة من حيث القافية، وبخروجه أحيانًا عن الأعاريض الخليلية، وبخلوه أحيانًا أخرى من الوزن الشعري، وباستعماله اللغة الدارجة، والعجمية في بعض أجزائه، وباتصاله الوثيق بالغناء؛ (انظر: ابن سناء الملك، دار الطراز في عمل الموشحات، الطبعة الثالثة، تحقيق جودت الركابي، دار الفكر، دمشق، 1980م، ص32وما بعدها؛ نجاة المريني، الشعر المغربي في عصر المنصور السعدي، الطبعة الأولى، المغرب الأقصى، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1999م، ص158؛ جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1966م، ص285وما بعدها؛ مصطفى عوض عبد الكريم، فن التوشيح، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ، ص18وما بعدها؛ محمد سيف الإسلام بوفلاقة، جماليات المتحول في النص الشعري الأندلسي، الموشحات نموذجًا، مجلة قوافل، العدد32، الجزائر، بدون تاريخ، ص71-75).

(2) ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م، ج2، ص183؛ الحميدي، جذوة المقتبس، رقم663، ص424-425؛ ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص344؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص23، 468-489؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، رقم973، ص655؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1126، ص517.

الموشحات في الأندلس، فقد أخذ بهذا الفن الشعري، وأدخل عليه ضروبًا من التحسينات والإضافات ما كفل له التطور والرقي[1].

وهكذا أخذ الموشح، ابتداء من القرن الرابع الهجري، يزدهر ويسمو في سماء الأندلس، وذلك بفضل عبقرية عبادة بن ماء السماء[2].

ثانيًا: عبادة بن ماء السماء في بلاط بني حمود

المتتبع لترجمة عبادة بن ماء السماء يجد أنه أحد المفكرين الذين اشتهروا بارتباطهم بالسلطة سواء في الدولة العامرية أو الدولة الحمودية، فقد مدح الكثير من ملوك وأمراء الدولتين، ولذلك فإننا نتهمه بأنه واحد من الذين سعوا إلى التقرب من السلطة ؛ تحقيقًا لغاية الكسب وتأمين حياة كريمة لنفسه، فلاعجب أن نجد أشعار المدائح في ذلك الوقت بلغت الغاية في التزلق والنفاق[3]، وهذا لا ينقص من حق مفكرنا في ريادته لفن الموشحات في الأندلس.

كان شاعرنا من بين الشعراء الذين اتصلوا بالحموديين فأخلص لهم، بل واقتصر عليهم في مدحهم، فقد أشار المؤرخون إلى أنه كان يتشيع، وافتخر هو بذلك في شعره، فقال في قصيدة يمدح بها يحيى المعتلي الحمودي:

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص468-469؛ سعد عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس (422-488ه/1030-1095م)، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1985-1986م، ص381.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص468-469؛ الركابي، في الأدب الأندلسي، ص291.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص478-479، 761-765؛ أبو العلا، الأندلس الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بآداب الإسكندرية، 1993م، ص319-320، 452؛ محمد سعيد، المثقفون والسلطة في عصر الدولة الأموية في الأندلس (138-422هـ/756-1031م)، الطبعة الأولى، دار ببلومانيا للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020م، ص165.

فهـــا أنـــا ذا يـــا ابـــنَ النُبُـــوَّةِ نافـــثٌ ... مـــن القـــول أرْيًـــا غـــير مـــا ينفـــثُ الـــصِّلُّ

وعنـــــدي صريـــــحٌ في ولائـــــكَ مُعْـــــرِقٌ ... تَـــــــشيُّعهُ مَحْـــــــضٌ وبَيْعَتُـــــــه بَتْـــــــلُ

ووالي أبي قـــيسٌ أبـــاك عـــلى العُـــلا ... فخـــيّم في قلـــبِ ابـــنِ هنـــدٍ لـــه غـــل[1]

وهو يشير في البيت الأخير إلى عراقته في التـشيع، إذ أن جـده قـيس بـن سـعد بـن عبـادة الخزرجي، كان من أكبر شيعة علي بن أبي طالـب[2]، فلـم يكـن تقـارب عبـادة بـن مـاء الـسماء مـع الحموديين، سببه الكسب وتحقيق منفعة دنيوية فحسب، وإنما كـان أيـضًا بـسبب التقـارب بيـنهما أيضًا أنهما كانوا ينتمون للمذهب الشيعي، فقد نقل ابن بسام بعض شعر عبادة، منها قصيدة أظهر فيها مدى فكره وفطرته الشيعية عندما مدح فيها علي بن حمود الحسني قائلاً:

أطاعتْـــــك القلـــــوبُ ومـــــن عَـــــصيٌّ ... وحـــــزْبُ اللـــــه حزبُـــــك يـــــا عـــــليٌّ

فكـــــلُّ مـــــنِ ادَّعـــــى معـــــك المعـــــالي ... كـــــذوبٌ مثـــــلَ مـــــا كـــــذب الـــــدُّعيُّ[3]

كما قال في قصيدة أخرى في رثاء علي بن حمود ومدح أخيه القاسم حين ولي الخلافة بعده، ويظهر في هذه القصيدة ما هو مألوف في مدح الشيعة من إفراط ومبالغة وإذابة لشخصية الـشاعر في (الإمام)، حتى إن نفوس أشياعه وأموالهم إنما هي من بعض فضله:

وحكمـــةٌ خـــضَعتْ هـــامُ الملـــوك لهـــا ... عـــــزًا فـــــلا حُـــــرَّ موجـــــودٌ بواديـــــه

مؤيّـــــدٌ جـــــاءَتِ الـــــدنيا إلى يـــــده ... عَفْـــــوًا ولبّتْـــــهُ مـــــن قُـــــرْبٍ أمانيـــــه

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص478؛ مكي، التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهايـة الدولـة الأمويـة، الطبعـة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م، ص56.

(2) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص346.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص478.

جلّـــت أياديـــه حتـــى إنّ أنفُـــسَنَا   ومـــا ملكنـــاه جُـــزْءٌ مـــن أياديـــه[1]

ظل عبادة بن ماء السماء في علاقة وثيقة بالسلطة الحمودية في قرطبة ومالقـة إلى أن تـوفي بعد سنة 421هـ/1030م[2]، وهذا على خلاف ما ذكره ابن بشكوال أنه توفي سنة 419هـ/1028م[3].

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص474؛ مكي، التشيع، ص57.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم663، ص424؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1126، ص517.

(3) ابن بشكوال، الصلة، ج2، رقم973، ص655.

الفصل الثالث

أبو عامر بن شهيد

الفتى المدلل

الفصل الثالث

أبو عامر بن شهيد الفتى المدلل

أولاً: نسبه ونشأته

ولد أحمد بن شهيد[1] في بيت أبيه بقرطبة سنة 382هـ/992م أيام المنصور بن أبي عامر، حيث كان أبوه من شيوخ الوزراء في الدولة العامرية[2]، فنشأ في أحضان النعمة، وتربى على مهاد الجاه، فقد كان البيت الذي ينتمي إليه بيت سراء وثراء ونفوذ وسلطان، وكانت صلة هذا البيت ببيت الحاجب -ولي الأمر الفعلي- قوية الوشائج، بحيث سمحت لأبي عامر بن شهيد أن يلهو بين يدي الحاجب المنصور، وأن يُحمل على أكتاف ابنه عبد الرحمن شنجول[3](16صفر399- 3رجب399هـ/ 19أكتوبر1008- 2مارس1009م)،

(1) أسرة بني شهيد أكبر الأسر الأندلسية وأشهرها في عصر الإمارة والخلافة، وقد تصرف أفرادها لخلفاء بني أمية في الخطط الكبرى من الحجابة والوزارة والقيادة والكتابة إلى انقراض الدولة الأموية في الأندلس، وكان من الناحية الثقافية كثير الاهتمام بالتاريخ والخبر واللغة والأشعار، مع سعة روايته للحديث والآثار، وقد ألف كتاب التاريخ الكبير في الأخبار ورتبه على السنين، فبدأ به من عام الجماعة سنة 40ه، وانتهى إلى أخبار زمانه؛ (انظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة-بيروت، 1989م، ص31؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، رقم767، ص522، 523؛ عباس، تاريخ الأدب (قرطبة)، ص271).

(2) لمزيد من التفاصيل انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، رقم604، ص404؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، رقم1060، ص487؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1985م، ج1، ص239-240، ابن سعيد، المغرب، ج1، ص203-204.

(3) هو عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر المعافري، أبو المطرف، يُلقب بشنجول، حاجب الخليفة هشام بن الحكم، وآخر العامريين، تلقَّب بالناصر، ثم بالمأمون، ثم ولي عهد المؤمنين؛ (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص38؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص90، 92؛ المقري، نفح الطيب، ج2، ص424؛ خير الدين الزركلي، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة 15، دار العلم، بيروت، 2002م، ج3، ص225).

وأن يجلس على سرير زوجة الحاجب، وينال الكثير من التدليل والعطف والهدايا[1].

وهكذا لعب أبو عامر بالمال منذ صغره، فنشأ وكفاه لا تقدران على القيض، وإنما تألفان البسط والعطاء والتبديد[2]، وكان للتدليل الكثير والترف البالغ والنعمة الموفورة أثر كبير في نشأة أبي عامر، وعلاقته بالسلطة، فهو لم يؤخذ بجد إلى التعليم، ولم يحمل في صرامة على الدرس، ومن هنا لم يقبل كثيرًا على ما كان يقبل عليه معاصروه من حديث وتفسير وفقه ونحو، وغير ذلك من العلوم الدينية واللغوية، وإنما أقبل على ما يلائم ترفه وانطلاقه، ويناسب طبعه ومواهبه، أقبل على الأدب، يتزود من قديمه وحديثه، ومن شعره ونثره، ويطيل النظر فيما خلف الجاهليون والإسلاميون والمشارقة والمغاربة من شعر ونثر، وحفظ من ذلك كله الكثير، واختار من المعاني والأفكار والصور والأساليب ما حرك ملكته، وأنطق لسانه، وأجرى قلمه منذ حداثته[3].

كان أبو عامر بن شهيد ظريف الطابع، لطيف العبارة، قادرًا على استخلاص الجمال من مكامنه، وعلى التعبير عنه بما يستحق الجمال من ألفاظ تليق به، فبدأ يقول الشعر في مرحلة باكرة، ويراسل به المتقدمين عليه سنًا وفنًا، وذلك لمنزلة والده ومكانة أسرته، وسرعان ما اشتهر أمره كأديب ومفكر، لا يقتصر على قول الشعر، وإنما يزاول كتابة النثر ويتعرض لبعض قضايا النقد أيضًا[4].

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص191-193.

(2) هيكل، الأدب الأندلسي، ص368.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص192-195؛ ضيف، بلاغة العرب، ص57-58.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص195-200؛ هيكل، الأدب الأندلسي، ص369.

ولم تكن الحاجة تدفع ابن شهيد إلى عمل يكسب منه قوته، فقل توليه للمناصب[1]، وكثر تفرغه للهو والمجون، وقرض الشعر وتدبيج النثر، ولم تستطع الفتنة الضاربة على الأندلس، وعلى قرطبة بشكل خاص، أن تعقل لسانه أو تحطم قلمه، وإن استطاعت أن توجهه وجهة تناسبها وتناسب استعداد ابن شهيد أيضًا، فكان أدبه مقسمًا بين خمريات ولهو ومجون، ومجاملة وترض للحاكمين، وهجاء وتجريح للمعادين، ثم بين مراجعة وتأمل وتخيل وقص، وتحليل ونقد[2].

صادفت ابن شهيد وعمره سبعة عشر عامًا كارثة محققه في حياته، عندما انتهى حكم العامريين في الأندلس على يد المدعي الأموي محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي[3] سنة 399هـ/1009م، إذ كانت أصوله الأولى تربط طالعه بطالع آل عامر[4].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص194-195.

(2) هيكل، الأدب الأندلسي، ص369.

(3) هو محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي الذي ثار على عبد الرحمن بن المنصور العامري الملقب بشنجول في أول إمارته، وفي أثناء غيابه عن قرطبة في أولى غزواته ضد إسبانيا المسيحية، وذلك في جمادي الثانية 399هـ/فبراير سنة 1009م، معلنًا نفسه خليفة للمسلمين، على أنه لم يلبث قليلًا حتى ثار عليه سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين، وقد انضم إليه البربر، والتقى المهدي والمستعين في معركة قنتيش التي انتصر فيها سليمان وقواته البربرية 13من ربيع الأول سنة 400هـ/5نوفمبر سنة 1009م، وهرب المهدي إلى طليطلة حيث جمع له قائده واضح قوات جديدة، ثم التقى بسليمان مرة أخرى في عقبة البقر 5شوال سنة 400هـ/22مايو سنة 1010م، وانتصرت قوات البربر المناصرة لسليمان المستعين مرة ثانية، إلا أن سليمان، وكان يظن الهزيمة قد لحقت به لاذ بالفرار وهكذا دخل المهدي قرطبة وأعلنت خلافته للمرة الثانية، غير أن دولته الثانية لم تطل إذ أن قائده واضحًا غدر به، فدبر مؤامرة لاغتياله، فقتل في 8من ذي الحجة سنة 400هـ/23يوليو سنة 1010م؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص49-65، 74-91، 95-100؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص109-116).

(4) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص62-65.

ولا ندري على وجه اليقين موقف المفكر أبي عامر من الخليفة الجديد المهدي، ولكننا لا نظن أنه كان مخلصًا له، لما كانت له صلات وثيقة ببني عامر، ويؤكد ظننا هذا رسائله إلى المؤتمن[1]، ابن شنجول، وقد أصبح بعد ذلك صاحب السلطة في بلنسية[2]، فهو يصل في نصحه إلى أن يغري ويحرض المؤتمن بأن يحاول استلاب السلطة من المهدي، في قصائد مدحه فيها قائلاً:

أَمَّـــا الرِّيـــاح بجـــوٍّ عاصِـــمْ فحلَـــبْنَ أَخْـــلافَ الغَمائِـــمْ[3]

ومن مدحه أيضًا:

---

(1) المؤتمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر الذي كان يلقب أيضًا بالمنصور ثم سماه خليفة قرطبة القاسم بن حمود، وقد ظل واليًا على بلنسية حتى سنة 452ه/1060م، وخلفه ابنه عبد الملك؛ (انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص193؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص163-164).

(2) بلنسية Valencia : مدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير فهي شرقي تدمير، وشرقي قرطبة، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار وتعرف بمدينة التراب؛ (انظر: الرشاطي وابن الخراط الإشبيلي، الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق إميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، المجلس العالي للأبحاث العلمية، مدريد، 1990م، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص490).

(3) ابن شهيد، ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 2013م، ص155؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص199؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص164-165.

نَـــشَأُوا بزاهِـــرةِ[1] المُلُـــوكِ ومائِهَـــا وكـــأَنَّهُمْ نَـــشَأُوا عـــلى غَـــسَّانِهَا[2]

ثانيًا: رسالة إلى المؤتمن صاحب بلنسية

وصلت العلاقة بين ابن شهيد والمؤتمن صاحب بلنسية درجة كبيرة من الصداقة والترابط والتلاحم، وما يدلل على ذلك أن ابن شهيد سأل المؤتمن في إحدى رسائله إليه، أن يتولى، بالنيابة عنه، إدارة ضيعة ورثها عن أبيه في إقليم تدمير[3]، حيث أرفق بالرسالة مدحًا للمؤتمن جاء فيها: "وأنا أسأل فضلك سؤال المدل في استنجاز ما وعد، فإنه يعتاضُ من شكري له وثنائي عليه، وصدعي في المحافل بفضله، أجل فائدة يصطفيها، وأكرم نفيسةٍ يقتنيها"، فما كان من المؤتمن إلا أن قام بجمع أموال ضيعته، وأجورها وأرسل إليه الكثير من الأموال والمحاصيل والدواب والعبيد[4]، مما دلل ذلك على حرص سلطة بلنسية على رعاية ممتلكات المفكرين المؤيدين لها من أمثال ابن شهيد.

(1) يقصد مدينة الزاهرة: بناها الحاجب المنصور ابن أبي عامر في شمال شرق قرطبة سنة 368هـ/978م، وهي تقابل مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر في شمال غرب قرطبة، ولكن اندثرت هذه المدينة بعد مدة قصيرة من بنائها وذلك عندما قام الخليفة المهدي محمد بن عبد الجبار بثورته ضد عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر المعروف بشنجول سنة 399هـ/1008م؛ (انظر: ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م، ص62).

(2) ابن شهيد، ديوان، ص167.

(3) تدمير Tudmir : مدينة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيان، وهي شرقي قرطبة، ولها معادن كثيرة، وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للراكب القاصد؛ (انظر: الرشاطي، الأندلس في اقتباس الأنوار، ص130؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص19؛ محمد الفاسي، تحقيق الأعلام الجغرافية الأندلسية، مجلة البينة، السنة الأولى، العدد الثالث، الرباط، 1961م، ص25).

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص197-198.

ورغم ارتباط ابن شهيد بالمؤتمن العامري، إلا أنه لم يترك قرطبة، ولم يقدم على ذلك أو بمعنى أدق لم يفكر في يوم من الأيام أن يترك قرطبة، وظهر ذلك واضحًا في دعوة المؤتمن له بالقدوم إلى بلنسية ليكون في جواره، ولكن أبا عامر، رغم أنه ظل يداوم مراسلته، كان من الفطنة فلم يقبل تنفيذ مقترحه، فقد كان قلبه مرتبط بقرطبة، وواصفًا في عبارات منمقة إلى حد كبير تعلقه بالمدينة، وذلك في قصيدة جاء فيها:

فقــــد عنِيـــــتْ بهَواهــــا الحُلُـــــو مُ فهْــــــــي براحتِهَــــــا عانِيــــــــهْ[1]

دللت تلك الكلمات على مدى تعلق ابن شهيد بموطنه ومحل ميلاده قرطبة، فلم يكن مدعيًا لذلك الحب، كما قال الأستاذ يعقوب زكي في مقدمة ديوان ابن شهيد؛ أنه أي أبا عامر بن شهيد "كان مدعيًا أن قلبه مرتبط بقرطبة"، وقد استنتج أستاذنا الفاضل أن ابن شهيد كان سبب ارتباطه بقرطبة أنها مركز السلطان حتى ينتفع من أي تغيير في الحكم والحكومة[2].

ولكنني أختلف مع أستاذنا في هذا الاستنتاج بعض الشيء، وهو أن ابن شهيد بالفعل كان قلبه وفكره ومذاجه متعلق بقرطبة بحكم النشأة والتربية، وهو ما يصعب على أي إنسان ترك موطنه الأصلي والتنقل إلى مكان آخر، وهذا لا يعني أنه كان واضعًا في اعتباره حال كثير من المفكرين والشعراء كما ذكر أستاذنا يعقوب زكي أن يكون قريب من مركز السلطان للاستفادة منه قدر المستطاع.

ثالثًا: مركز ابن شهيد في بلاط سليمان المستعين

وجاءت الفرصة لأبي عامر بن شهيد عندما اعتلى رأس السلطة سليمان بن الحكم الذي لقب نفسه المستعين كما أشرنا في سنة

(1) ابن شهيد، ديوان، ص168؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص208.

(2) ابن شهيد، ديوان، ص20من مقدمة المحقق.

400هـ/1009م[1]، فقد وجد ابن شهيد نفسه ميلًا في تأييده، فقد كان هو نفسه معارضًا للمهدي، فلما كاتب سليمان المستعين وجد أنه يستطيع أن يسمو إلى مستواه الرفيع، حيث كان يتمتع بثقافة وملكات فكرية مرهفة، شجعت ابن شهيد أن يخاطبه بقصائد منها قصيدة جاء فيها:

فنِلْتَ الَّذِي قد نِلْتَ إذ لَيْسَ للعُلا سواكَ كأَنَّ الدَّهْرَ للنَّاسِ منْتَق[2]

ظلت العلاقة بين ابن شهيد، والخليفة المستعين في فترة ولايته الأولى طيبة يسودها الاستقرار والتقدير بعض الشيء، إلا أن تلك العلاقة أصيبت بالفتور من جانب الخليفة المستعين في فترة ولايته الثانية سنة 403-407هـ/1013-1016م، فشهدت العلاقة تدهور باستمرار، وكان سبب ذلك سلوك ابن شهيد العجيب الذي زاد من عدد أعدائه، فلم يكن ابن شهيد يعاني كراهية أكثر الحكام فحسب، وإنما كان يعاني من كراهية كثير من رجال العلم والأدب، وخاصة من عرفوا منهم بالمحافظة، ولعل من أهم أسباب كراهية هؤلاء لابن شهيد، تحرره البالغ، وانطلاقه الزائد، ومجونه المعربد، ولسانه اللاذع، وجرأته الجارحة[3].

نتيجة لتلك العلاقة السيئة بين ابن شهيد وعدد من مفكري عصره، أن قام هؤلاء المفكرين بتحريض السلطة عليه، ولعل أكثر هؤلاء المحرضين عليه مفكر يدعى أبو محمد كان أهم هؤلاء في هذا الحين، وقد كان مقربًا للسلطة، فهمس في أذن الخليفة سليمان المستعين بأن شعر ابن شهيد موضع شبهة، ويقول الشاعر نفسه: "أما أبو محمد فانتضى عليَّ لسانه عند المستعين"[4]، ولا نعلم من الأدباء من يكنى بهذا الاسم، وله صلة به، غير أبي

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص84.

(2) ابن شهيد، ديوان، ص132-133.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص192-193؛ هيكل، الأدب الأندلسي، ص371.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص273.

محمد بن حزم[1]، وكان صديقه، وليس في أخبارهما ما يدل على تخاصمهما في بعض الأوقات، وإنما كان بينهما مكاتبات ومداعبات[2].

ومن معاصري ابن شهيد، القاضي أبو محمد عبد الله المعروف بابن الفرضي[3]، ويكنى أبا الوليد، تولى القضاء في دولة المهدي، واشتهر بالزهد والورع والصلاح والإخلاص، واستشهد على أيدي البربر حينما اقتحموا قرطبة بعد مصادمات عنيفة مع أهلها زمن الفتنة القرطبية سنة

---

(1) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، المكنى بأبي محمد، والمشهور بابن حزم، فارسي الأصل قرشي الولاء، أندلسي ثم قرطبي الدار، وجده خلف أول من دخل الأندلس من آبائه في صحبة أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل، كما اشتهر ابن حزم كثيرًا بالمذهب الظاهري، وقد ولد ابن حزم بقرطبة سنة 384ه/994م، من أسرة تتمتع بثراء وجاه عريض ومكانة عالية في المجتمع، كما نشأ نشأة مرفهة وناعمة، وكان أبوه أحمد بن سعيد بن حزم عالمًا جليلًا أحد وزراء الدولة العامرية؛ (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، رقم709، ص749-752؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، رقم898، ص605-606؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1208، ص543-545؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص329؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص354-357).

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص116.

(3) عرف أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي القرطبي الحافظ، بابن الفرضي، واشتهر بأنه كان فقهيًا حافظًا متقنًا عارفًا لعلم الحديث ورجاله، كما كان بارعًا في الأدب، وصفه ابن بسام بحسن النظم، وكان جماعًا للكتب حتى صار له منها خزانة كبيرة؛ وسمع من شيوخ الأندلس، ثم رحل من الأندلس في طلب العلم، وفي ذلك يذكر ابن خاقان في مطمح الأنفس بأنه "كان حافظًا عالمًا كلفًا بالرواية، رحل في طلبها، وتبحر في المعارف بسببها"، نال ابن الفرضي قدرًا كبيرًا وعظيمًا من العلوم الفقهية بعدما تغرب عن بلده، ثم عاد إلى بلاده بعدما تشوق في العودة إليها، وكان لابن الفرضي حظ من الشعر، وأورد كل من الحميدي وابن خاقان وابن بسام وابن بشكوال والضبي وابن سعيد أبياتًا من شعره، وأدخل ابن الفرضي إلى الأندلس مؤلفات شيوخه الذين لقيهم في رحلته، وحدث عنه بعض تلاميذه، وتولى عدد من المناصب في دولته فقلده الخليفة محمد المهدي في دولته الأولى (400هـ/1009م) قضاء بلنسية وأستجة؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، رقم538، ص366-368؛ ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص285؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم891، ص433-435).

403هـ/1013م[1]، ولم تكن تُعرف له علاقة صداقة أو خصومة بأبي عامر بن شهيد، فبالأولى أن يكون المقصود أبا محمد بن حزم لسلاطة لسانه، خاصة وأنه اشتهر بتأييده للأمويين[2]، وقد يحدث أمثال هذه الهنات بين الأدباء والمفكرين، وإن كانوا أصدقاء.

وفي ضوء ذلك فأننا نميل إلى أن نقول أن وشاية أبي محمد بن حزم بصديقه أبي عامر بن شهيد، لم تكن في ولاية المستعين الثانية كما أشرنا، وإنما كانت في ولاية المستعين الأولى، وذلك قبل نفي ابن حزم في عام 403هـ/1013م[3]، وهو ما دفع أبو عامر بن شهيد أن يكثر من مدح المستعين في ولايته الثانية لإصلاح تلك العلاقة التي أصيبت بالفتور، أو حتى على الأقل يبرئ نفسه مما اتهم به، أنه يستغل أفكاره وأشعاره ضد السلطة.

ويؤكد ما ذكرناه أن أبا عامر بن شهيد لم تشر المصادر إلى تعرضه لأي أذى في فترة حكم سليمان المستعين خاصة خلافته الثانية 403-407هـ/1013م-1016م، إلا بعض الفتور في العلاقة، التي كانت سببها تلك الوشاية التي نالت من علاقة ابن شهيد بالسلطة.

رابعًا: سعاية المفكرين بابن شهيد في خلافة بني حمود

وفي فترة سيطرة الخليفة العلوي الجديد علي بن حمود على الخلافة في قرطبة سنة 407هـ/1016م أصابت الوشايات والسعايات هدفها، فاستطاع أعداء شاعرنا، الإيقاع به عندما صادف مسعاهم النجاح، فقد ذكر ابن شهيد ثلاثة أسماء في الرسالة لثلاثة أشخاص بذلوا كل جهد حتى النهاية في سبيل تحقيره، وهم أبو محمد، وأبو القاسم، وأبوبكر، ولما كان أولهم كما بيَّنا

---

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم528، ص366-368؛ ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص285؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم891، ص433-435.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص171؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص115.

(3) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص93؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص397؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص121.

مسئولًا عن غضب الخليفة سليمان المستعين عليه، فمن المحتمل أن يكونوا مسئولين عن سوء المعاملة التي يذكر ابن خاقان أن شاعرنا لقيها أيام العلويين[1].

وأما أبو بكر فشأنه شأن أبي محمد في الالتباس والغموض، فلم نتمكن من التحقق من شخصية أبي بكر على وجه التحديد، فقد يكون هو أبو بكر المعروف بإشكمياط[2] أو إشكنهادة، الذي تقاذف مع ابن شهيد مرة بأقذع الألفاظ، وذلك قبل رحيله عن قرطبة، غير أننا نميل إلى شخص آخر أكثر احتمالًا هو من سعى بأبي عامر بن شهيد، وذلك بحكم تقربه من السلطة، وهو أبو بكر بن ماء السماء[3]، وهو شاعر ممتاز اشتهر في عهود آل عامر، وآل حمود بآرائه الشيعية، وكان من مؤيدي علي بن حمود، متشيع لدولة بني حمود وحريص على مدح حكامها.

على أي حال فإننا يمكننا أن نقول أن أبا عامر بن شهيد جلب العداوة لنفسه من خلال تنقصه للأدباء والشعراء، فكان أشد ما يغيظ ابن شهيد إلصاقُ العيب بإنشائه وشعره، وهو ما فعله معه إشكمياط، ولذلك صب سوط

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص198.

(2) هو أبو بكر محمد بن القاسم المعروف بإشكمياط، من أهل وادي الحجارة، رحل إلى المشرق بسبب فتنة قرطبة وتعدد حكامها، حيث قاسى ألم الفراق، فتجول في بلاد العراق واجتاز بحلب ودمشق ثم رجع إلى الأندلس وحل بحضرة دانية لدى ملكها مجاهد العامري الذي أكرمه، ووصل معه إلى مكانة عالية؛ (انظر: ابن سعيد، المغرب، ج2، ص31؛ المقري، نفح الطيب، ج2، ص95).

(3) هو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة بن ماء السماء، من ذرية سعيد بن عبادة، أديب مثقف اشتهر بالشعر، وله كتاب في أخبار الشعراء؛ (انظر: ابن حزم، رسائل، ج2، ص183؛ الحميدي، جذوة المقتبس، رقم663، ص424-425؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص23، 468-489؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، رقم973، ص655؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص173؛ أبو العلا، الأندلس، ص319-320، 452).

عذاب علي عليه، لأنه زعم أن ابن شهيد ينتحل ما لغيره[1]، وكان ذلك الفعل على الأرجح ردًا على ابن شهيد لتهجمه على الأدباء واستعلائه عليهم بأشعاره وعلمه.

وبالنسبة للشخصية الثالثة التي حددها ابن شهيد من أعدائه، فكان أبو القاسم الإفليلي[2] أحد معلمي اللغة العربية في قرطبة، والذي أصبح فيما بعد صديقًا من أصدقائه، وكان من قبل يتعقبه ابن شهيد بشدة وتهكم به كلما سنحت الفرصة، وبسببه جرد قلمه لكتابة رسالة التوابع والزوابع، وهاجم من أجله طبقة المعلمين جملة بعنف وشدة، فما قاله فيهم: "وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو، وحفظ كلمات من اللغة، يحنون على أكباد غليظة، وقلوب كقلوب البعران، ويرجعون إلى فِطَنٍ حمئة، وأذهان صدئة"[3].

استفذت أفعال ابن شهيد تجاه الكثير من أدباء ومفكرين عصره حفيظتهم ضده، فراحوا يقلبون عليه السلطة، فنجحوا في تحريض علي بن حمود، فسجن ابن شهيد، ولم تكن آراء ابن شهيد في البربر مما تجعله مقربًا محببًا إلى علي بن حمود، ولم يكن علي بن حمود على أي حال بقادر على فهم شعر ابن شهيد، ولا شك أن هذه العوامل جميعًا ساعدت على الوصول

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص230؛ عباس، الأدب الأندلسي (قرطبة)، ص282.

(2) أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري القرشي، ينتهي نسبه إلى سعد بن أبي وقاص، يعرف بابن الإفليلي نسبة إلى إفليلة أو الإفليل، وهي قرية بالشام، ما بين دجلة والموصل، كان أصل قومه منها، عالم أندلسي من أئمة اللغة والنحو والأدب، كان حافظًا للأشعار ذاكرًا للأخبار وأيام الناس، ولد في قرطبة ونشأ بها، توفي سنة 441هـ/1049م؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم208، ص155؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص51؛ الحميري، الروض المعطار، ص50).

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص281-282؛ ابن شهيد، رسالة التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البُستاني، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، 1996م، ص124؛ عباس، تاريخ الأدب (قرطبة)، ص282-283.

به إلى السجن، ولكن أعداءه اتخذوا مما اشتهر به من فجور وفسق أساسًا لهجماتهم(1).

وعلى الرغم من إشارات الباحثين عن تعرض ابن شهيد للسجن في عهد علي بن حمود وأن مدة محبسه طالت، إلا أننا نستطيع أن نقول أنه لم يتعرض للسجن في عهد علي بن حمود، بل إنه سجن في عهد المعتلي يحيى بن حمود(2)، فربما أن ابن شهيد تعرض لضيق من العيش وضياع المال في عهد علي بن حمود، كما ضاع مكانه في بلاط السلطة في عهده، أما السعايات فقد جاءت نتيجتها في عهد المعتلي يحيى بن حمود الذي أمر بسجن ابن شهيد، فظل يستعطفه ويستشفعه بأجمل وأقوى المعاني مستعينًا بأشعار غيره من المفكرين قائلًا له:

قريبٌ بمحتلِّ الهوانِ بعيدُ ... يجودُ بشكوى حُزنِهِ فيُجِيدُ

بَغى ضُرَّه عند الإمام فناله ... عدوٌّ لأبناءِ الكرام حسودُ

وما ضَرَّه إلا مزاحٌ ورِقَّةٌ ... ثَنَتْهُ سفيهَ الذكر وهو رشيدٌ(3)

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص198.

(2) ينسب الحموديون أنفسهم إلى إدريس مؤسس مدينة فاس، أي أنهم ينتمون إلى سلالة شريفة وهي العائلة العلوية وبالتالي فأنهم أحفاد النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك؛ وعلى الرغم من أصولهم العربية فإن الحموديين قد أصبحوا برابرة كليًا، ومن أبرز شخصيات هذه الأسرة يحيى بن علي بن حمود الذي تمت بيعته بالخلافة في قرطبة بعد هرب عمه القاسم 412هـ/ 1012م، واتخذ يحيى ابن علي بن حمود لقب الخلافة المعتلي بالله، وقد تقرب يحيى إلى الأندلسيين، وقرب العلماء والأدباء خاصة، ثم قرر ترك قرطبة، وانتقل إلى مالقة حيث يشعر بأمان كبير، فكان حكمه في قرطبة عامًا واحدًا وستة شهور إلا يومًا واحدًا؛ (انظر: المراكشي، المعجب، ص54-57؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص131-133؛ سالم، تاريخ المسلمين ص358-363).

(3) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، تحقيق د.صالح الأشتر، الطبعة الأولى، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1961م، ص203.

ومن هنا نجحت مساعي ابن شهيد وأفكاره في إطلاق سراحه وفك كربه، فما كان منه إلا أن مدح المعتلي يحيى بن حمود، فقال في قصيدة يشكره ويهنئه بانتصاراته قائلًا:

فَريقُ العِدا من حَدِّ عَزْمِكَ يَفْرَقُ وبالدهرِ مِمّا خافَ بَطشَكَ أَوْلَقُ[1]

تَيَمَمَتهُ والسعدُ حولَك جَحْفَلٌ وقارعتَه والنصرُ دُونَك خَنْدَقُ[2]

ورغم أنه لا يوجد لدينا تفاصيل كاملة عن حياة ابن شهيد وعلاقته بالسلطة، إلا أنه يمكننا أن نستنتج أنه جانب نفسه الكثير من المشاكل والمتاعب، بمدح السلطة حتى انتهى حكم الحموديون.

خامسًا: ابن شهيد وزيرًا في بلاط الخليفة الأموي المستظهر

تولى الخلافة في قرطبة الخليفة الأموي المستظهر[3] (رمضان414-ذو القعدة 414هـ /نوفمبر1023-يناير1024م)، فلما افتتح خلافته عمل على استعادة مجد الدولة الأموية بالأندلس، فقام بإجراء بعض الإصلاحات الجذرية في الجهاز الإداري للدولة، واستفاد في هذا الصدد من خبرات قدامى الوزراء من موالي بني أمية، كذلك أعطى الفرصة للعناصر الشابة من المثقفين ذوي القدرات والكفايات، فندب للوزارة: المفكر أحمد بن برد[4]

---

(1) أَوْلَقُ: الجنون أو مسٌ منه.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص319؛ ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص204-205.

(3) هو عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن الناصر، لقب بالمستظهر ، وكنيته أبو المطرف، اشتهر بالثقافة، فكان غاية الأدب والبلاغة وألفهم ورقة النفس؛ (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ص45؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص48؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص12-17؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص54-55؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص139-140؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص134).

(4) هو أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد، مولى أحمد بن عبد الملك بن شهيد، أدركه الحميدي بالمرية بعد سنة 440هـ/1050م، وذكر أن له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما؛ (انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص174؛ الحميدي، جذوة المقتبس، رقم199، ص173؛ ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص207-209؛ ابن بشكوال، الصلة، رقم74، ص74).

الكاتب، والفقيه علي بن حزم، والمفكر أبو عامر بن شهيد، والمفكر حسان بن مالك بـن أبي عبـدة[1]، وغيرهم[2]، غير أنه مما لا شك فيه أن استبداد الخليفة المستظهر بتدبير شـئون الحكـم دون الـوزراء المختصين خلال فترة حكمه، كان أحد انهيار دولته، خاصة بعد انقـسام بعـض وزرائـه عليـه، لـذلك، ومنهم الوزير حسان بن مالك، الذي لم يرض عن استبداد دونه في كثـير مـن الأمـور، فاسـتبد خلفـاء الفتنة القرطبية بالأمور دون مشورة الوزراء المثقفين والمفكرين من أصحاب الرأي والسياسة والفكر، فقد اعترض الوزير أبو عبدة حسان بن مالك بـن أبي عبـدة علـى سـوء سياسـة الخليفـة المـستظهر، فكتب إلى الخليفة أبياتًا من الشعر تعبر عـن حقيقـة التعامـل مـع هـؤلاء المفكـرين داخـل أروقـة الوزارة، يقول فيها:

إذا غِبـــتُ لم أُحـــضَر وإن جِئـــتُ لم أُسَـــل فَـــسيّانِ منـــي مَـــشهَدُ ومَغِيـــبُ

فأصـــبحَتُ تَيميًـــا ومـــا كُنـــتُ قَبلَهـــا لِتَـــيمٍ ولكـــنّ الـــشبيةَ نـــسيبُ[3]

كان سبب اعتراض الوزير المثقف حسان بن مالك عـلى سياسـة الخليفـة المـستظهر بتلـك الأبيـات هـو اقتصار الخليفة على مشاورة مجموعة من الوزراء ممن لم يكن لهم سابق تجربة في مجال السياسة، بالإضافة لقلة

(1) كان حسان بن مالك بن أبي عبدة من المثقفين الذين اشتهـروا في اللغة والآداب، وكانـت أسرتـة، أسرة أبي عبـدة من أكبر أسر مـوالي بنـي أميـة في الأنـدلس، تـوفي سـنة 420هــ/1029م؛ (انظـر: الحميـدي، جـذوة المقتـبس، رقم381، ص280-282؛ ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص211-215؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقـم353، ص250؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم664، ص33-334).

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص50-53.

(3) الحميدي، جـذوة المقتـبس، رقـم381، ص281؛ ابـن بـسام، الـذخيرة، ق1، م1، ص34؛ الـضبي، بغيـة الملـتمس، رقم664، ص334.

ثقافتهم المعرفية، فأخذ يستأنس بآرائهم البسيطة دون آراء النخبة مـن وزرائـه المثقفـين، فقـد ضـم مجلس وزراء الخليفة المـستظهر مجموعـة مـن الـوزراء المثقفـين ممـن لهـم بـاع في مجـال الـوزارة والمعرفة والأدب، ومجموعة أخرى لم يكن لهـم سـابق معرفـة بالـسياسة والأدب، وعـلى الـرغم مـن استعانته في الوزارة بأفضل مفكري العصر ممن يشار إليهم بالمعرفة من أمثال: الوزير أبو عـامر بـن شهيد، والوزير علي بن حزم، والوزير حسان بن مالك، وقد كانوا من قبل وزراء الدولة العامريـة، إلا أنه لم يكن يأخذ بـرأي وزرائـه المفكـرين ولا يـشاورهم في أمـر، رغـم خـبرتهم الـسابقة في الـسياسة والمعرفة، واقتصر في الرأي على الوزراء قليلي الخبرة والمعرفة[1].

اعـترض الـوزير حـسان بـن مالـك عـلى سياسـة الخليفـة المـستظهر في إدارة أمـور الدولـة، واستبداده بالرأي دون مشاورة النخبة من وزرائه بأبيات مـن الـشعر، فأخـذ يتباطـأ ويتكاسـل عـن حضور مجلس الوزراء[2]، حيث رأى أن وجوده في مجلـس الـوزراء دون جـدوى أو فائـدة، فمجلـس وزراء الخليفة المستظهر ظاهريًا ضم مجموعة من النخبة المثقفة في الأندلس في ذلـك الوقـت ممـن لهم باع في مجال السياسة والأدب، ولكن بشكل عملي لم يكن ذلك المجلس لـه دور في إدارة الدولـة أو حتى تقديم النصح والمشورة للخليفة، حيث استبد الخليفة بالرأي والسياسة دون الرجوع للنخبة المثقفة من وزرائه واعتمد في سياسته على وزراء قليلي الثقافة والمعرفة، واكتفـى بـآرائهم الـسطحية والبسيطة في كثير من أمور الدولة، وهو ما أغضب الوزير المثقف حـسان بـن مالـك ورفـض حـضور مجلس وزراء الخليفة المستظهر، اعتراضًا منه على أسلوب الخليفة في إدارة الدولة.

عكس ذلك الموقـف مـدى الـدور الـذي لعبـه ابـن شـهيد في بـلاط الخليفـة المـستظهر، فلـم يكـن لـه ولا لأي مفكـر دور كبـير أو مـؤثر في تغيـير مجـرى

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص214؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص46-50.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص214.

الأحداث في قرطبة في ذلك الوقت، ولا حتى ساهموا في تقوية الجهاز الإداري للدولة، إلا أننا نستطيع أن نستنتج أن الشيء الوحيد الذي ناله ابن شهيد من ذلك المنصب، هو ازدياد هجوم المفكرين عليه، فلم تتوقف ملاحقتهم له كونه وزير، فنجده في رسائله يهاجم اثنين ممن كانوا يكيدون له، أحدهما يسمى ابن فتح والآخر أبا عبد اللـه الفرضي، أحد المشتغلين بالكيمياء، ويقول إن الثاني كاد لـه أيـام المستظهر، وصنع على لسانه شعرًا في هجاء القائم بالأمر يومئذ، منه:

يـــا كـــسرَةً دَهَمَتْنـــا لـــيس تَنْجَـــبِرُ وَسُـــبّةً لَحقَتْنـــا مـــا لهـــا عُـــذُرُ[(1)]

ويقدم ابن بسام معلومات قيمة عن ما تعرض له ابن شهيد علـى يـد المفكـر الكيميـائي أبي عبد اللـه الفرضي، فيقول على لسان ابن شهيد: "اشتدت وطأة هذا الخبيث أيام المستظهر، فلم يُبق غاية من اهتضامي إلا امتد لها"[(2)]، مـما يوضـح لنـا ذلـك أن أبـا عبـد اللـــه الفـرضي دائمًـا مـا كـان يسعى بابن شهيد ويتهمـه عنـد الـسلطة ، مـما أدى إلى وقـوع ابـن شـهيد في الكثـير مـن المـشاكل والمصاعب مع الخلفاء والأمراء في قرطبة، ويكثر من مدح الكثـير مـنهم، إمـا لطلـب العفـو مـنهم أو تقربًا منهم[(3)].

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص224؛ عباس، تاريخ الأدب (قرطبة)، ص281.
(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص223.
(3) ابن شهيد، ديوان، ص138؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص221-223.

كما زعم ابن شهيد أن ابن فتح دائم السعي به، وأنه أفسد عليه نية ابن عباس(1) وزير زهير الفتى الصقلبي صاحب المرية(2)، وربما كان شيء من ذلك، ولكن التنافر بين ابن شهيد وابن عباس كان يتم دون حاجة إلى تدخل الآخرين ودسائسهم، فقد كان كل منهما معجبًا بنفسه وبقدرته الأدبية(3).

سادسًا: فرار ابن شهيد من قرطبة

وفي خلافة المستكفي(4) عانى ابن شهيد من سياسته وسوء تعامله مع كثير من مفكري العصر، خاصة ممن لهم علاقة بالخليفة المستظهر، فقد كان الخليفة المستكفي في الواقع على عكس الخليفة المستظهر الذي سبقه في الحكم، كسول وفظ وخسيس أحاط به أراذل القرطبيين وكان يطارد بشراسةِ الوجهاء الذين خدموا المستظهر، وهؤلاء أجبروا على ترك قرطبة

(1) كان أحمد بن عباس كاتبًا حسن الكتابة، مليح الخط، جيد الخطابة، غزير الأدب قوي المعرفة، شارعًا في الفقه، مشاركًا في العلوم، مقتبسًا للشعر من غير طبع فيه، حاضر الجواب، ذكي الخاطر، جامعًا للأدوات الملوكية، جميل الوجه، حسن الخلق، كلف الأدب، مؤثرًا له على سائر لذاته، جماعًا للدفاتر، مقتنيًا للجيد منها، مغاليًا فيها نفاعًا من خصبه بشيء منها لا يستخرج منه شيء للؤمه إلا في سبيلها أثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها، ويقول صاحب التبيان عنه أنه كان من أشد الناس حماقة واستخفافًا مثيرًا للبشر. (الأمير عبد الله، مذكرات الأمير عبد الله المسماة التبيان، تحقيق د. أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط، 1995م، ص70؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص413؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص172).

(2) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الأول، ص277؛ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق د.محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م، ج1، ص259-260.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص306.

(4) هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بويع بالخلافة بعد مقتل الخليفة المستظهر 414-416هـ/1024-1025م؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص53؛ المراكشي، المعجب، ص57-58).

ليحافظوا على حياتهم، ومجموعة من المطاردين طلبوا حق اللجوء في مالقة واضعين أنفسهم تحت حماية يحيى بن حمود[1].

ومن المحتمل أن ابن شهيد لجأ إلى يحيى بن حمود في مالقة، وطلب منه أن يحارب المستكفي ويخلص منه قرطبة، وأنشده أبيات من الشعر بين فيها أنه محسود بقرطبة، وأن الخليفة الأموي هضم حقه (المستكفي)، وأن هاشمًا أي العلويّ يحيى سيردُّ له حقوقه، فقال في مقدمتها:

أرى أعينًا ترنُو إليّ كأنّما تُساورُ منها جانبيَّ آراقمُ

أدورُ فلا أعتامُ غيرَ محاربٍ وأسعى فلا ألقى امرءًا لي يُسالم

ويجلبُ لي فهمي ضروبًا من الأذى وأشقى امرئٍ في قريةِ الجهل عالم

وأوجَعُ مظلومٍ لقلبٍ وذي حجىّ فتىّ عربيّ تزدريه أعاجم

غَنيتم على ما تزعمُون عن الورى لقد سفهتْ تلك الحلومُ الزَّوَاعم[2]

وبالفعل استطاع العلوي يحيى بن حمود من دخول قرطبة والسيطرة عليها 416هـ/1025م دون قتال، بعد ما غادرها المستكفي دون أن يترك لها حاكم، فعين يحيى بن حمود حاكمًا على قرطبة، وهو وزيره وكاتبه أبو جعفر بن موسى الذي كان محميًا بقوة ضئيلة لم تكن تتجاوز عدة مئات من الجنود البربر، ومنذ تلك اللحظة أصبحت قرطبة إحدى الولايات التابعة للخلافة الحمودية في مالقة[3]، ومن الواضح أن ابن شهيد في تلك الفترة

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص135-136.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص321.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص143؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص136-137.

ارتبط مع السلطة برباط المودة والتودد والاحترام، فمدحها وتقرب منها بشكل كبير، كما أنه عـاد إلى موطنه قرطبة مرة أخرى.

سابعًا: ابن شهيد في بلاط هشام المعتد بالـلـه

وما لبث أن خلع أهالي قرطبة الحمـوديين، في محاولـة لإعـادة الأمـور إلى مـا كانـت عليـه، وإعادة الاستقرار مرة أخرى إلى قرطبة، فأعادوا الخلافة مـرة أخـرى إلى خليفـة أمـوي جديـد، وهـو هشام المعتد بالـلـه[1]، فبايعوه سنة 418هـ/1027م، ورغم المبايعة بالخلافة إلا أنه لم يـدخل قرطبـة إلا سنة 420هـ/1029م[2].

وفي دولة هشام المعتد أصبح ابن شهيد أكثر نجومية وأكثر المفكرين علاقـة بـه، فقد أصبح جليسًا لهشام المعتد[3]، ورغم عدم وجود تفاصيل لتلك العلاقة إلا أنه يتـضح أن ابن شهيد نجح في توثيق علاقته برجال السلطة في ذلك الوقت، واستغل تلك العلاقة في مهاجمة الكثير من المفكرين، فحرض الخليفـة هـشام المعتـد علـيهم، وسـعى بهـم ، جزاءً لما ارتكبوه في حقه، فشجع الخليفة على قتـل المفكـرين مـن أصـدقاء الـوزير ابـن

(1) لما قطع أهـل قرطبة دعوة بني حمود سنة 417هــ/1026م، أجمع رأيهم على رد الخلافة إلى الأمـويين، فـاتفقوا على تقديم هـشام بن محمد بن عبد الـلـه بن عبد الرحمن النـاصر فبـايعوه سـنة 418هــ/ 1027م، وتلقـب بالمعتد بالـلـه، فدخل قرطبة 420هــ/1029م إلا أنه تم عزله، وأسـند أمـر قرطبـة إلى أبي الحـزم ابـن جهـور، وانقطعت الدولة الأموية؛ (انظـر: الحميـدي، جـذوة المقتـبس، ص26-27؛ ابـن عـذاري، البيـان المغـرب، ج3، ص145-148).

(2) ابن الأثير، الكامل الكامـل في التـاريخ، راجعـه وصـححه د. محمـد يوسـف الـدقاق، الطبعـة الأولى، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، 1987م، ج7، ص290؛ المراكـشي، المعجـب، ص88-89؛ ابـن الخطيـب، أعـمال الأعـلام، ق2، ص138-139.

(3) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص85-123.

الحناط[1]، بل ونظم قصيدة ذميمة المعاني استهدف بها إلى سفك دماء المفكرين، وشجع الخليفة على الفتك بهم[2].

ورغم تلك العلاقة المضطربة بين ابن شهيد وعدد من مفكري عصره إلا أن ذلك لا يمنع أنه كان تربطه علاقة مودة وصداقة بعدد آخر منهم، وقد ظهر ذلك عندما نعاه عدد كبير منهم، فقد أشارت المصادر أنه أصيب بالمرض في آخر عمره، نتيجة انغماسه في حياة الراحة والترف، وإطلاقه العنان لشهوات النفس، وإدمانه مجالس الشراب، وإجهاده الفكر والأعصاب في النظم والتأليف، ولكنه لم ينقطع عن الحركة أصلًا، فكان يمشي إلى حاجته معتمدًا على عصا أو على إنسان، إلى قبل وفاته بعشرين يومًا، فإنه صار يُنقل في المحفة، ولا يحتمل أن يُحرك لعظيم الأوجاع، مع شدة ضغط الأنفاس، ومع ذلك لم يعطل لسانه، ولا انقطع عن قول الشعر، فكان يراسل به أصدقاءه من الوزراء والأدباء، إلى أن توفي سنة 426هـ/1035م، وكان في الرابعة والأربعين من عمره[3].

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط القرطبي، وكان أبوه يبيع الحنطة فعرف بذلك، وكان ضعيف البصر وهو صغير، وأصابه العمى وهو كبير بسبب كثرة القراءة ومطالعة الكتب، وكان عالمًا بالفلك والطب والفلسفة، وعلى درجة كبيرة من المهارة في العربية، والآداب الإسلامية، توفي سنة 437هـ/1046م بالجزيرة الخضراء؛ (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، رقم60، ص89؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص437-438؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص121).

(2) لمزيد من التفاصيل: ابن شهيد، ديوان، ص81، 87، 97، 111، 125؛ ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص523-524؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص149-152.

(3) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص195-200؛ ابن دحية، المطرب، ص158؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص116؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص77-78؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص380-381.

الفصل الرابع

أبو الفتوح الجُرجاني

نزيل الأندلس

الفصل الرابع

أبو الفتوح الجُرجاني نزيل الأندلس

أولاً: نشأة أبو الفتوح الجُرجاني العلمية في جرجان

هـو أبـو الفتـوح ثابـت بـن محمـد الجُرجـاني العَـدَوى، كـان مولـده بإسـتراباذ أو إسـتراباد، مـن أعـمال جُرجـان[1]، إحـدى المـدن الـشهيرة في إيـران حاليًـا، في سـنة 350هـ/961م[2]، ولـذلك نـسب إلـيهما، فتلقـب وعـرف بالإسـتراباذي

(1) هي إحدى كور إقليم الديلم الخمس، وتقع جنوبي شرقي بحر قزوين، ويحدها من الجنوب إقليم خراسان، وشرقًا إقليم خوارزم، وغربًا بحر قزوين وإقليم طبرستان؛ وسميت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها جرجان بن لاوذ بن سام، وبدأ الفتح الإسلامي لها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة 18ه/639م، ثم ارتد أهلها، فافتتحها يزيد بن المهلب في عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة 98هـ/716م، وقام ببنائها في وادٍ عظيم يطل على البحر والجبال، فشيد سورها واختط بها نحو أربعين مسجدًا، وأصبحت بعد تمصيرها جانبين أحدهما جرجان في الشرق، والآخر بكراباذ في الغرب، ومن أشهر مدن جرجان ونواحيها، إستراباذ، وآبسكون، وفراوة، وآخر وأرباط، والزّبح؛ وكان سكانها قبل الإسلام خليطًا من الفرس والترك، وبعد الفتح الإسلامي دخلها نفر من الصحابة والتابعين، واستقر بعضهم مع أهلهم بها، كما هاجرت إليها بعض العشائر العربية واستقرت بها، ومنهم: آل المهلب بن أبي صفرة، وغيرهم من الأزد، وبعض العناصر القرشية، والأنصار، كما استقرت بها بعض عناصر من قبائل تميم، وثقيف، وأسد، وخثعم، وهمدان، وبعض العلويين، فامتزج العنصر العربي بالعناصر المحلية، وغدت جرجان بلدًا إسلاميًا؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع وزميله، بيروت، 1987م، ص267، 469-471؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص324-325؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، ص272-274؛ السهمي، تاريخ جرجان، نشر تحت إشراف د. محمد عبد المعيد خان، الطبعة الرابعة، عالم الكتب، بيروت، 1987م، ص44-52؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، م2، ص688؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص119-122؛ Hartmann (R.)- Boyle (J.A.), Gurgan, The Encyclopedia of Islam, New Edition, Bril, Leiden, 1983, p.114).

(2) ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ القفطي، إنباه الرواة، ج1، ص299؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص255؛ وذكر إسماعيل باشا البغدادي خطأ أنه ولد سنة 335هـ (انظر: البغدادي، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبعة دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ، م1، ص248).

الجُرجاني[1]، ويرجح المستشرق الهولندي رينهرت دوزي أنه ينحدر من أصول عربية[2].

وعلى الرغم من أن حمزة بن يوسف السهمي الجُرجاني مـؤرخ جرجـان قـد صـنف كتـابين، أحدهما بعنوان "تاريخ جرجان" ترجم فيه لعلماء بلـده، والكتـاب الآخـر بعنـوان "تـاريخ إسـتراباذ" استدرك فيه على تاريخ جرجان[3]، واستند فيه على كتاب تاريخ إستراباذ لأبي سعد عبد الـرحمن بـن محمد الإستراباذي المعروف بالإدريسي (ت405هـ/1014م)[4]، فإنه لم يأتِ إلى ذكر أبي الفتـوح ثابـت الإستراباذي الجرجاني، ولم يترجم له، رغم معاصرته له[5].

ومما يجدر الإشارة إليه أن أهل جُرجان اشتهروا بشغفهم بالعلوم والآداب ، ونبغ منها طوائـف من أهل العلم في مختلف فروع المعرفة، واتصف أهلها بمكارم الأخلاق، وخرج منها رجال كثيرون اشتهروا بالفـضل، وعرفـوا بـالكرم، فالرّحالـة الإدريـسي يـذكر "وفي أهلهـا مـروءة ظـاهرة، وفـيهم علـماء،

(1) ابن خير الإشبيلي، فهرسة مـا رواه شـيوخه، الطبعـة الثانيـة، منـشورات دار الآفـاق الجديـدة، بـيروت، 1979م، ص331؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253؛ كانت إستراباذ كما يصفها المقدسي أطيب هواء وأصح مـاء مـن جرجان، وقد اشتهر عامتهم بحياكة القز والحذّق فيها، وكان مسجدها الجامع يقع في سوقها، ويمـر عـلى بابـه نهر؛ (انظر: المقدسي، أحسن التقاسيم، ص274).

(2) ألحقه محقق تاريخ جرجان بأخر الكتاب، بعنوان "زيادات استدركها المؤلف من تاريخ إستراباذ".

(3) دوزي، المسلمون في الأندلس، ترجمة وتعليق د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القـاهرة، 1994م، ج3، ص33.

(4) السهمي، تاريخ جرجان، ص510؛ السمعاني، الأنساب، تقديم وتعليق عبد الـلـه عمر البـارودي، الطبعـة الأولى، دار الجنان، بيروت، 1988م، ج1، ص130؛ حاجي خليفة، كشف الظنون في أسامي الكتب والفنـون، اسـتانبول، 1941م، ج1، ص217.

(5) أبو العلا، أضواء جديدة، ص76-77.

وطلاب للأدب"[1]، ونتبين من الروايات أن أبا الفتوح الجُرجاني قد تتلمذ على علماء بلده، والوافدين عليها، ومنهم: الأديب أبي الحسن علي بن الحارث البياري الخراساني[2]، وكان "عنده مُفصّل الفضل ومجموعه ، ومرئّ الأدب ومسموعه، ومعدن العلم وينبوعه"[3]، فسمع منه كتاب "إصلاح المنطق" ليعقوب بن السكيت[4]، بمدينة إستراباذ سنة 389هـ/ 1000م، شعر أبي الطيب المتنبي (354هـ/965م)، وكان البياري قد قرأ بالكوفة على المتنبي شعره إلى أخر الكافوريات[5]، ومن المرجح أن أبا الفتوح الجرجاني سمع من شيخه البياري مصنفاته الأدبية، ومنها: شرح الحماسة، وصناعة الشعر[6]، وسمع منه بإستراباذ كتاب "اختيار فصيح الكلام" لأبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، م2، ص688.

(2) ينتسب إلى بلده بيار من أعمال قومس، وكان تشد إليه الرحال، ويقصده القصاد، وينثال على مناهله الرواد، طلبًا للأدب؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، رقم458، ص274-275).

(3) القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، ص274.

(4) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت الكوفي (ت243هـ/858م)؛ وكان قد تأدب على الكسائي والفراء، وأخذ عن أبي عمرو الشيباني، وغيرهما من الكوفيين، كما أخذ عن الأصمعي وأبي عبيدة من البصريين، وتعلم اللغة أيضًا عند الأعراب، فصار من أكابر أهل اللغة؛ واشتهر ابن السكيت بمصنفاته وجعله الخليفة المتوكل مؤدبًا لأولاده؛ (انظر: الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1973م، رقم124، ص202-204؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، بدون تاريخ، ج14، رقم7566، ص273-274؛ ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، الطبعة الثانية، مكتبة الأندلس، بغداد، 1970م، ص138-140؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج4، رقم826، ص56-63؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص418؛ كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، 1983م، ج2، ص205-206).

(5) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص404.

(6) القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، ص275.

الملقب بثعلب إمام الكوفيين في زمانه (291هـ/904م) [1]، عن أبي سعيد بن عبد اللـه بـن المرزبـان السيرافي[2]، وكان كتاب أبي الفتوح الجُرجاني بخط ابن خالويه، وفي صدره: قال أبو عبد اللـه الحسين بن أحمد بن حمدان بن خالويه النحوي اللغوي: قـرأت هـذا الكتـاب، وهـو الفـصيح لثعلـب، عـلى أربعة من أصحابه منهم: ابن الأنباري، وكان أبو الفتوح الجُرجاني قد قابل كتابه مـن الفـصيح بخـط ابن الكوفي، وكان قد نسخ كتابه من خط ابن الأنباري، وقابله به[3].

ثانيًا: تحصيله الثقافي بالعراق ورقيه الفكري

ولما أكمل أبو الفتوح الجُرجاني تحصيله بمسقط رأسه، رحل عنها، وتردّدَ بين مراكز الثقافة الإسلامية المشرقية، يطلـب العلـم، فـدخل بغـداد كـما ذكـر الحُميـدي الميـورقي وأقـام بهـا، لطلـب العلـم[4]، ونـستدل مـن روايـة لابـن

(1) صحب ابن الأعرابي بضع عشرة سنة، وأخذ منه، كما أخذ عن البـصريين، ونـافس المبرد، ونـاظر أصـحاب الفـرّاء وساواهم، وكان من الحفظ وصدق اللـهجة، والمعرفة بالغريب، ورواية الـشعر القـديم، ومعرفـة النحـو عـلى مذهب الكوفيين؛ (انظر: ابن النديم، الفهرست، حققه وقدم لـه مـصطفى الـشويمي، الـدار التونـسية للنـشر، تونس، 1985م، ص333-335؛ الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، رقم74، ص141-150؛ ابن الأنبـاري، نزهـة الألباء، ص173-176؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج3، ص130؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص125؛ الـسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بـيروت، 1964م، ص173).

(2) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص337؛ ابن عطية الأندلسي، فهرسة ابن عطية، تحقيق محمد أبـو الأجفـان ومحمـد الزاهي، الطبعة الثانية، دار الغـرب الإسـلامي، بـيروت، 1983م، ص105؛ الفـصيح، ويـضبط فيـه صـيغ ألفـاظ مشكوك فيها مع تفسيرها؛ (انظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج2، ص210-211).

(3) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص337-338.

(4) الحميـدي، جـذوة المقتـبس، رقـم 345، ص262؛ ابـن بـشكوال، الـصلة، ج1، رقـم293، ص206؛ الـضبي، بغيـة الملتمس، رقم604، ص310؛ ياقوت الحمـوي، معجـم الأدبـاء، ج14، ص147؛ البغـدادي، هديـة العـارفين، م1، ص248.

الخطيب الغرناطي أنه دخلها سنة 378هـ/988م[(1)]، وكانت بغداد تزخر بكوكبة من مشاهير أهل العلم والفضل حينئذ، فصحب بعضهم، وتتلمذ عليهم، واقتبس منهم الأدب، وعلوم اللغة العربية، والحكمة والمنطق، ومن أبرزهم: أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن محمد البصري القرمسيني (ت405هـ/1014م)، وكان أكبر رواة كتب اللغة، والنحو، والتفسير، والأخبار، ونوادر العرب وأيامها، وكان رواية بغداد[(2)]، والمشرف على دار الكتب بها يومئذ[(3)]، سمع منه كتاب إصلاح المنطق ليعقوب بن السكيت[(4)]، وفصيح الكلام لثعلب، عن أبي سعيد السيرافي[(5)]، وكتاب الجمهرة في اللغة لأبي بكر محمد بن الحسين بن دريد، عن أبي علي الحسن بن أحمد الفارسي الفسوي النحوي، وأبي سعيد السيرافي، جميعًا عن أبي بكر بن دريد[(6)]، كما قرأ أبو الفتوح الجرجاني على شيخه القرمسيني ببغداد سنة 398هـ/1007م، بعض كتب الأدب، فقد كان من أحسن الناس إنشادًا للشعر[(7)]، ومنها: كتاب الحماسة اختيار أبي تمام حبيب بن أوس الطائي (ت231هـ/845م)، وكان القرمسيني يرويها عن أبي رياش القيسي الربعي، عن أبي المطرف الأنطاكي، عن أبي

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص254؛ البير حبيب مطلق، الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، الجامعة الأميركية، بيروت، 1965م، ص300.

(2) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص387.

(3) ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص248؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، رقم390، ص175.

(4) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص331؛ ابن عطية الأندلسي، فهرسة ابن عطية، ص104؛ كان أبو العباس المبرد يقول: "ما رأيت للبغدادين كتابًا خيراً من كتاب يعقوب بن السكيت في المنطق"؛ (انظر: ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص139-140).

(5) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص336، 338؛ ابن عطية الأندلسي، فهرسة ابن عطية، ص105.

(6) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص349.

(7) القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، رقم390، ص176.

تمام[1]، وقرأ على القرمسيني أيضًا كتاب شرح معاني أبيات كتاب الحماسة للشاعر الأديب أبي علي الحسين بن علي النمري (ت385هـ/995م)، عن مؤلفه[2].

ومن الذين تتلمذ على يديهم أبو الفتوح الجرجاني أيضًا علي بن أبي الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي الوراق (ت384هـ/994)، وكان "إمامًا في العربية ، عَلامة في الأدب"[3]، وكان قد صنف كثيرًا من الكتب في النحو واللغة والأدب والشعر[4]، وسمع منه كتاب الجمهرة في اللغة لابن دريد[5]، ومن شيوخه ببغداد أيضًا: أبو الحسن علي بن عيسى الرّبعي النحوي (ت420هـ/1029م)، وكان من أكابر النحويين[6]، وسمع منه كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت[7]، وقرأ عليه أيضًا شعر أبي الطيب المتنبي[8]، وتتلمذ ببغداد على أبي محمد يوسف بن أبي سعيد السيرافي النحوي اللغوي

(1) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص387؛ ابن عطية الأندلسي، فهرسة ابن عطية، ص106.

(2) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص388؛ ابن النديم، الفهرست، ص363.

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج14، ص74.

(4) كان متكلمًا على مذهب المعتزلة، وكان يمزج كلامه في النحو بالمنطق؛ (انظر: ابن النديم، الفهرست، ص286-287؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج14، ص74-76).

(5) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص349.

(6) أخذ عن أبي سعيد السيرافي، وصحب أبا علي الفارسي مدة طويلة وأخذ منه النحو، وكان أبو علي الفارسي يقول له: "لو سرت الشرق والغرب لم تجد أنحى منك"، وشرح بعض الكتب، منها: الأيضاح لأبي علي الفارسي، وشرح كتاب الجرمي شرحًا كافيًا، وسنف كتابًا في النحو يقال له البديع؛ (ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج12، ص17؛ ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص249-250؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، ص297؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج14، ص78-85؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص295).

(7) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص331؛ ابن عطية الأندلسي، فهرسة ابن عطية، ص104.

(8) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص404؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م، ج10، ص289.

الأخباري[1]، وسمع منه كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت[2]، وقرأ عليه كتاب الجمهرة لابن دريد[3]، وسمع منه كثيرًا من مؤلفاته اللغوية قبل وفاته سنة 385هـ/995م، نـذكر منهـا: كتـاب شرح أبيـات إصلاح المنطق لابـن الـسكيت، وكتـاب شرح أبيـات الألفـاظ، وسـمع منـه أيـضًا: كتـاب شرح أبيـات الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام[4].

ومن خلال تحليـل المـصادر المختلفـة نـرجح أن أبـا الفتـوح الجرجـاني تتلمـذ عـلى أبي الفتح عثمان بن جني بالعراق[5]، فابن بشكوال يذكر أنه روى عنه ببغداد[6]، وكـان ابـن جني كما قال ابن الأنباري "من حُذّاق أهل الأدب، وأعلمهم بعلم النحو والتصريف"[7]، وقد أخذ أبو الفتـوح الجُرجـاني عنـه مؤلفاتـه في النحـو، ومنهـا: كتـاب اللمـع في النحـو، وكتـاب التصريف، وكتاب المصنف في شرح تصاريف أبي عثمان المازني ، وكتاب سر صـناعة الإعـراب،

---

(1) كان ورعًا متقشفًا، وله تقدم في علم اللغة، وبضاعته قوية في العلوم الأخرى، وكانت كتب اللغة تقرأ عليـه مـرة رواية، ومرة دراية؛ (انظر: القفطي، إنباه الـرواة، ج4، ص67-79؛ ابـن خلكـان، وفيـات الأعيـان، ج5، ص433-435).

(2) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص331؛ ابن عطية الأندلسي، فهرسة ابن عطية، ص104.

(3) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص349؛ مطلق، الحركة اللغوية، ص299.

(4) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص343؛ وعن هذه الكتب؛ انظر: القفطي، إنباهُ الرواة، ج4، ص67-68؛ ابـن خلكـان، وفيات الأعيان، ج5، ص433-434.

(5) ابن جني الموصلي (ت392هـ/1002م)، بدأ حياته العلمية معلمًا بالموصل، ثم تتلمذ على أبي علي الفارسي، وكان غزير العلم، ولازمه أربعين سنة ثم خلفه على التدريس ببغداد، وهو مؤسس مبدأ الاشتقاق، الذي يبحث عما بين الصوت والمعنى من التناسب، وكان يصرح بأنـه يـتكلم في كثـير مـن المـسائل التـي لا أصـل لهـا في اللغـة، لرياضة العقل وشحذ الذهن؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج11، ص311؛ ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص244-246؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، ص335-340؛ ابن خلكان، وفيات الأعيـان، ج3، ص214-217؛ السيوطي، بغيـة الوعـاة، ص322؛ بـروكلمان، تـاريخ الأدب العـربي، ج2، ص244-245؛ أبـو العلاء، أضواء جديدة، ص81-82).

(6) ابن بشكوال، الـصلة، ج1، رقـم293، ص206؛ يـاقوت الحمـوي، معجـم الأدبـاء، ج7، ص147؛ الـصفدي، الـوافي بالوفيات، ج10، ص289؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص482.

(7) ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص244؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، ص335.

وكتاب الخصائص في النحو، وكتاب التعاقب، وكتاب المحتسب في شرح القراءات الشاذة، وكتاب المسائل الخاطرات[1]، كما أخذ عنه مؤلفاته الأدبية، ومنها: كتاب العروض، وكتاب المعرب في شرح القوافي، وكتاب التصبيه في شرح الحماسة، وكتاب التمام في شرح أشعار الهُذَلِيّين، وكتاب شرح أشعار أبي الطيب المتنبي[2].

وتتلمذ أبو الفتوح الجرجاني ببغداد أيضًا لا على علي بن حمد التاني، وكان من أهل الأدب ، وقرأ عليه شعر المتنبي ، وكان التاني قد قرأ على المتنبي شعره إلى أخر الكافوريات[3]، ونستدل من نص قيم لابن حزم القرطبي أن أبا الفتوح الجرجاني قد تتلمذ على الفيلسوف الحسن بن سهل بن غالب بن السمح المنطقي الوراق (ت418هـ/1027م)، ببغداد[4]، وكان كما ذكر القفطي "فاضلاً في صناعة المنطق ، قيمًا بها ، مقصودًا في أفادتها ، شارحًا لغوامضها"[5]، وكان قد سكن معه في منزل واحد أعوامًا، وأخذ عنه حدود المنطق عن شيخ المنطقيين في عصره أبي بشر متّى بن يونس (وقيل:

---

(1) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص317-318.

(2) ابن النديم، الفهرست، ص397-401؛ ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص317-318؛ القفطي، إنباهُ الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية، القاهرة، بيروت، 1982م، ج2، ص336-337؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص216؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص691-692؛ وعن هذه الكتب انظر: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج2، ص245-249.

(3) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص404.

(4) ابن حزم، رسائل، ج4، ص39من مقدمة تحقيق كتاب التقريب لحدّ المنطق، وكان ابن السمح من الفلاسفة الذين التفوا حول أبي سليمان المنطقي، وكان له دكان بباب الطاق ببغداد، وقد اتهمه أبو حيان التوحيدي بأنه مستفرغ البال في كسب الدوانيق "لم يعبق بفوائح الحكمة، ولم يتفوّح برَدْع الفلسفة"؛ (انظر: أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، صححه وضبط غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1953م، ج1، ص34).

(5) القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ، ص268.

يونان) النصراني القنائي (نسبة إلى دير قنى)، نزيل بغداد الترجمان الحكيم المشهور الملقب بالمنطقي، لشهرته في هذا العلم[1].

ومن المؤكد أن أبا الفتوح الجرجاني أخذ من شيخه ابن السمح المنطقي أيضًا شروحه التي نقلها من كتب أرسطوطاليس[2].

ثالثًا: آثاره اللغوية والأدبية

علا نجم أبو الفتوح الجرجاني في جرجان وبغداد، فعرفته المنتديات الثقافية بهما، فقد أصبح عالماً ناضجًا واسع الثقافة[3]، صنف عددًا من الكتب اللغوية والأدبية قبل رحيله عن المشرق، ومنها: شرح كتاب الجمل لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت339هـ/950م)[4].

---

(1) ابن حزم، رسائل، ج4، ص39من مقدمة تحقيق كتاب التقريب لحدّ المنطق. وكان لمتى بن يونس (توفي ببغداد سنة 328هـ/940م)، صيت عظيم وشهرة وافية في المنطق، وله مناظرة شهيرة في المنطق جرت بينه وبين أبي سعيد السيرافي النحوي في مجلس عام بحضرة الوزير الفضل بن الفرات، وكان يجتمع في حلقته كل يوم كثير من المشتغلين بالمنطق، ومنهم: الشيخ يحيى بن عدي، والفارابي، وكان قد نقل كثير من تصانيف أرسطوطاليس، وثامسطيوس، وغيرهما؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن عدي التكريتي، مقالة في التوحيد، المكتبة البوليسية، لبنان-المعهد البابوي، رومة، 1980م، ص28؛ أبو حيان التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ج1، ص107-122؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق ودراسة د.عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001م، ج2، ص233؛ القفطي، أخبار العلماء، ص27-29، 31، 183، 212؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص387، 389).

(2) القفطي، أخبار العلماء، ص268.

(3) بيريس، الشعر الأندلسي، ص46.

(4) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص262؛ ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص315؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم604، ص310؛ ويسميه البغدادي شرح أبيات الجمل الكبيرة للزجاجي في النحو؛ (انظر: البغدادي، تاريخ بغداد، ج1، ص248)؛ وقد عُرف بالزّجاج، نسبة لشيخه إبراهيم بن السري بن سهل الزّجاج النحوي، وكان في شبيبته يخرط الزجاج؛ (انظر: ابن النديم، الفهرست، ص361؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج1، ص194)؛ وقد قرأ عليه النحو حتى برع فيه، وصنف الزجاجي كتبًا كثيرة، منها: غرائب مجالس النحويين، ومعاني الحروف، والهجاء، وشرح رسالة سيبويه، وحروف المعاني، ومن مصنفاته المطبوعة: الأمالي، والأيضاح في علل النحو، واللامات، والإبدال والمعاقبة والنظائر، واشتقاق أسماء الله الحسنى؛ (انظر: ابن النديم، الفهرست، ص362؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج2، ص160-161؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص77؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص603).

ويذكر ابن خير الإشبيلي أنه صنف كتابًا في تفسير "كتاب الحماسة" اختيار أبي تمام[1]، وفي موضع آخر من فهرسته ذكره بعنوان : شرح أبي الفتوح الجرجاني الحماسة، بأسانيده إلى أبي تمام[2]، وقد نسب البغدادي إلى أبي الفتوح الجرجاني كتابين ، فذكر "ومن تصانيف أبي الفتوح الجرجاني شرح أشعار الحماسة لأبي تمام ، ومعاني الشعر"[3].

ومن المرجح أنهما كتاب واحد يتناول شرح وتفسير معاني أشعار الحماسة، وجدير بالذكر أن أبا الفتوح الجرجاني كان يُحدّث بكتاب شرح معاني أبيات كتاب الحماسة لأبي علي الحسن بن علي النمري[4]، فيبدو أن الأمر اختلط على البغدادي، فذهب إلى أن معاني الشعر من تأليف الجرجاني، ومن المرجح أن أبا الفتوح الجرجاني تأثر بشيخيه ابن جني، والنمري في الاهتمام بكتاب الحماسة، فابن جني قد اهتم بإعرابه، والنمري وضع كتابًا في شرح معاني أبياته، فجاء الجرجاني ووضع كتابًا في شرح معانيه[5].

وذكر البغدادي أيضًا أن أبا الفتوح الجرجاني صنف كتابًا بعنوان خَلْقِ الْفَرَس[6]، ويبدو أنه نهج في هذا الكتاب نهج الأديب أبي القاسم يوسف بن

(1) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص387.
(2) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص388.
(3) البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص248.
(4) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص388.
(5) أبو العلا، أضواء جديدة، ص85.
(6) البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص248.

عبد اللـه الزجاجي الهمداني نزيل جرجان، في كتابه خَلْقِ الْفَرَس، وكان الزّجاجي هذا من أهل البلاغة والبراعة والدراية في النحو واللغة[1].

رابعًا: وفوده على الأندلس سنة 406هـ/1015م

بعد أن تردد أبو الفتوح الجرجاني بين إستراباذ مسقط رأسه، وجرجان، ومراكز الثقافة الإسلامية بالعراق، قرر الخروج إلى المغرب الإسلامي. ومن المرجح أنه رحل عن المشرق بعد سنة 398هـ/1008م ، فقد كان ببغداد في هذا في هذا التاريخ. ووصل إلى المغرب الأقصى في مستهل سنة 399هـ/1009م. ونستدل من لقبه الذي عُرف به "العُدْوَي"، أنه استقر بالعدوة المغربية قبل أن يعبر إلى الأندلس[2].

ومن المؤكد أنه كان في طريقه إلى الأندلس، فلما اندلعت الحرب الأهلية التي عرفت بالفتنة الكبرى (وعرفت أيضًا بالفتنة القرطبية، والبربرية)، بين البلديين من أهل الأندلس، والعامريين من الصقالبة، والبربر الطارئين سنة 399هـ/1009م، ومزق شمل البلاد إلى طوائف متناحرة ، استقر بالعدوة المغربية حتى تتجلى هذه الفتنة. ويتضح من الروايات أن إقامة أبي الفتوح الجرجاني قد طالت بالعدوة المغربية حتى سنة 406هـ/1015م، فقد عَبَرَ إلى الأندلس في هذا التاريخ، وكان أول من لقى من ملوكها الأمير الموفق أبو الجيش مجاهد الصقلبي العامري صاحب دانية، فأكرمه، وبالغ في بره[3].

(1) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج20، ص61.

(2) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج4، ص39من مقدمة تحقيق كتاب التقريب لحدّ المنطق؛ ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص315، البغدادي، هدية العارفين، ج1، ص248؛ أبو العلا، أضواء جديدة، ص86.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص262؛ ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص125؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم604، ص310؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج7، ص147؛ السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص482؛ دوزي، المسلمون في الأندلس، ج3، ص33.

1- **أبو الفتوح الجرجاني في بلاط مملكة دانية**

ولما كانت دانية سوقًا للأدب الرفيع، والثقافة العالية، فامتلأت بالعلماء والكتاب والشعراء[1]، ونتيجة لذلك انتجع أبو الفتوح الجرجاني إلى مجاهد العامري بدانية ؛ أضف إلى ذلك أن من أسباب انتجاع أبي الفتوح الجرجاني إلى دانية أن مجاهد كان من أهل الأدب، والمحبة للعلوم وأهلها[2]، وكان من أكثر أهل الأندلس علمًا بالثقافة ، فكان كما وصفه المؤرخ ابن حيان أديب ملوك عصره ، لمشاركته في علوم اللسان، ونفوذه في القرآن، حتى صار في المعرفة نسيجًا وحده، وكان قد جمع من دفاتر العلوم ما لم يجمعه أحد من نظرائه ، فامتلأت بها خزائن قصره ، ولذلك كانت دولته أكثر الدول خاصة ، وأسراها صحابة، لانتحاله العلو والفهم، وأتت إليه جملة وافرة من طبقات علماء الأندلس، فأنسوا بمكانه، وخيموا في ظل سلطانه، واجتمع بفنائه جملة من مشيختهم، ومشهور طبقاتهم، كأبي عمرو المقرئ، وابن عبد البر، وابن معمر اللغوي، وابن سيده[3]، واجتمع عنده أيضًا بعض العلماء والأدباء والفقهاء المشارقة والمغاربة الوافدين على الأندلس، ومنهم: الأديب اللغوي أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي (ت417هـ/1026م) [4]، فشاع العلم في حضرته[5]، ومن أسباب توافد الأدباء والمفكرين على دانية أيضًا استقطاب

---

(1) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص400.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم830، ص522-523؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1384، ص632-633؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص401.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص23؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص401؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص155-156؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص250؛ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي "عصر الطوائف والمرابطين"، الطبعة الأولى، دار الشروق، عمان، 1997م، ص58.

(4) الحميدي، جذوة المقتبس، ص350، ص522-523؛ ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص55؛ الضبي، بغية الملتمس، ص417، 633؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص402؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص156؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص84.

(5) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص250.

مجاهد لهم بكريم عطاياه، فالحميدي يصفه، فيقول: "وكان من الكرماء على العلماء، باذلاً للرغائب في استمالة الأدباء"[1].

يوم وصل أبو الفتوح محمد الجرجاني الأندلس كان عالماً ناضجًا، فقد درس على مشاهير شيوخ اللغويين، والأدباء، والمنطقيين المشارقة، ورحل إلى الأندلس بعد تمكنه من العلوم كما ذكر القفطي[2]، ونستدل من الروايات أن أبا الفتوح الجرجاني تعرض في بلاط دانية لاختبار قدراته العلمية والأدبية ، قبل أن ينال شرف الالتحاق ببلاط مجاهد العامري، وينضم إلى جملة مشاهير العلماء والأدباء بمجلسه ، وقد جرت العادة بذلك في بلاطات حكام وأمراء الأندلس في عصري الدولة الأموية وملوك الطوائف ، ومنها: بلاط مجاهد بدانية؛ فعندما كان يحضر أديب أو لغوي إلى مجلس الأدباء والشعراء من بلاط آخر، أو من خارج الأندلس، كان يتعرض لامتحان قاسٍ من العلماء والأدباء المحيطين بالحاكم، قصد تعجيزه، وبيان أنه لا يصل إلى المستوى الثقافي والعلمي لأدباء المجلس[3].

ويذكر هنري بيريس سببًا آخر لعقد مثل هذه المناظرات ، وهو أن ملوك الطوائف ما كانوا يتنافسون في الميدان السياسي فحسب ، وإنما يحاول كل حاكم أن يتفوق على جيرانه ومنافسيه ، باختيار كتابه من بين الأدباء الأوسع شهرة ، والأكثر تفوقًا على زملائهم في البلاطات الأخرى ، والأقدر على استخدام الكلمات القديمة المهجورة ، وتنافسوا أيضًا في ميدان آخر هو حيازتهم كُتّابًا مشهورين بقوة فصاحتهم ، وبراعتهم التي كانت تمكّنهم من التبريز في مجالس الأدب[4].

---

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم830، ص522-523؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1384، ص632-633؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص156.

(2) القفطي، إنباه الرواة، ج1، ص298؛ أبو العلا، أضواء جديدة، ص88.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص489؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص78-84.

(4) بيريس، الشعر الأندلسي، ص29.

من المرجح أن مجاهد العامري قد اختبر قدرات أبي الفتوح الجرجاني بنفسه، وهذا ما يميز السلطة المثقفة عن السلطة الراعية للثقافة ، حيث تستطيع السلطة المثقفة اختبار قدرات مثقفيها ، وضم المبدعين منهم إلى بلاطها ، وهو ما فعله مجاهد العامري ، فقد كان أديبًا عالماً ، وكان يتمتع بملكة نقد قوية، وكان له في العروض والقافية باع يدل على قوته فيه؛ تأليفه لكتاب في العروض والقافية[1]، حتى إن الشعراء حينما كانوا يقفون أمامه للإنشاد كانت تملأ قلوبهم الرهبة، ولم تكن تفوته الهفوة البسيطة، أو الكلمة القلقة، أو عدم انسجام الأسلوب، أو سلامة اللفظ، كان يزن القصيدة بميزان دقيق، فيجزل العطاء للشاعر المبدع، ويقل أو يمنع عطاءه للناظم[2]. ويتضح من الروايات أن أبا الفتوح الجرجاني قد اجتاز هذه المناظرة العلمية بنجاح باهر، وأثبت لمجاهد وأدباء مجلسه المثقفين غزارة أدبه، وقوة حفظه في اللغة، فضمه إلى مجلسه، وأكرمه وبالغ في بره[3]

وأفادت الروايات أن أبا الفتوح الجرجاني صحب مجاهد العامري إلى ميورقة كبرى جزر الأندلس الشرقية "البليار" سنة 406ه/1016م، وكانت قد التحقت بمملكته سنة 405هـ/1015م، ثم قصدا منها في المراكب، لفتح جزيرة سردانية[4]، فكان الأديب أبو الفتوح الجرجاني- كما ذكر ابن حيان- حاذقًا في حمل السلاح، وأنواع الجندية والفروسية[5]، ولما فشلت هذه

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم830، ص523-524؛ أبو العلا، أضواء جديدة، ص89.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص156؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص251.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، ص262-263؛ كليليا سارنللي، مجاهد العامري، ص234.

(4) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص128؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص116؛ أبو العلا، أضواء جديدة، ص90؛ Maria Jesus Rubiera, La Taifa de Denia, Alicante, 1985, p.66.

(5) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253.

الحملة، عاد أبو الفتوح الجرجاني مع مجاهد إلى جزر البليار في أواخر سنة 406هـ/1016م، واستقر معه فترة من الزمن في جزيرة ميورقة[1].

لم يستقر أبو الفتوح الجرجاني بدانية طيلة عهد ملكها مجاهد العامري، إنما خرج منها "وجال في أقطار بلاد الأندلس، وبلغ ثغورها، ولقى ملوكها"[2]، ولعل تجواله في نواحي الأندلس، واستقراره ببعضها، كان وراء تسميته بالأندلسي[3]، يبدو أن عدم إفراط مجاهد أحيانًا في مكافأة العلماء والأدباء، كان أحد أسباب رحيل أبي الفتوح الجرجاني عن دانية، ويؤيد هذا الرأي مذهب مجاهد في الجود والكرم كان كما ذكر ابن حيان قصدًا، لم ينهمك فيه "يعزى إليه، ولا قصر عنه فيوصف بضده، أعطى وحرم، وجاد وبخل"[4]، ووضع الأشياء مواضعها[5].

وربما كان زهد مجاهد العامري في الشعر، ونقده الشديد للشعراء، وتعقبه لزلاتهم العلمية، وراء رحيل أبي الفتوح الجرجاني عن مملكته، فقد كان مجاهد مع أدبه وعلمه، أزهد الناس في الشعر، وأنكرهم على منشده، لا يزال يتعقبه بنقده، كاشفًا لما زاغ فيه من لفظه، أو شبهة، أو سرقة، أو إحالة "فأقصر الشعراء لذلك عن مدحه، وخلا الشعر من ذكره"[6]، ولعل انحراف مجاهد عن العلم والعلماء في بعض أطوار حياته، وميله إلى الخلاعة واللهو والبطالة، كان من أسباب رحيل أبي الفتوح الجرجاني أيضًا عن بلاطه، والبحث عن بلاط ملك آخر يقدر مكانته العلمية، فابن حيان يذكر "ثم أكثر

---

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، ص262، 523.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص262؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم604، ص310؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص289.

(3) السيوطي، بغية الوعاة، ج1، ص482.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص23؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص251.

(5) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص251.

(6) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص23؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص251؛ كليليا سارنللي، مجاهد العامري، ص217.

التخليط مجاهد في أمره ، فطورًا كان ناسكًا مخبتًا معتكفًا متبرئًا من الباطل كله، يعكف على دفاتر يقرؤها، وتارة يعود خليعًا فاتكًا لا يساتر بلهو ولا لذة، ولا يستفيق من شرب وبطالة، ولا يأنس بشيء من الجد والحقيقة"[1].

2- أبو الفتوح الجرجاني في بلاط مملكة سرقسطة

ذكر ابن بسام الشنتريني في كتابه الذخيرة، وابن الخطيب الغرناطي في كتابه الإحاطة أن أبا الفتوح الجرجاني طرأ على أحد حجاب الأندلس منذ صدر الفتنة، للذائع من كرمه، فأحسن وفادته، ورفع شأنه، وعهد إليه بتأديب ابنه يحيى ولي عهده[2]، ورغم عدم تحديدهما لاسم هذا الحاجب، فقد ظن إحسان عباس محقق كتاب الذخيرة، ويوسف بن علي الطويل ناشر كتاب الإحاطة، أن سياق الرواية يشير إلى أن أبا الفتوح الجرجاني طرأ على علي بن حمود الحسني بقرطبة، ثم اتصل بعده بابنه يحيى[3].

وقد جانب المحققون الصواب فيما ذهبا إليه، فلم يكن علي بن حمود حاجبًا، إنما كان خليفة زمن الفتنة الكبرى، وكان قد اغتصب الملك من بني أمية، وقتل الخليفة سليمان المستعين سنة 407هـ/1016م، ولم يمكث في الملك طويلاً، فقد قتل سنة 408هـ/1018م، فتقلد أخوه القاسم بن حمود الأمر بعده[4]، وكان علي بن حمود متبربرًا في لسانه وثقافته، لطول إقامته بين البربر في المغرب الأقصى، ولم يُعرف عنه تشجيعه للآداب العربية

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص23-24؛ أبو العلا، أضواء جديدة، ص91.
(2) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص23؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص251؛ أبو العلا، أضواء جديدة، ص91.
(3) ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص125، هامش1؛ ابن الخطيب، الإحاطة، م1، ص253، هامش6.
(4) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص97-102؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص122-123؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص150-151.

خلال عهده القصير المليئ بالاضطرابات، كما أن أبا الفتوح الجرجاني كان قد التحق بمجاهد العامري حينئذ، وأصبح من المقربين منه كما ذكرنا(1).

ومن المرجح أن أبا الفتوح الجرجاني قصد الحاجب المنصور منذر بن يحيى صاحب سرقسطة بالثغر الأعلى الأندلسي، فقد اشتهر بكرمه، فكان يهب لقصاده مالاً عظيمًا، فوفدوا عليه "وعمرت بذلك حضرته سرقسطة، فحسنت أيامه وهتف المداح بذكره"(2).

وذكر ابن حيان أن منذر بن يحيى "استكتب عدة من الكتاب النبهاء، وقصده أكابر الشعراء"(3)، ورغم عدم تحديد تاريخ التحاق أبي الفتوح الجرجاني ببلاط سرقسطة، فمن المرجح أن ذلك كان قبل وفاة منذر بن يحيى سنة 412هـ/1021م(4)، ونستدل من الروايات أن أبا الفتوح الجرجاني بقى زمنًا في بلاط منذر بن يحيى، وولده المظفر يحيى من بعده (412-427هـ/1021-1035م)، ونال عندهما حظوة عظيمة، فلم يزل له عندهما "المكان المكين، إلى أن تغير عليه يحيى لتغير الزمان، وتقلب الليالي والأيام بالإنسان"(5).

3- أبو الفتوح الجرجاني في بلاط حصن البُونت

ونستدل من الروايات أيضًا أنه نزل حصن البُونت من أعمال بلنسية بشرق الأندلس، وكان موجودًا به بين سنتي 413-426هـ/1022-1036م(6)،

(1) أبو العلا، أضواء جديدة، ص92.

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص227؛ وانظر أيضًا: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص152وما بعدها؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص435؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص175وما بعدها؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص107-108.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص228؛ Viguera (Maria Jesus), Aragon Musulmana, Zaragoza, 1981, P.43.

(4) العذري، ترصيع الأخبار، ص48.

(5) ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص125؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253-254؛ وانظر أيضًا: دوزي، المسلمون في الأندلس، ج3، ص34؛ بيريس، الشعر الأندلسي، ص46.

(6) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص331، 361.

وكان نظام الدولة عبد الله بن قاسم الفهري قد استقل بهذا المعقل الحصن وضبطه عند اندلاع الفتنة، وظل يتقلده حتى سنة 421هـ/1030م، ثم خلفه ابنه يمن الدولة محمد بن عبد الله، واستمرت أيامه إلى سنة 434هـ/1042م[1].

ومن خلال رواية قيمة لابن حزم القرطبي نستدل على أسباب تقاطر العلماء والأدباء الأندلسيين، والغرباء، كأبي الفتوح الجرجاني، إلى حصن البونت، واستقرارهم به، فقد اشتهر أصحابه الفهريين بأنواع كثيرة من الفضائل، ومنها: رعاية العلماء والأدباء، واجتذاب النابهين منهم إلى بلاطهم، بما بذلوه لهم من الأمن والأمان، والتوسعة لهم ، فصار بلاطهم محط رحال الخائفين، وملقى عصار التسيار، فاكتظ بأصناف الآداب، والعلوم[2].

وجدير بالذكر أن الشقندي قد فطن إلى السبب المادي وراء تقاطر الأدباء الأندلسيين، والمشارقة الوافدين، على بلاطات الطوائف، فذكر أن ملوك الطوائف كانوا يتبارون في مكافأة هؤلاء الأدباء على المنثور والمنظوم، وكانوا يتباهون فيما بينهم، باختصاصهم بالعلماء، والشعراء، وليس منهم إلا من بذل وسعه لهم في المكارم، فلم "تزل الشعراء تتهادى بينهم تهادي النواسم بين الرياض، وتفتك في أموالهم فتكة البراض"[3].

4- أبو الفتوح الجرجاني في بلاط مملكتي غرناطة وإشبيلية

وبعد تجوال من مدينة لأخرى ومن حصن لآخر، استقر بأبي الفتوح الجرجاني النوى أخر الأمر في غرناطة، بعدما لفظته البلاد[4]، فنسبه هنري

---

(1) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص395-396؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص239؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص160.

(2) المقري، نقلاً عن رسالة في فضائل الأندلسيين لابن حزم، نفح الطيب، ج3، ص157-158؛ عباس، تاريخ الأدب "عصر الطوائف والمرابطين"، ص59.

(3) المقري، نقلاً عن رسالة في فضائل الأندلسيين لابن حزم، نفح الطيب، ج3، ص190؛ بيريس، الشعر الأندلسي، ص70؛ عباس، تاريخ الأدب "عصر الطوائف والمرابطين"، ص62-63.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص254؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص15، 108.

بيريس إليها، فنعته بأبي الفتوح الغرناطي[1]، وكانت غرناطة تحت حكم المظفر باللـه باديس بـن حبوس الصنهاجي حينئذ (428-465هـ/1038-1073م)[2]، وكان كما ذكر ابن حيان أرفع ملوك البربـر شأنًا، وأشدهم سلطانًا، وأكثرهم رجالاً، وأوسعهم أعمالاً[3].

وتذكر الروايات أنه حرّض يدّير بن حباسة على ابـن أخيـه باديس بـن حبـوس صاحب غرناطة، لانتزاع ملكه، وعندما انكشف أمر هذا الانقلاب خاف على نفسه، وفر مع يدير عـن غرناطة، ولحق بأبي القاسم محمد بن إسماعيل بـن عباد صاحب إشبيلية (414-433هـ/1023-1042م)[4]، وعندما حلت الهزيمة بابن عباد صاحب إشبيلية على يد باديس بن حبوس، فارق أبـو الفتوح الجرجاني يدير بن حباسة، واستأمن باديس يوم نزوله على باب أستجة[5]، أحد أبواب إشبيلية، إثر انهزام عسكر ابن عباد، من غير توثق بأمان أو مراسلة ؛ طمعًا في عفوه وصفحه، فقبض باديس عليه وجرّسه، وأرسله إلى غرناطة، ليحبس بها حتى ينظر في أمره، ثم قتله رغم شفاعة أخيه بلكين بن حبوس سنة 431هـ/1039م[6]، فقد كان باديس سيء الانتقام،

(1) بيريس، الشعر الأندلسي، ص34، هامش4.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص364؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص254-255.

(3) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص264.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق2، م1، ص13-23؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص34-39؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص178-180.

(5) إستجة Ecija: تقع على وادي شنيل (سنجل) إلى الجنوب الغربي من قرطبة على بعد خمسين كيلو مترًا منها، وفي منتصف الطريق تقريبًا بين قرطبة وإشبيلية، وهي الآن تابعة لإشبيلية؛ (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص174؛ الحميري، الروض المعطار، ص14؛ شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الطبعة الأولى، المطبعة الرحمانية، مصر، 1936م، ج1، ص133؛ الفاسي، الأعلام الجغرافية ، ص21).

(6) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص254-255؛ وانظر أيضًا: ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص206؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج1، ص299؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص289؛ دوزي، المسلمون في الأندلس، ص34-37.

مسرفًا في العقوبة، ولم يقل العثرة، وكان يأخذ بالظنه[1]، وأمر بدفنه بجوار قبر أحمد بن عباس وزير زهير العامري صاحب المرية، وقال لخادمه الذي دفنه: "اجعل قبر عدو إلى جانب عدو إلى يوم القصاص"[2].

من المرجح أن أبا الفتوح الجرجاني تأهل اجتماعيًا أثناء إقامته بدانية، فقد كانت أولى المدن التي نزل بها عند قدومه إلى الأندلس سنة 406هـ/1015م، ونستدل من رواية لابن الخطيب أنه تزوج بامرأة أندلسية بارعة الجمال، وكان لها من نفسه موقع عظيم، وأنجب منها أولادًا، وأفادتنا هذه الرواية أيضًا أنه انتقل بزوجته هذه وأولادهما إلى غرناطة، فظلوا بها، فلما فر أبو الفتوح إلى إشبيلية عقب فشل انقلاب يدّير بن حباسة، قبض عليهم باديس، وحبسهم بالمنكب، وأمر عبده قدّاح صاحب عذابه بتعذيبهم[3].

خامسًا: أثر أبي الفتوح الجرجاني في الحياة الأدبية والفكرية بالأندلس

كان تعلم اللغة العربية والشعر مقدمًا على سائر العلوم بالأندلس في عصر الطوائف؛ لأن الشعر ديوانُ العرب، ويدعو على تقديمه وتقديم العربية في التعليم، حسب مذهب القاضي أبي بكر بن العربي في التعليم -وقد استحسنه العلامة ابن خلدون- ضرورة فساد اللغة[4]، وكان ملوك الطوائف بالأندلس يهتمون بتشجيع الدراسات اللغوية والأدبية، بهدف تكوين رجال

(1) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص264.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص255؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص108؛ وانظر أيضًا: الأمير عبد الله، التبيان، ص65-66، 68-70؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، ص206؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج7، ص146؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص210؛
Viguera (Maria Jesus), (Editor), Los Reinos de Taifas Al-Andalus en el siglo X1, Espasa Calpe, Madrid, 1994, P.44.

(3) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص254-255؛ بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص108.

(4) ابن خلدون، مقدمة موسوعة العلامة ابن خلدون، طبعة مزيدة ومنقحة، دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب البناني- بيروت، 1999م، ص1041.

أدب في المقام الأول أكثر وأفضل مما هم رجال فقه. وكانت دراسة الشعر تحظى بأهمية كبرى، فعرفه الصبيان قبل أن يحفظوا القرآن الكريم. ويعتقد هنري بيريس أن كثيراً من الأندلسيين كانوا يهتمون بالثقافة العامة حتى سن النضج، ثم يتخصصون بعد ذلك في العلوم الإسلامية، كتفسير القرآن والسنة النبوية، وغيرهما ، مع الاحتفاظ دائمًا بشيء من تكوينهم الأول، ويتمثل في تذوق الشعر والنثر الفني[1]، وفي مثل هذه البيئة العلمية لنا أن ندرك أثر أبي الفتوح الجرجاني المهم في الحياة العلمية والأدبية في الأندلس[2].

كانت دانية في عهد مجاهد العامري سوقًا للأدب الرفيع، والثقافة العالية، وقد أفاد من مجالسها طلاب المعرفة والأدب. ومنذ أن التحق أبو الفتوح الجرجاني بمجاهد العامري، أصبح من أقرب أدبائه إليه، وأكثرهم اختصاصًا به، فكان لا ينقطع عن مجالس أدبه، وكانت تجري بينهما مناظرات في فنون الأدب، واللغة[3]، فقد "كان مجاهد لا يستريح إلا إلى جزء يقرأه، ودفتر يطالعه، أو عالم يذاكره"[4].

ومن المرجح أن أبا الفتوح الجرجاني قد أهدى كتبه التي أملاها بالأندلس للأمير مجاهد العامري، فكافأه عليها، فابن عذاري يذكر "فقصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب، وألفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير"[5]، وقد بقيت هذه الكتب موجودة وتدرس في الأندلس، فاستفاد منها طلاب العلم، فالحميدي يذكر أنه رأى شيئًا من كتاب شرح كتاب الجمل للزجاجي تأليف أبي الفتوح

(1) بيريس، الشعر الأندلسي، ص33.

(2) أبو العلا، أضواء جديدة، ص96.

(3) دوزي، المسلمون في الأندلس، ص33؛ كليليا سارنللي، مجاهد العامري، ص234.

(4) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص251.

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص156.

الجرجاني[1]، وكان كتابه شرح الحماسة متاحًا لتلاميذه منتشر بينهم، وتوجد نسخة منه مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بإسبانيا[2].

ومن إسهامات أبي الفتوح الجرجاني الأدبية بالأندلس، أنه حدّث تلاميذه هناك بروايات شيوخه عن أخبار الشعراء المشارقة، والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم، فقد ذكر ابن حزم أن أبا الفتوح الجرجاني أخبره أن القصيدة التي أولها "هذه بَرزْت لنا فهِجْت رسيسا"، قالها المتنبي في مدح محمد بن زريق وكيل زوامل ابن الزيات صاحب طرسوس، وأنه وصله عليها بعشرة دراهم، ولما قيل له: إن شعر المتنبي حَسَن، قال: ما أدري أحَسَنٌ هو أم قبيح؟، ولكني أزيده عشرة أخرى، فكانت صلته عليها عشرين درهمًا[3].

ولا شك أن أبا الفتوح قد روى لتلاميذه الشطرة الثانية من البيت، والقصيدة وهي من بحر البسيط، ورقمها 42من ديوان المتنبي، وعدد أبياتها ثلاثين بيتًا، فقال:

هذهْ بَرزت لنا فهِجْت رَسِيسا ثم انثنيتِ وما شَفَيْتِ نسيسا[4]

وذكر ابن حزم أيضًا أن أبا الفتوح الجرجاني أخبره عن بعض شيوخه أن محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي (ت231ه/845م) [5]، رأى في مجلسه

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص262؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم604، ص310؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص604.

(2) الطاهر أحمد مكي، دراسة في مصادر الأدب، الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة، 1993م، ص126.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص263؛ ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص126؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج7، ص148.

(4) المتنبي، ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، 2003م، ص39-41.

(5) هو أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي الكوفي، إمام اللغة، وقد انتهى إليه علم اللغة والحفظ، وكان رأس في كلام العرب، وكانت طرائقه طرائق الفقهاء والعلماء، ومذاهب جلة شيوخ المحدثين، وكان قد صحب الكسائي في النحو، وله مصنفات أدبية كثيرة، نذكر منها: معاني الشعر، والنوادر، وتاريخ القبائل، والألفاظ، وأخباره ونوادره وأماليه كثيرة؛ (البغدادي، تاريخ بغداد، م5، رقم2781، ص282-285؛ ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص119-122؛ القفطي، إنباه الرواة، ج3، ص128-137؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص124-125).

رجلين يتحدثان، وكان يحضر مجلسه كما أخبر تلميذه أبا العباس ثعلب خلق مـن المـستفيدين، بلـغ عددهم زهاء مائة إنسان[1]، فسألهما عن بلديهما، فقال أحدهما: من اسبيجاب[2]، وقال الآخـر: مـن الأندلس؛ فعجب ابن الأعرابي، وأنشد:

رفيقــان شــتى ألــف الــدهرُ بيننــا وقـــد يلتقـــي الـــشتى قيأتلفـــان[3]

وقد حدّث ابن حزم تلاميذه من أهل الأندلس، ومنهم الحميدي الميـورقي، بهـذه الروايـات عن شيخه أبي الفتوح الجرجاني، فكتبوها عنه، ودونوها في كتبهم[4]، فأضاف بـذلك فـضل إلى أفـضال الجرجاني على أهل الأدب من الأندلسيين.

---

(1) القفطي، إنباه الرواة، ج3، ص130؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص125.

(2) اسبيجاب أو أسْفيجاب، بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهـر في حـدود تركـستان، وكـان لهـا ولايـة واسـعة، وقرى كالمدن كثيرة، وكان أهلها أهل دين متين، ونسك وعبادة، وقد خرج من أسْفيجاب طائفة من أهل العلم في كل فن؛ (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص179-180).

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص262؛ أخبار وأشـعار لأبي عبـد اللـه الحميـدي عـن شـيوخه، تحقيـق خلاف محمود عبد السميع، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م؛ ابن بـسام، الـذخيرة، ق4، م1، ص125؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم604، ص310؛ ياقوت الحموي، معجم الأدبـاء، ج7، ص147-148؛ ابـن خلكـان، وفيـات الأعيـان، ج4، ص125؛ الـسيوطي، بغيـة الوعـاة، ج1، ص482؛ كليليا سارنللي، مجاهد العامري، ص234.

(4) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص206؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم604، ص310.

وذكر أبو الوليد بن زيدون (ت463هـ/1071م) أنه لقى أبا الفتوح الجرجاني بغرناطة، وسمع منه أخبار المشارقة، وأخذها عنه[1]، وأخذ منه أيضًا أخبار كثيرة في الفضائل[2]، ولا شك أن ابن زيدون قد برع في الشعر، كما برع في فنون النثر حتى صار من أبرز شعراء الأندلس ومترسليها المبدعين، قد تأثر بما سمعه من شيخه أبي الفتوح الجرجاني، واستفاد منه في أعماله الأدبية.

وكان انفراد أبو الفتوح الجرجاني بذكر تمثل بعض الأندلسيين بأشعار الهجاء وروايتها، من إسهاماته الأدبية المهمة بالأندلس. وتكمن قيمة هذا العمل أنه كان شاهد عيان على المناسبة التي تمثلوا فيها هذه الأشعار، وقد أخذها منه بعض طلاب العلم، وحدثوا بها تلاميذهم، فاحتفظوا بها، ودونوها في كتبهم؛ ومن إسهامات أبي الفتوح الجرجاني أيضًا تأديب أبناء وأقارب حكام الأندلس في عصر الطوائف، فقد اشتهر كما ذكر ابن حيان بالمشاركة في أنواع التعاليم[3].

وذكر ابن بسام نقلاً عن ابن حيان أن منذر بن يحيى صاحب سرقسطة قد عهد إليه بتأديب ابنه يحيى المرشح لمكانه، وظل أبو الفتوح يمارس هذا الدور ردحًا من الزمن إلى أن تغير عليه يحيى بن منذر[4]، وربما عهد إليه مجاهد العامري بتأديب ولده حسن بن مجاهد المرشح للأمر بعده، بعدما وقع ابنه الآخر علي في الأسر خلال غزوة جزيرة سردانية. وقد كان الأمير باديس بن حبوس يصفه بالمُعلم[5].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص124؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253؛ مطلق، الحركة اللغوية، ص300.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص254.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص124؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص125؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253-254.

(5) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص255.

وجدير بالذكر أن المصادر لم تشر إلى أي نشاط أدبي قام به أبو الفتوح الجرجاني أثناء لجوئه إلى إشبيلية. ورغم هذا الصمت، فمن المرجح أنه أثر في الحياة الأدبية بها، فأبو القاسم محمد بن عباد الذي فر إليه بإشبيلية كان له كما ذكر ابن بسام "في العلم والأدب باع، ولذوي المعارف عنده سوق وارتفاع، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوْك البلاغة، بسطًا لهم، وإقامة لهممهم[1]، فما كان بنو عباد أصحاب إشبيلية إذن، ليفوتوا الفرصة دون الاستفادة من أديب نحرير مثل أبي الفتوح الجرجاني[2].

ويتضح أثر أبي الفتوح الجرجاني المهم في الحياة الأدبية بالأندلس، أنه ساهم بفعالية في تشكيل ثقافة تلاميذه الأندلسيين، مما أهلهم للوصول إلى منزلة عالية في الأدب الأندلسي خاصة، والأدب العربي عامة، بل إن بعضهم نبغوا في علوم اللغة العربية وآدابها، وأصبحوا شيخوًا للعلم في عصرهم، فقد كان أبو الفتوح الجرجاني إمَامًا في العربية، وأملى بالأندلس كثيرًا من أمهات كتب النحو، واللغة العربية وغريبها، وبعضها من تأليفه، وأكثرها لمشاهير اللغويين والنحويين المشارقة[3]، وجدير بالذكر أنه لم يكن عالماً لغويًا وأديبًا فحسب، بل كان يتمتع بملكة النقد الأدبي أيضًا، فنستدل من الروايات أنه لقن تلاميذه الأندلسيين دروسًا في النقد أثناء شرح دروس اللغة والأدب[4].

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق2، م1، ص13؛ وانظر أيضًا: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص183-184.

(2) أبو العلا، أضواء جديدة، ص104.

(3) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص262؛ ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص315؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم604، ص310؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج7، ص147-148؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص604؛ كليليا سارنللي، مجاهد العامري، ص234؛ عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار)، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م، ص520.

(4) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص343.

اشتغل أبو الفتوح الجرجاني أيضًا بعلوم الأوائل، خاصة المنطق، وقام برواية بعض المصنفات في المنطق والشروح عليها، فقرأها عليه بعض تلاميذه بحصن البونت، ودانية، وغيرها من مدن الأندلس، نذكر منها: إصلاح المنطق لابن السكيت[1].

وتبدو قيمة جهود أبي الفتوح الجرجاني في رواية كتب المنطق والحكمة بالأندلس، أن تأثر به بعض تلاميذه، خاصة ابن حزم، فقد كان من أشد الناس اهتمامًا بالمنطق في عصره، متحملاً في ذلك اتهام الفقهاء له بقراءة كتب تؤدي إلى الإلحاد، فابن حزم صرح بأهمية المنطق والاستفادة منه في شتى العلوم، وقد ذهب إلى أكثر من هذا، فسلب الفهم عن كل من لم يؤت هذا العلم[2].

سادسًا: مكانة أبي الفتوح الجرجاني العلمية وأقوال العلماء فيه

كان أبو الفتوح الجرجاني كما رأينا واسع العلم، ثبتًا، ومن مظاهر ثبته أنه قرأ شعر المتنبي في أصل ابن جني بخطه، وقام بمقابلة كتابه بكتاب ابن جني ثلاث مرات[3]، وقابل كتاب كتابه من فصيح الكلام لثعلب بخط ابن الكوفي، وكان ابن الكوفي قد نسخ كتابه من خط ابن الأنباري، وقابله به، وسمع أبو الفتوح الجرجاني شعر المتنبي أيضًا على أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري غير مرة؛ وكان أبو الفتوح الجرجاني كثير الرواية عن شيوخه المشارقة. ومما يدل أيضًا على شدة تحريه وتوقيه، أنه كان يُبين لتلاميذه طريقة أخذه روايته عن العلماء السابقين عليه،

(1) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص330-331، 361؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج2، ص206. ونشر هذا الكتاب بشرح وتحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، في دار المعارف، مصر (1949م).

(2) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، بدون تاريخ، ج1، ص17.

(3) القفطي، أخبار العلماء، ص183، 212.

والمعاصرين له، إما سماعًا، وإما كتابة، وإما قراءة عليهم[1]، وكان يبين لهم أيضًا مكان أخذه الروايات[2]، وتواريخها[3].

وقد عرف علماء الأندلس قدر أبي الفتوح الجرجاني ومكانته العلمية الرفيعة؛ وشهد له أدباء الأندلس ومؤرخوها فيما كان يحسنه من علوم، وأثنوا عليه وقرظوه بأقوال حسنة، ووصفوه بما يرفع شأنه، ويُعلي قدره. فوصفه الشاعر ابن زيدون، بقوله: "وكان غزير الأدب، قوي الحفظ في اللغة"، وقال عنه ابن حيان: "ولم يدخل الأندلس أكمل من أبي الفتوح في علمه وأدبه"[4].

أما الحميدي -وتابعه كل من ابن بشكوال، والضبي، والقفطي، وياقوت الحموي، والصفدي -فقال عنه: "وكان إمامًا في العربية، متمكنًا في علم الأدب، مذكورًا في علم المنطق"[5]، ووصفه ابن بسام الشنتريني، بقوله: "الأديب أبو الفتوح ثابت بن محمد، وكان الغالب عليه علمُ اللسان، وحفظ الغريب، والشعر الجاهلي والإسلامي، إلى المشاركة في أنواع التعاليم، وشهد له أي ابن بسام بالكمال في كل هذه العلوم"، كما قال عنه أيضًا: "كان الكاملَ في خلال جمة"[6]، وقال ابن بشكوال، وياقوت الحموي، والصفدي: "وروى كثيرًا من علم الأدب"[7]، وذكر القفطي أنه "روي عن جلة من أهل

(1) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص331، 338، 404.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص254.

(3) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ص331.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253.

(5) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 345، ص262؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ الضبي، بغية الملتمس، رقم604، ص310؛ القفطي، إنباهُ الرواة، ج1، ص298؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج7، ص146-147؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص289.

(6) ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص124؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253.

(7) ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج7، ص147؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص289.

الرواية"[1]، وكان أبو الفتوح الجرجاني كما وصفه ابن الخطيب مشاركًا في عدة علوم، أبرزها اللغة والأدب، وعلوم الأوائل من المنطق، والنجوم، والحكمة "له بذلك قوة ظاهرة"[2].

وقد قرظه تلميذه ابن حزم، وشهد له بالفضل والألمعية والتقدم في علم المنطق، فقال: "وما رأيت في خلق الله عز وجل أعلم بهذا العلم منه، ولا أحفظ له منه، ولا أوسع فيه منه"[3]، ورغم عداوة أبي الفتوح الجرجاني لصاحب غرناطة وتآمره عليه، فإن بعض أفراد الحاشية المكلف بموارة جسده بعد قتله، شهد له بالألمعية، فقد ذكر ابن الخطيب أن برهون خادم باديس بن حبوس صاحب غرناطة، قال بعد موارة جسد أبي الفتوح الجرجاني في قبر بجوار قبر أحمد بن عباس وزير زهير العامري: "فيا لهما قبران أجمّا أدبًا لا كفاء له"[4].

تتضح قيمة هذه الآراء وأهميتها أنها صدرت عن تلاميذ أبي الفتوح الجرجاني الذين نهلوا من علمه، وأدركوا قيمته، وصدرت أيضًا عن بعض العلماء المعاصرين له، من المُعوّل على رأيهم في التزكية، والمشهود لهم بالأمانة، فقد اشتهر المؤرخ ابن حيان (ت469ه/1076م)، بالدقة، والنزاهة، والصدق والتجرد من الهوى، والبعد عن المداهنة والمجاملة، فكان يخضع الأحداث والشخصيات لميزانه النقدي والخلقي الصارم، فيعطي كلاً حقه دون إسراف في الثناء ، ولا خروج إلى ضد ذلك من التجني أو الظلم، وكان ابن حيان أيضًا أديبًا ناقدًا، وقد ذهب محمود علي مكي إلى أن الأحكام التي أصدرها ابن حيان على أدباء الأندلس في ثنايا تاريخه، ترفعه إلى مكان بارز في الصف الأول من النقاد، فلم يكن يقتصر على الترجمة للأدباء

(1) ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم293، ص206؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج7، ص147؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص289.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص253.

(3) ابن حزم، رسائل، ج4، ص39من مقدمة تحقيق كتاب التقريب لحدّ المنطق.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص255؛ دوزي، المسلمون في الأندلس، ج3، ص37.

أو الاختيار من قولهم، وإنما شفع ذلك بالحكم لهم، أو عليهم، معطيًا لكل حقه[1].

وعلى ذلك فإن أثر أبي الفتوح الجرجاني في الحياة اللغوية، والأدبية، والفكرية بالأندلس واضح جلي، لا لبس فيه، تؤيده النصوص الأدبية، والشواهد التاريخية.

---

(1) ابن حيان، المقتبس، 1973م، ص106-111، 134-135من مقدمة المحقق.

الفصل الخامس

ابن الحناط

المفكر الحائر

الفصل الخامس

ابن الحناط المفكر الحائر

أولاً: نسبه ونشأته العلمية

أبو عبد اللـه[1] محمد بن سليمان الحَنَّاط الرُّعيني، القُرطبي، الشاعر الضرير الأندلسي، ويعرف بابن الحَنَّاط[2]، كان أبوه يبيع الحْنِطَة بقرطبة، ونشأ نشأة أعانته على أن بلغ من العلم الحديث والعلم القديم الكثير[3]، فقد كان من أبرع المفكرين علمًا بعلوم الجاهلية والإسلام، تميز في الفلك، وأبدع في الطب والفلسفة، وماهرًا في العربية والآداب الإسلامية، شاعرًا مفلقًا، كاتبًا بليغًا[4]، اشتهر في الأدب والبلاغة والشعر[5].

---

(1) كَنَّاه البونسي، راجع: أبو إسحاق إسحاق إبراهيم الفهري الشريشي المعروف بالبونسي، كنز الكتاب ومنتخب الآداب، تحقيق د. حياة قارة، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2004م، ج2، ص627.

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم60، ص89؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص437؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، رقم1567، 1004؛ الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر " شعراء المغرب والأندلس "، تحقيق آذرتاش آذرنوش، الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر، 1986م، ج2، رقم78، ص297؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم125، ص107؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص121؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، رقم657، ص221؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص104، الزركلي، الأعلام، ج6، ص149، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، دمشق، 1957م، ج3، ص332.

(3) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص121.

(4) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، رقم657، ص221، 222.

(5) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم60، ص89؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم125، ص107؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1101، ص312.

نشأ ابن الحناط[1] في بيئة فقيرة، فتكفل به بنو ذكوان[2] من وجهاء قرطبة، وهم معروفـون بالثراء، وكفوه مؤونته فتفرغ لطلب العلم، وعاش بعـد ذلـك يتكـسب بعلمـه، ومعرفتـه لـشيء مـن الطب، فكان يعالج الملوك والأمراء وغيرهم، كما كان يقوم بإقراء النحو وتعليم اللغـة العربيـة لأولاد الأمراء والوزراء والفقهاء، وكان ابنه[3] يصف له وجوه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منهـا إلى مـا لا يهتدي له البصير، ولا يخطئ الـصواب في فتـواه ببراعـة الاسـتنباط، وتَطبَّـب عنـده الأعيـان والملـوك والخاصة، فاعتُرف له بمنافع جسيمة، وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة[4].

(1) أطلق عليه الصفدي ابن الخياط المكفوف الأندلسي، والصواب ابن الحناط؛ (انظر: صلاح الدين خليل بـن أيبـك الصفدي، الغيث المسجم في شرح لامية العجم، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1305هـ ج2، ص74-75).

(2) يقال إن أصلهم من برابرة فحص البلوط، ومن أبرزهم أحمد بن عبد اللـه بن هرثمة بن ذكـوان بـن عبيـدوس بن ذكوان ، ولَّاه القضاءَ المنصور بن أبي عامر (392ه/ 1002م) وكان من خاصـته، يلازمـه في رحلاتـه وغزواتـه، ومحله منه فوق محل الوزراء، يفاوضه المنصور في تدبير الملك، وفي سائر شئونه، وكذلك كان حالـه مـع ولديـه المظفر والمأمون بعده، قد تيمنوا برأيه، وعرفوا النجاح في مشورته؛ وكان له داخل القصر بيت خاص بـه، عُـزل في أيام المظفر عن القضاء، ثـم أعيـد، وتـوفي المظفـر فـزاد أخـوه عبـد الـرحمن في رفـع منزلتـه وولَّاه الـوزارة مجموعة إلى قضاء القضاة؛ ولما انقرضت دولة بني عامر وقامت الفتنة في قرطبة نُفـي ابـن ذكـوان وأهلـه إلى المرية ثم إلى وهران بإفريقية، فاعتزل الناس؛ (انظر: عياض، ترتيـب المــدارك وتقريـب المـسالك لمعرفـة أعـلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطـابع الـشويخ، المغـرب، 1982م، ج7، ص167-172؛ ابـن سـعيد، المغرب، ج1، ص156-157؛ النباهي، تاريخ قضـاة الأندلس، تحقيق لجنة إحيـاء الـتراث العـربي في دار الآفـاق، الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديـدة، بيروت، 1983م، ص88-89).

(3) هو عبد اللـه بن محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني الأندلسي -على الأرجح- ولم تذكر المصادر عنه أي شيء سوى أنه هلك أثر أبيه سنة 437ه/1045م أو بعدها بقليل؛ (انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص438؛ عبـد اللـه عباس الشال، ابن الحناط الأندلسي: حياته وما تبقى من شعره، كليـة الآداب جامعـة القـاهرة، العـدد2، يناير2018م، ص179).

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص438.

احتل ابن الحناط منزلة كبيرة عند النقاد والأدباء، فهو زعيم من زعماء العصر، ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان، فكان واحد من أذكى وأبرع شعراء العصر في الفكر والأدب[1].

ثانيًا: ابن الحناط يغازل الحموديين

ورغم تلك المكانة الكبيرة لابن الحناط في الشعر إلا أنه وجه معظم موضوعات شعره إلى مدح الملوك والأمراء والوزراء والفقهاء، وبعض أصدقائه، ومعانيه في المدح تقليدية، لا تخرج عن المألوف، فهي من قبيل التكسب وطلب المال من الممدوح، وألفاظه سهلة بسيطة إلا أن فيها بعض المبالغة، كما في قصيدته التي يمتدح فيها الناصر لدين الله علي بن حمود ومنها:

رَوضٌ يُحاكِي الفَاطميِّ شَمائلَ   طِيبًا ومُزنٌ قد حَكاهُ سَماحَا

أَعليُّ إن تعلُ الملوكَ فإنّهم   بُهْمٌ جُعِلْتَ أغرَّها الوَضَّاحَا

لما طلعْتَ لَها بِكلِّ ثنيّةٍ   أنسَيْتَها المنصورَ والسَفَّاحَا[2]

غازل ابن الحناط وأكثر من مدح علي بن حمود في مواضع كثيرة من أشعاره، كما مدح ابن ذكوان أصحاب الفضل عليه، ولم يكتفِ بمدح الحموديين العلويين حكام قرطبة في ذلك الوقت فحسب، بل تطور به الأمر إلى تفضيل بني حمود على سائر الناس، وذكر صراحة حُبّه وعشقه لآل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبني حمود، فيقول في مدح المعتلي بالله يحيى بن علي بن حمود:

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص437-438؛ القفطي، المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تحقيق حسن معمري، نشر جامعة باريس، 1970م، ص359؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص123.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص445؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص122.

المُعْـــتَلِي باللــــه والمَلِـــكُ الّـــذِي تَـــاجُ الفَخَـــارِ بِرَأسِــــهِ مَعْــــصُوبُ
إنْ كـــان عَـــدُّوا حُـــبِّ آلِ مُحمّـــدٍ ذَنْبًـــا فـــإنّي لَـــسْتُ منـــه أتُـــوبُ[1]

ويذكر مكارم الحموديين بأنها مكارم هاشمية، وأفعالهم علوية لما عرف عنهم أنهم من سلالة علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي اللـه عنهما، فيقول:

مـــن القـــومِ الـــذِين سَـــمِعتُ عَـــنْهُم بَنِـــي الزَّهـــراءِ واختـــصرَ المَقَـــالا[2]

ويذكرهم صراحة ويصف المعتلي باللـه يحيى الحمودي، فيقول:

إمــــــامٌ تُمَيِّــــــزُ في وجهِــــــهِ صِـــــفاتِ النبـــيِّ وسِـــيْمَا عَـــلِي[3]

كما وصفهم بأنهم خير البرية، وأنهم من أبناء السيدة فاطمة، فيقول:

أبنـــاءُ فاطِمَـــةٍ رِسْـــلُ[4] العُـــلا رَضَـــعُوا وبالـــسَّماح غُـــذُّوا والجُـــودِ إذ فُطِمـــوا
قَـــــوْمٌ إذا حَلَـــــفَ الأقـــــوامُ أنَّهُـــــمُ خَـــيْرُ البَرّيَـــةِ لم يَحْنَـــثْ لهُـــم قَـــسَمُ
سَـــما لَهُـــمْ في سَـــماءِ المَجْـــدِ مِـــن شَرَفٍ بَيْـــتٌ تَـــدَاعَتْ إليـــهِ العُـــرْبُ والعجَـــمُ[5]

لم يكتف ابن الحناط بهذه الأوصاف، بل استخدم بعض التعابير الشيعية مثل (الوصي)، في قوله:

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص449.

(2) الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص305؛ الشال، ابن الحناط، ص147.

(3) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص223.

(4) الرسل: أي اللبن.

(5) الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص305.

إمـــــامٍ وَصِيُّ المُـــــصْطَفى وابـــــنُ عَمِّـــــهِ أَبُـــوُه فَـــتَمَّ الفَخْـــرُ بـــينَ أَبٍ وابْـــنِ[1]

وفي هذا الإطار الفكري الذي وضعه ابن الحناط لنفسه نجده ارتبط بسلطة بني حمود في قرطبة، فكان تشيعه من أجل تحقيق مكاسب مادية ومعنوية.

ثالثًا: الوشاية بابن الحناط المفكر الحائر

ورغم عدم وجود إشارات واضحة في المصادر عن أحوال ابن الحناط بعد سقوط بني حمود، وعودة الحكم إلى الأمويين في قرطبة، إلا أنه يمكننا من خلال الإشارات المختلفة أن نستنتج حياة ابن الحناط في ظل الحكم الأموي في قرطبة، فمن المؤكد أنه ظل يتكسب المال بأشعاره من خلال مدح الملوك والأمراء والوزراء، وفكرة تشيعه كانت من أجل توثيق علاقته بالحموديين في قرطبة الذين كانوا يفاخرون بعلويتهم، فلم يكن تشيعه اعتقادًا وإنما كان تكسبًا[2].

وفي ظل الحكم الأموي نجد أن المصادر تذكر لنا أن ابن الحناط عمل بالكتابة في عهد هشام المعتد بالله الأموي، فقد كان يستكتبه في حين كان يتخذ ابن شهيد الأندلسي جليسًا له، وكان ابن الحناط أعمى وابن شهيد أصم[3].

نجح ابن الحناط طوال تلك الفترات في توثيق علاقته بسلطات قرطبة، واستمر الأمر كذلك حتى تولى أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور مقاليد الأمور في قرطبة بعد إعلان انتهاء الخلافة وإلغائها نهائيًا، ظن ابن الحناط أن الفرصة أصبحت مواتية ليعود إلى قرطبة، ولكن خاب ظنُّه، لأن

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص451؛ مكي، التشيع، ص143.

(2) فاضل فتحي محمد دالي، الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، الطبعة الأولى، دار الأندلس للنشر والتوزيع، 1996م، ص133.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص438؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص123.

أبا الحزم تشكك في أمره أنه هجاه، لما عرف عنه من هجاء الأدباء والمفكرين، ودليل ذلك مـا حـدث بينه وبين ابن شهيد من هجاء، فقد كان كثير التعريض بالشعراء والعلماء[1].

فمن المؤكد أن الساعين بابن الحناط استغلوا فرصة تـشكك أبي الحـزم في أمـره، فدسـوا لـه أشعار على لسانه تحمل هجاء لأبي الحزم بن جهور، حيث اتهمه صاحب قرطبة أبو الحزم بأنه سخر منه واستهزء به في أشعاره، الأمر الذي دفعه إلى الخروج من قرطبة خوفًا من بطش أبي الحزم والفتك به، كما أن الساعين به استغلوا فرصة اشتغاله بالفلسفة والفلك واتهموه بالهرطقة في دينه، كل ذلـك جعل أبا الحزم على الأرجح أن يفكر في الانتقام منه، فهرب ابن الحناط قبل أن ينال منه أبـو الحـزم بن جهور[2].

خـرج ابـن الحنـاط مـن قرطبـة يطـرق أبـواب ملـوك الطوائـف، فكانـت وجهتـه الأولى إلبـيرة[3]، ثـم خـرج منهـا إلى مالقـة[4] حيـث بنـي حمـود الـذين

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص439-440؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص224-227.

(2) ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1101، ص312؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص222.

(3) إلبيرة Elvira: مدينة رومانية قديمة، كانت عاصمة الولاية التي تُسمى بهذا الاسم، ولما فتح المسلمون الأنـدلس أصبحت كورة كبيرة من الأندلس، ومدينة متصلة بأراضي كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة، بينهـا وبـين قرطبة تسعون ميلًا، وأرضهـا كثيرة الأنهار والأشجار، وفيها عدة مدن منها قـسطيلية، وغرناطـة، وغيرهـا، وقـد غلب على هذه الكورة اسم غرناطة بعد ازدهـار مدينة غرناطة منها؛ (انظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، نشر د. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربيـة، ج2، القـاهرة، 1955، ص14، 15، 17؛ يـاقوت الحمـوي، معجم البلدان، ج1، ص244؛ ج2، ص195؛ القزويني، آثـار الـبلاد وأخبـار العبـاد، دار صـادر، بـيروت، 1960م، ص502).

(4) مالقة Malaga: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضـراء والمرية؛ (انظر: ابن حيان، المقتبس، 1979م، ص65؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص43؛ الحميري، الروض المعطار، ص177-178؛ كمال السيد أبو مصطفى، مالقة الإسلامية في عصـر دويلات الطوائف، القرن الخامس الهجري، الحادي عشـر الميلادي، دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993م، ص6).

تشيع لهم، ومن خلال قراءتنا للمصادر نؤكد على أن ابن الحناط ترك قرطبة في أواخر سنة 434هـ/1043م وأوائل سنة 435هـ/1043م.

بينت لنا المصادر أن ابن الحناط بعد خروجه من قرطبة - بأشهر قليلة تقريبًا- علم بوفاة ابن جهور 435هـ/1043م، فأرسل إلى ابنه قصيدة يرثي فيها والده ويهنئه بتوليه الخلافة بعد أبيه، ويُلقي في قصيدته اللوم عليه بتصديقه ما شاع عنه من هجاء والده، فيقول في أولها:

إنَّا إلى اللـه في الـرّزءِ الـذي فَجَعـا والحمـدُ للهِ في الحُكـمِ الـذي وَقّعَـا

ولي أبـو الحـزم عـن مُلـكٍ تقلّـدَهُ أبـو الوليـدِ فعـزَّ الملـكُ وامتنعـا

أبٌ كـريمٌ غـدا الفِـردَوْسُ مـسكنَه وابـنٌ نجيـبٌ تـولى الأمـر واضـطلعا[1]

وفي آخرها قال:

ليَمَحُـونَّ مَـدِيحي فيـكَ مـن كثَـبٍ مَجـوًا حـديثَ ملامـي حيـثما سُـمعَا[2]

من المؤكد أن ابن الحناط بمبادرته تعزية أبي الوليد بن جهور في والده، أراد أن يستعطفه لعله يسمح بعودته، ولكن أبا الوليد لم يستجب له، وأصر على موقفه منه، فمن المرجح بسبب ميله إلى الحموديين من ناحية، وهجائه وسعاية المفكرين به من جانب آخر.

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص449.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص450.

على أية حال استقر ابن الحناط في مالقة في كنف أميرها إدريس بن يحيى بن علي بن حمود، فقد كانت قرطبة به علاقة مودة[1]، غير أنه لم يجد في مالقة وحكامها ما يسره، وما يساعده على العيش بها حياة كريمة، فنجده يحاول الاتصال بالحاجب المظفر بن الأفطس حاكم بطليوس، وذلك بعد توليه الحكم سنة 437هـ/1045م، وفيها يطلب منه العطايا التي يغدق بها على الأدباء والشعراء، ويذكر في رسالة أخرى حاله، وسوء ما آل إليه من الزمن[2].

من المؤكد أن ابن الحناط ظل بمالقة من سنة 434هـ/1043م إلى سنة 437هـ/1045م ثم رحل إلى الجزيرة الخضراء بعدما لم يصله رد من ابن الأفطس صاحب بطليوس، فغادر مالقة متجهًا إلى الجزيرة الخضراء قبل وفاته بأشهر، فعاش هناك في ظل محمد المهدي بن القاسم بن حمود 428هـ-440هـ/1036-1048م، حيث ارتبط بالسلطة بعلاقة وثيقة، فأكثر من مديح بني حمود، واشتهر بميله إليهم وارتباطه بهم حتى كانت وفاته بالجزيرة الخضراء 437هـ/1045م[3].

(1) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص222؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص291؛ النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص91.

(2) كان ابن الأفطس شغوفًا بالأدب والشعر، لذا قصده ابن الحناط لما سمع أنه كان يُقرب الأدباء من مجلسه ويغدق عليهم الأموال؛ (انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص443-445؛ الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص307-308؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1101، ص312؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص222).

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص438؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1101، ص312؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص121؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص222.

الفصل السادس

أحمد بن برد الأصغر

المفكر المصلح

الفصل السادس

أحمد بن برد الأصغر المفكر المصلح

أولاً: نشأته

اشتهر أبو حفص الوزير الكاتب أحمد بن برد الأصغر(1) في مجال الكتابة فكان من أروع كُتاب عصره، كما عرف عنه بلاغته في الشعر، ولا عجب أن يكون أحمد بن برد من أبرز مفكري عصر الطوائف، فقد كان من بيت اشتهر بالثقافة والسياسة(2).

ساعدت نشأة أحمد بن برد العلمية على أن يكون من أبرز المفكرين المصلحين في عصر الطوائف، حيث كان يحسن صناعة الأدب بصفة عامة، ويتفوق في فن الترسل بصفة خاصة، وهو ما جعله يسخر كل أفكاره وآرائه من أجل إصلاح أحوال عصره الذي شهد أحداثه وتأثر بها، واتصل بأمرائه وأعيانه، وأدبائه، وعبر عن ملامحه السياسية والثقافية، وكان شاهدًا أمينًا على عصره(3).

ثانيًا: ابن برد الأصغر والعمل السياسي

لم تتناول المصادر شيئًا عن السنوات الأولى التي أمضاها في قرطبة، غير بعض الإشارات البسيطة عن صداقته وعلاقته ببعض الأدباء والمفكرين،

---

(1) لفظ الأصغر للتمييز بين أحمد بن برد الجد (الأكبر) ومفكرنا الذي نتناول الحديث عنه أحمد بن برد الأصغر، وحتى لا يحدث خلط بين الاثنين، فأحمد بن برد الجد (الأكبر) هو أبو حفص الوزير أحمد بن محمد بن برد، جد الوزير الكاتب أحمد بن برد، اشتهر بالأدب والبلاغة والشعر، كما كان من أبرز رجال الدولة العامرية، واستمر مدة بعدها، توفي 418هـ/1027م؛ (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، رقم199، ص173؛ ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص207-209؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص103-123؛ ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم74، ص74؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم388، ص218).

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم192، ص169؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم355، ص207.

(3) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص207-208؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص486؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج2، ص509؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص86-87؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص350؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص424.

وفي سنة 427هـ/1035م حرر أبو حفص أحمد بن برد الأصغر وثيقة مبايعة الخليفة المزيـف هـشام المؤيد، بل إنه كتب أيضًا من تلقاء نفسه دعوة للاحتفال بعودة الخلافة، وفي هـذا الخـبر الـذي رواه ابن عذاري يلقبه بالوزير الكاتب[1].

ومن خلال تلك الإشارات نستطيع أن نبين الكثير من علاقة أحمد بـن بـرد بالـسلطة، الـذي ارتبط بها وعاش في ظلها في قرطبة، بل نرجح أيضًا أنـه كـان ضـمن المفكـرين الـذين أيـدوا الخلافـة الأموية، وبايعوها، وسعوا إلى وجودها في الأندلس.

ولما شهدت قرطبة الفتنة البربرية التي عصفت بها رحل عنها مفكرنـا، فكانـت وجهتـه أولاً مجاهد صاحب دانية وليست المرية كما أشار ابن سعيد في كتابـه المغـرب[2]، وذلـك لأن فـترة حكـم مجاهد سبقت حكم أبي الأحوص معن ، فقد حكم مجاهد في الفترة من 400-436هـ/1009-1044م، أما أبو الأحوص معن بن صمادح استطاع تولي حكم المرية بعد خلع حاكمها 433هــ/1041م، وبنـاءً على ذلك فإننا نؤكد على أن وجهة مفكرنا بعد الخروج من قرطبة كانت إلى دانية وحاكمها مجاهـد راعي العلم والثقافة[3].

وفي دانية ارتبط أحمد بن برد بمجاهد حاكمها، وفي محاولة منه للإصلاح والتجديـد، رفـع رسـالته الـشهيرة الـسيف والقلـم في محاولـة لتوضـيح الفـرق بـين القلـم رمـز الأدب والفكر والثقافة والوحي، والسيف رمز الحرب والقوة والـصراع والفتنـة والتفـرق، فقـد أراد ابن برد بتلك الرسالة وبغيرها من رسائل أن يوجه كلمات وخطابات قويـة لملـوك الطوائـف الذين كانت تتغلب عليهم الأهواء وتطيح بهم الفتن، ويسعى كـل واحـد مـنهم إلى توطيـد ملكـه بعيـدًا عـن المـصلحة العامـة، ومـن هنـا تحركـت الكلمـة المـؤثرة، ونـادى الكتـاب

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص190.

(2) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص91.

(3) ابن الأثير، الكامل، ج7، ص293؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص168، 192، 293.

والأدباء ودعاهم إلى تسخير أقلامهم وأفكارهم في الدعوة إلى نبذ الخلاف، وحقن الدماء، فسعى بعضهم إلى توجيه أدبهم إلى هؤلاء الملوك المنقسمين، يقدمون لهم المشورة والنصيحة كما فعل ابن برد الذي كتب رسائل تحتوي على فصول تتناول الأمان والاستقرار، ونبذ الخلاف، وأشار إلى أن هذا لن يتحقق إلا بعد التقرب إلى اللـه، والبعد عن سخطه وغضبه، كما طالب من بعض عقلاء المسلمين أن يتدخلوا بالإصلاح بين الملوك وتحذيرهم من سفك الدماء، وما يترتب عليه من تأريث نار الشحناء، وتفويت الفرص على الحاقدين الذين يسعون إلى إشعال نار الحرب بين المسلمين(1).

لعب ابن برد دورًا كبيرًا في توجيه الكثير من رسائل الإصلاح والتجديد والتشجيع على نبذ العنف والحرب، وما لبث ابن برد أن رحل عن دانية، ومن المرجح أن سبب ذلك الرحيل كان لرفضه سياسة مجاهد التوسعية والحربية، الأمر الذي رفضه ابن برد، فعاد إلى قرطبة، وعاش فترة في ظل دولة بني جهور إلا أنه سرعان ما رحل إلى المرية تاركًا قرطبة مرة أخرى، وفي تلك المرة لجأ إلى أبي الأحوص معن بن محمد بن صمادح الذي سيطر على الأمر في المرية، فعاش في كنفه وتحت حمايته.

ارتبط ابن برد بحاكم المرية أبي الأحوص معن بن محمد بن صمادح، حيث قام ابن برد بتأليف كتابه، (سر الأدب وسبك الذهب) ، وأهداه إليه وأشاد فيه بموقفه تجاه الأدباء والمفكرين الذين كان يشجعهم من حين لآخر(2).

وبعد وفاة أبي الأحوص معن بن صمادح، تولى أبو يحيى محمد بن معن الإمارة بالمرية بعد وفاة أبيه، وتلقب بالمعتصم باللـه، الواثق بفضل اللـه،

---

(1) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص207-208؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص494-526؛ محمد مصطفى هدارة، في البلاغة العربية- علم البيان، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية، بيروت، 1989م، ص78.
(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص488-491.

في سنة 446هـ/1054م[1]، وذكروا أيضًا أنه تلقب بالرشيد[2]، ويعتبر عصر المعتصم أكثر عصور المرية وضوحًا وازدهارًا، فقد تألقت فيها العلوم والفنون، وبلغت حضارة المرية ذروة التقدم والسمو على الرغم من قلة موارده وصغر مملكته[3]، ولاهتمام المعتصم بن صمادح بالعلم والعلماء، نجد ابن برد ارتبط به وتعلق به، فعين في عهده وزيرًا له[4]، ويرجع استقرار ابن برد في المرية وعدم خروجه عنها، هو اهتمام حاكمها المعتصم بالمفكرين والأدباء، وإنفاقه الكثير من أمواله عليهم، وتقريبه المميزين منهم إليه[5].

استقر أحمد بن برد في المرية إلى وفاته بعد سنة 440هـ/1048م، غير أن ابن حزم يؤكد لنا أن وفاته كانت في سنة 445هـ/1053-1054م في حياة والده[6].

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص168؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة الأسطول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1979م، ص74.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص174؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص190.

(3) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1، ص48.

(4) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص91.

(5) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص293؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص168؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص190؛ سالم، تاريخ مدينة المرية، ص74-75.

(6) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم192، ص169؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم355، ص207.

الفصل السابع

ابن زيدون

سفير ملوك الطوائف

الفصل السابع

ابن زيدون سفير ملوك الطوائف

أولاً: مولده وموطنه

أبو الوليد أحمد بن عبد اللـه المخزومي المشهور بابن زيدون؛ ولد بالرصافة من ضواحي قرطبة سنة 394هـ/1003م، فهو ينحدر من بني مخزوم، وهم بطن من لؤي بن غالب، أي أنه قريشي الأصل، وكان لأسرته شأن في قرطبة، فكان أبوه من وجهاء قرطبة وأغنيائها وفقهائها، فأحضر له الأدباء والمربين، مما ساعد على أن ينشأ في بيئة مثقفة، ولما مات والده كان في الحادية عشرة من عمره، فاهتم به جدُّه لأمه، فتثقف ثقافة حسنة ونظم الشعر باكرًا؛ وإذا ما لاحظنا مولد ابن زيدون نجد أنه كان في خلافة هشام الثاني، وهو هشام بن الحكم[1]، الذي خضع لنفوذ العامريين وحكمهم، وعاصر الفتنة فشهد الصراع بين الأمويين على الحكم، وبين الأمويين والعامريين وبين العرب والبربر، ولما قتل آخر خليفة أموي اجتمع وجهاء قرطبة وأقاموا حكومة الجماعة الأرستقراطية وعلى رأسها أبو الحزم بن جهور[2].

---

(1) يكنى أبو الوليد، أمه أم ولد اسمها صبح، تولى الخلافة وعمره أقل من إحدى عشرة سنة، وحجب له جعفر المصحفي 366هـ / 976م، ثم ابن أبي عامر 367-392هـ / 977- 1001م؛ (انظر: ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، حققه د. بشار عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م، ج1، ص31؛ ابن حزم، رسائل، ج2، ص196؛ الحميدي، جذوة المقتبس، ص36؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص249؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص396).

(2) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم225، ص188؛ ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1، ص209؛ الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص48؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم427، ص233؛ ابن دحية، المطرب، ص164؛ المراكشي، المعجب، ص97؛ ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص207؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص139؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص63؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الحادية عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م، ج18، ص240؛ الصفدي، الوافي، ج7، ص87؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ، ج3، ص312؛ عناني، تاريخ الأدب، ص97.

ثانيًا: نشأة ابن زيدون العلمية والسياسية

ساعدت نشأة ابن زيدون العلمية، والأجواء الثقافية التي أحاطت به على علو نجمه في سماء الأندلس، ليس كمفكر فحسب، وإنما كشخصية مثقفة مؤثرة في المجتمع بشكل كبير، كما أن الظروف المحيطة به أجبرته على أن يخوض غمار السياسة بكل جوارحه، فقد كان أبوه قاضيًا أو مستشارًا للقاضي بقرطبة، وللقضاة في ذلك العهد منزلة عالية، بحكم اتصالهم بالسلطان، وأنهم أصحاب الكلمة المسموعة عندهم وعند العامة على السواء، كما أن الرجل الذي تولى أمره بعد وفاة والده، وهو جده لأمه، كان يتولى أحكام الشرطة والسوق، وقد قتل على يد بني أمية، ولذلك يغلب على الظن أن يكون قتله سياسيًا، وأن يكون ذلك قد حرك في نفس ابن زيدون عوامل السياسة[1].

كان ابن زيدون ذكيًا، أبيًا، حكيمًا، مجاملًا بعض الشيء، صبورًا، لماحًا، وعاش حياته كلها كريمًا على نفسه، وكان عارفًا بقيمة الإنسان الحقيقية في الحياة والممات، ولهذا كان حريصًا على واجبه، وعلى أخلاقه بعض الشيء، كما كان حريصًا بالقدر ذاته على صورته وعلى آثاره.

بدأ ابن زيدون حياته الوظيفية بالمشاركة الإيجابية في أحداث عصره، فكان ينتظره مستقبل مرموق في سلك السياسة، فهو منظم الفكر، قادر على الفهم والتخطيط والتسبيب والترتيب والإسناد والاستشهاد، فكان يدلي بدلوه في أحداث عصره، فلا يمكن لشاب بذكائه وطموحه أن يكون بمنأى عن الأحداث التي هزت قرطبة وأدت إلى اضطرابها، فاتصاله بأهل الرأي والعلم، وتردده على منتديات اللهو والثقافة التي يقبل عليها علية

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص337-338؛ ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص207؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ص139-140؛ عبد الرحمن حسين محمد، ابن زيدون، حياته وأدبه، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، أسيوط، 1984م، العدد4، ص171.

القوم، فكان تحاكى فيها المؤامرات، بالإضافة إلى كثرة الخلفاء الذين تولوا السلطة، قد جعل ابن زيدون حساسًا لكل هذه الأحداث ومشاركًا فيها[1].

ثالثًا: ابن زيدون ما بين الحب والسعايات

دخل ابن زيدون في منافسة غير متكافئة مع الوزير الخطير أبي عامر بن عبدوس الملقّب بالفار، وزير بني جهور في قرطبة[2]، الذي راح ينسج خيوطه حول قلب محبوبة ابن زيدون، ولادة بنت المستكفي[3]، التي اشتهرت في قرطبة بمنتداها الثقافي والفكري، فكان ملتقى للكثير من الأمراء والشعراء والأدباء، وكان ابن زيدون يتردد على منتداها الثقافي، وقد

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص430.

(2) أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور، تولى أسلافه من الجهاورة الحجابة والوزارة والقيادة والكتابة إلى وقوع الفتنة، ولما لم يكن بمقدور خلفاء بني أمية إدارة الحكم في قرطبة صار إليه تدبير أمر قرطبة بعد خلع هشام بن محمد. وساس دفة الحكم من مقر سكناه، ولم يتحول إلى قصور الخلافة وتميَّز بالرجاحة والدهاء، وذكر ابن حيان بعض تدابيره في السياسة قال "متى سئل قال: ليس لي عطاء ولا منع هو للجماعة وأنا أمنيهم. وإذا رابه أمر عظيم أو عزم على تدبير، أحضرهم وشاورهم"، شهدت قرطبة في عهده استقراراً وأمنًا، وجنَّب قرطبة من كان يطلبها من أمراء البرابرة؛ (انظر: الحميدي، جذوة المقتبس، ص185؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص189-190).

(3) هي ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن ناصر الملقب بالمستكفي الخليفة الأموي الذي تولى قبل المعتد بالله آخر خلفاء بني أمية، وقد حكم لمدة قصيرة من عام 414هـ/1023م حتى عام 416ه/1025م، ويقال أنه كان خليعًا ماجنًا لم يحسن الحكم وأغضب أهل المشورة والرأي في قرطبة فثاروا عليه، فخرج هاربًا متخفيًا في زي امرأة حيث دس له السم فمات في منفاه، وقد ترك وراءه ولادة، وهي بنت لقيتة حبشية، ظلت طول عمرها دون زواج، وكشفت عن نفسها الحجاب، ولم تتصون كالحرائر، ويبدو أنها كانت على جانب كبير من الجمال، كما أنها كانت شاعرة تقول الشعر وتساجل الشعراء وتجالس الكتاب، وكان بيتها منتدى لوجهاء قرطبة وأدبائها، فقد قال عنها ابن بسام في الذخيرة:"أنها كانت واحدة أقرانها يتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، وكان مجلسها في قرطبة منتدى لأمراء المصر، ولعله لم يتبذل حجابها إلا بعد وفاة أبيها"؛ (انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص429؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، رقم1552، ص996؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، ص733، رقم1602).

فتن بها وتعلق بها أشد التعلق، ووصفها بأن الـلـه خلقهـا مـن فـضة صـافية وتـوج رأسـها بالـذهب الخالص:

رَبِيــبُ مُلــكٍ، كَــأنّ اللـــه أنْــشَأهُ   مِــسكًا، وَقَــدّرَ إنــشاءَ الــوَرَى طِينَــا[1]

أوْ صَــاغَهُ وَرِقًــا مَحْــضًا، وَتَوّجَــهُ   مِــنْ نَاصِــعِ التّــبرِ إبْــداعًا وتَحــسِينَا[2]

وقد بادلته ولادة في أول الأمر حبًا بحب وكانت لهما لقـاءات تبـادلا فيهـا الحـب والقـرب، حيث عشقها وجرت له معها أخبار مـشهورة، فكانـت ولادة تداعبـه بهجائهـا أو تـضرب لـه موعـدًا كقولها:

ترقَّـــبْ إذا جَـــنَّ الظّـــلامُ زيـــارتي   فـــإني رأيـــتُ الليـــلَ أكـــتمَ للـــسرِّ

وبي منــكَ مــا لــو كــان بالبــدرِ مــا بــدا   وبالليــلِ مــا أدجــى وبــالنجم لم يــسرِ[3]

غير أن الألفة بينهما تبدلت، فحصلت جفوة سببها أن الشاعر سمع جارية ولادة تغني، ولما فرغت سألها بغير أمر ولادة التي عاتبت جاريتها، وكانت تدعى (عتبى) وضربتها، وفي ذلك يقول ابن زيدون:

---

(1) يقصد أن ولادة تربت تربية الملوك، وكأن الـلـه كونها من مسك وسـائر النـاس مـن طـين. (انظـر: ابـن زيـدون، ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق كرم البستاني، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، 1975م، ص300).

(2) يقصد أن الـلـه صاغها من الفضة الخالصة، وتوجها بالذهب زيادة في الإبـداع والتجميـل؛ (انظـر: ابـن زيـدون، ديوان، ص300).

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص430.

وَمَــا ضَرَبَــتْ عُتْبَــى[1] لــذَنْبٍ أتَــتْ بِــهِ ... وَلَكِـــــــــــنّمَا وَلادَةْ تَـــــــــــــشْتَهِي ضَرْبِي

فَقَامَـــتْ تَجُـــرّ الـــذّيْلَ عَـــاثِرَةً[2] بِـــهِ ... وَتَمْـــسَحُ طَـــلَّ[3] الـــدّمعِ بِـــالعَنَمِ[4] الرَّطـــبِ[5]

ثم انتظر اليوم التالي، فكتبت له:

لـــو كُنْـــتَ تُنـــصفُ في المـــودَّة بيننـــا ... لم تَهْـــــــوَ جـــــــاريتي ولم تتَخـــــــيَّرِ

وتركـــــتَ غُـــصْنًا مُثمِـــرًا بجمالِـــهِ ... وجَنَحْـــتَ للغُـــصنِ الـــذي لم يُثمِـــرِ

ولقـــد عَلِمْـــتَ بـــأنني بـــدرُ الـــسما ... لكـــنْ ذُهبـــتَ لـــشِقوتي بالمُـــشتري[6]

وكان الوزير أبو عامر بن عبدوس، ينافس ابن زيدون على قلب ولادة، فاغتنم الجفوة وراح يتودد إليها، مما جعل الغيرة تدبّ إلى قلب الشاعر ابن زيدون، وبعدما تصالح الحبيبان أرسل الوزير ابن عبدوس امرأة إلى ولادة تستميلها إليه، فبلغ ابن زيدون، فكتب عـن لـسانها رسـالة مـشهورة في هجو الوزير أبو عامر بن عبدوس والتهكم به، والسخرية منه، الأمـر الـذي ربمـا أغـضب ولادة منـه، فقد وقعت القطيعة بينهما، وفضلت ولادة عليه الوزير أبا عامر بن عبدوس الـذي يتوعـده الـشاعر قائلًا:

---

(1) اسم جارية ولادة.

(2) أي متعثرة.

(3) أي ندى.

(4) أي الأنامل.

(5) أي الطرية؛ (انظر: ابن زيدون، ديوان، ص51؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص431).

(6) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص431-432.

حَـــــذَارِ حَـــــذَارِ، فَـــــإنّ الكَـــــرِيمَ، إذا سِـــــيمَ خَـــــسفًا[3]، أبَى، فــــامتَعَضْ[4]

فَـــإنّ سُـــكُونَ الـــشّجاعِ[1] النَّهُـــوسِ[2]، لَـــــــيْسَ بِمَانِعِـــــــهِ أنْ يَعَـــــــضّ[5]

ولم يكن سبب الجفوة بين ولادة وابن زيدون ذلك فحسب، بل فيما يبدو أن من ضمن أسباب القطيعة، هو سوء معاملته لها، فقد ذكر في شعره أنه ضربها، كما أنه شهر بها، وفضحها في شعره[6].

طعن ابن زيدون في قلبه حينما فضلت ولادة الوزير أبا عامر بن عبدوس عليه، وجفته وصمت أذنيها عن سماعه، وهو الأمر فيما يبدو الذي دفعه إلى البحث عن منصب في بلاط السلطة، واللحاق بركبها، ليكون ندًا للوزير أبي عامر بن عبدوس، ويثبت لولادة بأنه ليس بأقل منه.

اتصل ابن زيدون بأبي الحزم وعمل له، ولكن من الأرجح ألا يكون ابن زيدون في بداية حكم بني جهور في قرطبة، قد احتل مكانًا ممتازًا في عالم السياسة وأغلب الظن أنه لم يكن سوى شاعر شاب يتمتع بسمعة أدبية واسعة، ولكنه لم يكن رجلًا من رجال السلطة، فهو لم يكن قد جاوز الثلاثين عندما تولى أبو الحزم بن جهور السلطة، مما يجعل من الصعب أن يرتقي سلم المناصب العليا في دولة ناشئة مثل دولة بني جهور، وهو في سن مبكر، وأيًا ما كان الأمر فإن أبا الحزم سرعان ما غضب على الشاعر وألقى به في

(1) أي الذكر من الحيات.
(2) أي العضوض بمعنى العض.
(3) سامه الخسف أي أهانه.
(4) أي تذمر وغضب.
(5) ابن زيدون، ديوان، ص147؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص208-209.
(6) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص430-432.

السجن الذي ظل بين جدرانه قرابة عامين، ولم ينقذه سوى الهروب فيما يبدو[1].

وقد ثار الجدل حول أسباب سجن ابن زيدون، وأكثر الأقوال على أنه قام بمؤامرة ضد بني جهور هو وجماعة من المتآمرين لإعادة حكم بني أمية، ذلك لأن الشاعر ابن زيدون كان يطمع أن يحصل على منصب ذي شأن في دولة بني جهور، فلما لم يعيروه التفاتًا تآمر عليهم، ولكن المؤامرات فشلت، فقبض عليه وأودع السجن، وهذا الرأي قائم على أن ابن زيدون كان في ذلك الوقت شخصية سياسية خطيرة تؤثر في الأحداث[2]، وعلى ما يبدو أن هذا من الاتهامات التي وجهت لابن زيدون، ونعتقد أن السبب وراء هذا هو الوزير ابن عبدوس، فاتهم ابن زيدون بالتحزب للأمويين، وكان هذا الاتهام باطلًا، دبره له الوزير ابن عبدوس منافسه في حب ولادة لكي يبعده عنها، فلم يكن ابن زيدون متحزبًا للأمويين، وإنما كان منضمًا لحركة الجهاورة[3].

ويذكر البعض سببًا آخر نميل له، وهو أن تهتك ابن زيدون ومجونه وتسلطه على أعراض الناس وعلاقته الشائعة بولادة، كان سببًا في إساءة سمعته الخُلقية ؛ مما أدى إلى غضب الحكام، فألقوا به في السجن[4].

على أن ابن زيدون نفسه يوضح لنا من خلال رسائله أنه حوكم بسبب إرث اتهم باغتصابه بعد وفاة صاحبه، ورغم أنه برأ ساحته من تلك التهمة إلا أن القاضي المعروف عبد اللـه بن أحمد بن المكوي[5] لم يصغ إليه، وأدانه

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص338-339؛ ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص207-208.

(2) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1، ص209-211.

(3) الركابي، في الأدب الأندلسي، ص176.

(4) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم 225، ص188-189؛ الضبي، بغية الملتمس، ج1، رقم427، ص233.

(5) هو أبو محمد عبد اللـه بن أحمد بن عبد الملك بن هشام بن المكوي القرطبي، كان أبوه أبو عمر أحمد بن عبد الملك مولى بني أمية، وكان من أفقه أهل زمانه وأحفظهم لمذهب مالك، وعظم قدره بالأندلس وصار معتمدًا لجميع قضاتها وحكامها فيما اختلفوا فيه، توفي في بداية الفتنة البربرية 401ه/1010-1011م؛ أما ابنه أبو محمد عبد اللـه بن المكوي فقد استقضاه أبو الحزم بن جهور 432ه/1041م، ولم يكن من القضاء في ورد ولا صدر لقلة علمه؛ ثم صرفه أبو الوليد بن جهور، وبقي خاملًا حتى أدركته منيته 448ه/1056م؛ (انظر: عياض، ترتيب المدارك، ج7، ص131-132؛ ابن بشكوال، الصلة، ج2، رقم612، ص422؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص160).

وأودعه السجن وذلك لضغينة بين الشاعر والقاضي المذكور، فيبقى الشاعر في السجن أيام طويلة، وظل يناشد ابن جهور ويستعطفه أن يعفو فلا يعفو[1].

وعلى الأرجح أن سبب ذلك الاتهام كان له دوافع سياسية مبطنة، وحسد وغيرة لابن زيدون، فمن الواضح أن وراء ذلك التحريض الوزير ابن عبدوس الذي حرض القاضي ابن المكوي لإلصاق الاتهام بابن زيدون والزج به في السجن، وهو ما وقع لابن زيدون، حيث أراد الوزير ابن عبدوس التخلص من منافسة اللدود ابن زيدون ؛ لينفرد وحده بقلب ولادة، كما كان في علو مكانة ابن زيدون الأدبية والسياسية دافع قوي ليقوم الوزير ابن عبدوس بتلك الوشايات للتخلص من ابن زيدون.

ومهما يكن من أمر فسجن الشاعر كان نتيجة لما حاكه حساده حوله من مؤامرات، وكان في طليعة هؤلاء الحساد منافسه للوزير ابن عبدوس، فاستطاع أن يوغر صدر الأمير ابن جهور عليه، وقد يكون هؤلاء الحساد قد أثاروا أيضًا ضده قضية حبه لولادة[2].

ومن السجن أرسل ابن زيدون رسالته إلى ابن جهور ليستعطفه فيها، كما أرسل له عدة قصائد مؤثرة يطلب فيها عفوه ويناشده الصفح والعفو، منها قصيدته التي بدأها بقوله:

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص338؛ ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص207-208.

(2) الركابي، في الأدب الأندلسي، ص176.

الهَـــوَى فِي طُلُـــوعِ تِلْـــكَ النّجُـــومِ   وَالمُنَـــــى فِي هُبُـــوبِ ذاكَ النّـــــسِيمِ

سَرّنَـــا عَيْـــشُنَا الرّقِيـــقُ الحَـــوَاشِي   لَـــوْ يَـــدُومُ الـــسّرُورُ للمُـــسْتِديمِ[1]

وفيها يشكو من طول بقائه في السجن، حيث مضى فيه خمسمائة يوم، وهو يمدح فيها الوزير ابن جهور فقال:

أيّهَـــا ذا الـــوَزِيرُ! هَـــا أنَـــا أشْـــكُو   وَالعَـــصَا بَـــدْءُ قَرْعِهَـــا للحَلِـــيمِ[3]

مَـــا عَنَانَـــا أنْ يـــأنَفَ الـــسّابِقُ[2] المَـــرْبطَ   فِي العِتْـــقِ[4] مِنْـــهُ وَالتّطْهِـــيمِ[5]

وَبَقَـــاءُ الحُـــسَامِ فِي الجَفـــنِ يَثْنـــي   سِـــنْهُ، بَعـــدَ المَـــضَاء،، وَالتّـــصْمِيمِ

أفَـــصَبْرٌ مِئِـــينَ خَمْـــسًا مِـــنَ الأيّـــامِ،   ناهيـــك مـــن عـــذاب ألـــيم![6]

ظل ابن زيدون يرسل رسائل المدح إلى أبي الحزم بن جهور طمعًا أن ينال العفو، وأملًا أن ينصت له ابن جهور فقال:"وليت شعري ما الذنب الذي أذنبتُ، ولم يَسَعْهُ العفو؟، ولا أخلو من أن أكون بريئًا، فأين العدل؟، أو مسيئًا فأين الفضل؟...."[7].

---

(1) ابن زيدون، ديوان، ص280.

(2) أي الجواد.

(3) أي أن الشكوى تنبيه للحليم كي يستدرك.

(4) أي الأصالة.

(5) أي تمام الحسن.

(6) ابن زيدون، ديوان، ص280.

(7) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص340؛ ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص208-209.

قدم ابن زيدون الكثير من قصائد المدح والاعتذار، ولكنه لم يجد من ابن جهور إلا أذنًا صماء، وضاعت توسلاته سدى وعندما لم يعف عنه هجا أبو الحزم ابن جهور، حيث فقد الأمل في الصفح والعفو عنه، فقال:

قُلْ للوَزِيرِ، وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ زَمَنِي، فَكَانَ السّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي[2]

لَا تَخْشَ فِي حَقّي بِمَا أمْضَيتَهُ مِنْ ذَاكَ فِيّ، وَلَا تَوَقّ عِتَابِي[3]

لَمْ تُخْطِ فِي أمْرِي الصّوَابَ مُوَفَّقًا[1]؛ هَذَا جَزَاءُ الشّاعِرِ الكَذّابِ![4]

وجد ابن زيدون جميع الطرق أمامه مقفلة لينال الشفاعة والعفو من أبي الحزم بن جهور، وأصبح أمامه طريق واحد يفكر فيه، وهو الهروب من سجنه، ففر من السجن، ويقال أن أبا الوليد بن أبي الحزم بن جهور هو الذي ساعده على الفرار لصداقة بينهما، وأن أبا الوليد حاول أن يشفع له عنده والده إلا أنه رفض شفاعته، ويفر الشاعر سنة 433هـ/1041م[5].

وعلى الرغم من أن المصادر لم تشر إلى تفاصيل عن هرب ابن زيدون من محبسه، وهو ما جعل بعض المؤرخين يشيرون إلى أن ابن زيدون نال العفو، وأطلق سراحه قبل القدوم على الهرب، والبعض الآخر ذهب إلى أن ابن زيدون هرب وتوجه إلى إشبيلية، حيث التحق بالمعتضد، إلا أننا نميل إلى أن ابن زيدون هرب من محبسه، وأسرع بالخروج من قرطبة، ولكن لم يتوجه إلى إشبيلية، ولكن توجه إلى غرناطة، حيث التحق بباديس، وما يؤكد

---

(1) أي لم تخطىء في أمري بل أصبت ووفقت، وهذا جزاء الشاعر الكذاب.

(2) أي مكافأتي.

(3) أي لا تخف مما فعلته بي ولا تتجنب عتابي.

(4) ابن زيدون، ديوان، ص49.

(5) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص338-421.

ذلك أنه ألف قصيدة من الشعر يمدح فيها أبا الحزم بن جهور ويشكر باديس صاحب غرناطة، فقال:

فِــداءٌ، لِبــادِيسَ، النّفُــوسُ، وجــاده مــن الــشّكرِ، في أُفْــقِ الوَفــاء، غَــمامُ

فَــمَا لحقَــتْ، تلــكَ العهــودَ، مَلامَــةٌ وَلاذُمّ، مــن ذاكَ الحِفَــاظِ[1]، ذِمــامُ[2]

ولكن ابن زيدون كان قلبه معلقًا بقرطبة موطن صباه ومرتع هواه، ومنها يرسل إلى ولادة قصيدته النونية -التي أشرنا إليها من قبل- فلم يطق صبرًا على غربته وعاد إلى قرطبة، واستخفى بضاحيتها الزهراء وأخذ يتشفع بأصدقائي ليشفعوا له عند أبي الحزم بن جهور، فكتب إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم رسالة رائعة ليعاتبه فيها على أنه لم يشفع له، ولم يعمل على إخراجه من السجن، ويبرر هروبه من السجن بأنه قد يئس من العفو عنه[3]، ومع هذه الرسالة أرسل قصيدة يقول فيها:

شَــحَطنا وَمَــا بالــدّارِ نــأيٌ وَلا شَــحْطُ وَشَــطّ[4] بِمَــنْ نَهــوَى المَــزَارُ وَمَــا شــطّوا[5]

أأحبابَنــــا! ألْــــوَتْ بِحَــــادِثِ عَهْــــدِنَا حَــــوَادِثُ، لا عَقــــدٌ[6] عَلَيْهَــــا وَلا شَرْطُ[7]

(1) أي العهد.

(2) ابن زيدون، ديوان، ص289.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص355.

(4) أي بعدت.

(5) ويقصد أنه على قربه من دار ولادة لا يستطيع أن يلقاها.

(6) أي عهد.

(7) ابن زيدون، ديوان، ص155.

وفيها يقول مخاطبًا أستاذه أبا بكر:

عَلَيْـــكَ أبـــا بَكْـــرٍ بَكَـــرْتُ بِهِمّـــةٍ، لهـــا الخَطْـــرُ العـــالي، وَإنْ نالهَـــا حَـــطّ[2]

أبي[1]، بَعـــدَما هِيـــلَ الـــتّرابُ عـــلى أبي، وَرَهطِـــيَ فَـــذّاً، حِـــينَ لم يَبـــقَ لي رَهْـــطُ[3]

لَـــكَ النّعمـــةُ الخـــضراء، تَنـــدى ظلالُهـــا عـــليّ، وَلا جَحـــدٌ[4] لـــدَيّ وَلا غَمْـــطُ[5]

وعلى ما يبدو أن أبا بكر بن مسلم تدخل وطلب العفو عـن ابـن زيـدون، كـما تـدخل أبـو الوليد بن أبي الحزم بن جهور وطلب من والده نفس الطلب مرة أخرى، وهو العفو عن ابن زيدون، وأمام تلك الشفاعات والوساطات لم يستطع أبو الحزم رفض الأمر، فعفا عن ابن زيدون بعـد أن لان قلبه له، ولكن لم يلبث أبو الحزم بن جهور أن مات سنة 435هـ/1043م، ويرثيه ابن زيدون بأبيـات من الشعر، ويمدح ابنه أبا الوليد بن جهور، فيقول:

ألم تـــر أنَّ الـــشمس قـــد ضَـــمّها القَـــبْرُ وأن قـــد كفانـــا فقـــدها القمـــرُ البـــدرُ[6]

وبتولية أبي الوليد زمام الأمور في قرطبة يبدأ عهد جديد، وصـفحة جديـدة لابـن زيـدون في قرطبة، فترتفع مكانته ومرتبته السياسية والأدبية ؛ ليحقق ما كان يحلم به ويسعى إليه.

---

(1) أي صاحب إباء وعنفوان.

(2) أي القيمة الكبيرة والتي لها شأن انحطاط.

(3) أي أبناء قومي.

(4) أي إنكار.

(5) أي إنكار النعمة ؛ (انظر: ابن زيدون، ديوان، ص156-157).

(6) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص392.

رابعًا: ابن زيدون سفير ملوك الطوائف

لم ينسَ أبو الوليد بن جهور صديقه ابن زيدون، ورغبته في الوزارة، فيوليه النظر على أهل الذمة، ولكن ابن زيدون مع هذا آثر أن يرتاد آفاق العمل الدبلوماسي، فيرفعه أبو الوليد بن جهور إلى مرتبة السفارة، فكان سفير له إلى ملوك وأمراء دول الطوائف، نظرًا لما تمتع به من قدرات فكرية وأدبية عالية، أضف إلى ذلك أسلوبه الدبلوماسي الراقي، جعل منه رمزًا مشرفًا للتمثيل الدبلوماسي لقرطبة في تلك الأثناء[1].

صعد نجم ابن زيدون كما لم يصعد نجم آخر في الحياة القرطبية بشكل خاص، والحياة الأندلسية بوجه عام، فتوثقت علاقاته بعدد كبير من ملوك وأمراء الطوائف بحكم منصبه الدبلوماسي، فأحبه الكثير منهم[2]، لما كان يتمتع به من الكفاءة والطموح وثقة سلطة قرطبة فيه، فمع أن تجربة السجن التي مر بها وفقدان الحرية كانت جديدة عليه، وكانت قاسية عليه، إلا أنه استطاع أن يجتاز هذه التجربة كما يجتاز الإنسان السوي محنة المرض، ومحنة الألم، وخرج من هذه التجربة، وقد ارتقت مكانته ونفوذه لأبعد مما كان يتخيل أو يتصور.

وإذا ما نظرنا إلى الدور الذي كان يلعبه ابن زيدون في سفارته التي لاقى فيها نجاحًا عظيمًا، نجد أن دوره تمثل في إقامة علاقات ودية مع الملوك المجاورين، وعقد اتفاقات مودة مع الكثير منهم، فقد تمتعت دولة بني جهور بين دول الطوائف وأمرائها بمركز أدبي خاص، فكانت في أحيان كثيرة تتخذ مركز الوسيط والحكم في فض المنازعات وإقرار السلم بين

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص337، 421.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص337.

الأمراء[1]، فكان لابن زيدون دور كبير وفضل عظيم فيما وصلت إليه الدولة من زعامة وتمثيل دبلوماسي راقٍ.

كان ابن زيدون واحدًا من أفضل الدبلوماسيين الأندلسيين، كما كان واحدًا من أفضل مفكري العصر كذلك، ظل على نحو ما عاش حياته كلها متفانيًا في أداء رسالته، إذ كان يؤمن أن الدبلوماسية رسالة في المقام الأول والأخير، فنجح في منصبه كسفير للسلطة في قرطبة إلى ملوك وأمراء الطوائف في الأندلس، فكان منفذًا كل ما يطلب له، كما كان أداؤه على درجة كبيرة من الرقي والوعي، فيقول ابن بسام: "وغلب على قلوب الملوك"[2].

أصبح ابن زيدون في بلاط بني جهور هو المسئول الأول والوحيد عن علاقات السلطة الخارجية، فلم ينافسه شخص في ذلك، حيث امتلك صفات وقدرات لم تتوافر في الكثير من مفكري وأدباء عصره، فرسائله وتمثيله الدبلوماسي للسلطة لاقى إعجاب الكثير من ملوك وأمراء الطوائف[3]، فمن بعده أصبح مفكرو الدبلوماسية شيئًا آخر غير هذا الفكر المتدفق في كل لقطة، وفي كل جملة، وفي كل مقطع، وقد أدرك ابن زيدون أعلام الجيل السابق على جيله في الفكر والثقافة والأدب، ووضع رأسه برأسهم، فكان له ما أراد، كما قدر له أن يعيش رمزًا للتجديد الدبلوماسي الذي كان عصره قد انتهى، وللتعبير المجيد عن المشاعر الرقيقة والنادرة، والتي ظهرت بشكل واضح في رسائله الدبلوماسية والسياسية.

وفي هذه الفترة يتغنى ابن زيدون بأبي الوليد، ويقول فيه المدائح ما يظهر فيه رنة الإخلاص، ويشيع فيها نبضات الحب، على أن الأمر يفتر بين

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص213؛ محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الثاني)، الطبعة الرابعة، مطبعة المدني، القاهرة، 1997م، ج2، ص29.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص337.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص337.

ابن زيدون وأبي الوليد بن جهور عندما تقوم طائفة من بني ذكوان[1]، وهـم أسرة أسـتاذه ومعلمـه أبي ذكوان بمحاولة الاستيلاء على السلطان بقرطبة، وقد أحاطت الشبهة بابن زيدون، ولذا نراه يحاول أن ينفي عنه هذه التهمة، وكأنه يخشى غضب الأمير[2].

كانت النخبة المثقفة فيما يبدو المحيطة بأبي الوليد بن جهور تدرك أنه يحـترم ابـن زيـدون ويحبه، كما أن علاقة الصداقة بينهما، زادت من الترابط بين ابن زيدون، وأبي الوليد بن جهور، غير أن ذلك لم يمنعهم السعاية به، وإيغار صدر السلطة عليه، فحاولوا أن يستغلوا أي حادث ليقحمـوا فيـه اسم ابن زيدون، فربمـا كـانوا وراء اتهامـه بتـدبير مـؤامرة مـع مجموعـة مـن بنـي ذكـوان للإطاحـة بالسلطة، غير أن أبا الوليد لم يلتفت إلى ذلك الاتهـام، إلا أن قلبـه تغـير عليـه، ومودتـه لـه أصـيبت بالجفاء، إلا أنه لم يعزله من منصبه كسفير دبلوماسي لدولتـه في قرطبـة، فربمـا ظـل ابـن زيـدون في منصبه بحكم أنه كان من الصعب أن يتم تغييره في التو واللحظة.

---

(1) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد اللـه بن هرثمة بن ذكوان، تـولى القـضاء في عهـد أبـو الحـزم بـن جهـور، فحمدت سيرته، واشتهر بالذكاء والفهم، وكان من أهل العلم، توفي سنة 435هـ/1043م، وأبوه هـو أحمـد بـن عبد اللـه بن هرثمة بن ذكوان بن عبيدوس بن ذكوان ، ولَّاه القضاءَ المنصور بـن أبي عـامر (392هــ/ 1002م) وكان من خاصته، يلازمه في رحلاته وغزواته، ومحله منه فوق محل الوزراء، يفاوضه المنـصور في تـدبير الملـك، وفي سائر شئونه، وكذلك كان حاله مـع ولديـه المظفـر والمـأمون بعـده، قـد تيمنـوا برأيـه، وعرفـوا النجـاح في مشورته؛ وكان له داخل القصر بيت خاص به، عُزل في أيام المظفر عن القـضاء، ثـم أعيـد، وتـوفي المظفـر فـزاد أخوه عبد الرحمن في رفع منزلته وولَّاه الـوزارة مجموعـة إلى قـضاء القـضاة؛ ولمـا انقرضـت دولـة بنـي عـامر وقامت الفتنة في قرطبة نُفي ابن ذكـوان وأهلـه إلى المريـة ثـم إلى وهـران بإفريقيـة، فـاعتزل النـاس؛ (انظـر: عياض، ترتيب المـدارك ، ج7، ص167-172؛ ابن سعيد، المغـرب، ج1، ص70، 156-157؛ ابـن بـشكوال، الـصلة، ج3، رقم1158، ص767-768؛ النباهي، تاريخ قضـاة الأندلس، ص88-89).

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص396، 422-423.

غير أن العلاقة ما لبثت أن فسدت وأصيبت بالتوتر والفتور بين ابن زيدون وبين أبي الوليد بن جهور نتيجة السعايات، وحسد الحساد الذين نجحوا في إثارة شكوك السلطة حول تصرفات ابن زيدون، وعلاقاته ببعض ملوك وأمراء الطوائف، وهو ما جعل السلطة تترقب وترتاب في أمر ابن زيدون، ولذلك انتظرت السلطة التوقيت المناسب لاتخاذ اللازم ضد ابن زيدون، فعندما أرسله أبو الوليد سفيرًا إلى إدريس بن علي الحسني[1] في مالقة، فيطيل الشاعر إقامته هناك، فعلى ما يبدو أن أبا الوليد بن جهور بدأ يتشكك في أمر ابن زيدون، فغضب عليه، ولم يكتفِ بذلك ، بل عزل عن السفارة ، الأمر الذي جعل ابن زيدون يتشكك فيما يمكن أن يحدث له على يد أبي الوليد بن جهور إن هو عاد إلى قرطبة، فيهرب ويولي وجهه تجاه بلنسية[2] ثم إلى طرطوس ومنها إلى بطليوس، فيلقى من أمرائها كل ترحيب وإجلال فيمدحهم[3] .

وعلى الرغم من الترحيب والتكريم الذي لقبه ابن زيدون من أمراء تلك المناطق التي أقام فيها إلا أن ذلك لم يرضَ طموحه ، فكان يتطلع إلى

---

(1) هو إدريس العالي الثاني بن يحيى بن علي بن حمود أخرجه أهالي مالقة من السجن، وبايعوه بالحكم وتسمى بالعالي 434هـ/1043م، كما بايع رؤساء البربر وزعماء مدينة مالقة الخليفة الجديد الذي اعترف به أيضًا أصحاب غرناطة وقرمونة الذين كانوا يحكمون الإقليم الواقع بين كلتي المدينتين، وكان رجلًا رحيمًا ومحسنًا، وقد كرس نفسه تقريبًا لعمل الخير مقسمًا النعم بين أصدقائه ومريديه، كما كان يجد عذرًا لخصومه، غير أنه تم خلعه سنة 438هـ/1046م؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ص216-217؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص164؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص208).

(2) بلنسية Valencia : مدينة مشهورة بالأندلس متصلة بحوزة كورة تدمير فهي شرقي تدمير، وشرقي قرطبة، وهي برية بحرية ذات أشجار وأنهار وتعرف بمدينة التراب؛ (انظر: الرشاطي، الأندلس، ص18، 28، 149؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص490).

(3) ابن زيدون، ديوان، ص256، 277، 283؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص338-339.

بلاط رحب وملك أوسع، فعزم على الرحيل إلى المعتضد بن عباد ملك إشبيلية الذي ذاع صيته ، واشتهر بحبه للأدب والأدباء[1].

خامسًا: ابن زيدون صانع الأسطورة في بلاط بني عباد

كتب ابن زيدون رسالة إلى الوزير الأديب أبي عامر محمد بن مسلمة وزير المعتضد بن عباد ، من أجل أن يتوسط لدى ولي أمره من أجل الحصول على وظيفة في بلاطه؛ وبالفعل نجحت وساطة ومساعي الوزير أبو عامر بن مسلمة، فرحل ابن زيدون إلى إشبيلية عام 341هـ/1046م، بعد أن تأكد أنه سوف يلقى منه كل ترحيب وإعزاز[2].

بقى ابن زيدون في بلاط بني عباد بعد ذلك حتى لحق بربه سنة 463هـ/1066م، وقد بلغ في هذه الفترة أعلى مراتب المجد السياسي والاجتماعي والفكري، ففتحت أمامه جميع الأبواب، فولاه المعتضد الوزارة، ولقب بذي الوزارتين، وقلده أمور دولته، وجعله من أقرب المقربين إليه، ودامت وزارته للمعتضد أكثر من عشرين عامًا، صار فيها موضع ثقته ومساعده الأيمن، فكان رجله الأول الذي يعتمد عليه كل الاعتماد[3].

كان المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ذا مزاج متناقض غريب، يجمع بين الدهاء والقسوة، وكانت له -إلى ذلك- ذاكرة واعية، وقريحة شاعرية طيبة جعلت معاصريه يضعونه في صفوف المبرزين من القراء، وأحاط المعتضد نفسه بهالة من الشعراء جعلت همها مدحه، وأفرغ عليهم الأموال، فبدا في هيأة خلابة من العظمة[4]، وكان من بين هؤلاء الشعراء ابن زيدون أبرز الذين صنعوا أسطورة المعتضد بن عباد.

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص339-340.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص339-403.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص338، 416؛ المراكشي، المعجب، ص98.

(4) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص73-74؛ بالنثيا، تاريخ الفكرالأندلسي، ص86-87.

الأسطورة في معناها اللغوي الأصلي هي الشيء المكتوب، لكن النـاس يتـصورون ويتـداولون في حديثهم أن الأسطورة هي الشيء الذي لا يصدقه العقل، فكانوا يقولون إن حكم المعتضد بقدراته المعروفة لإشبيلية كان أسـطورة، والحقيقـة أن المعتـضد لم يحكـم إشـبيلية بالمعتـضد وحـده ولكنـه حكمها بآخرين من المفكرين، وإذا كان المعتضد بمثابة أسطورة حكمت إشبيلية، فقد كان هناك مـن صنع هذه الأسطورة، وأكبر هؤلاء أثرًا هو ابن زيدون الذي لازم المعتـضد منـذ خروجـه مـن قرطبـة ودخوله إشبيلية، وحتى وفاته، وتولية ابنه المعتمد الحكم، فقد لازمه هو الآخر[1].

كان ابن زيدون رجلًا حاد الذكاء موفور النشاط، وقد أدرك من المعرفة السياسية حدًا جعله مُتّئِد الخطوة في الوقت الذي كان غيره يحب سرعة الخطو، لكن حكمته غلبـت نزوتـه منـذ مرحلـة مبكرة في حياة نظرائه، وكان هذا سر استمرار لمعانه كما كـان أيـضًا سرًا مـن أسرار صـناعة أسـطورة المعتضد على النحو الذي صنعت به، وتمكنت من السيطرة على مقدرات الحياة السياسية في إشبيلية طيلة حكم المعتضد، وحكم ابنه المعتمد حتى لحق ابن زيدون بربه سنة 463هـ/1066م[2].

انتهج ابن زيدون نهج الكثير من شعراء إشبيلية، فمدح المعتضد باثنتي عشرة قصيدة، وهي من خيرة مدائحه وأرقاها ذلك أنه قد رضي عن حياته في إشبيلية ووجد عنـد المعتـضد الجـاه والمـال والسلطان والتقدير، وقد طرب المعتضد لهذا المديح فزاد في إكرام الشاعر، كما قربه إليه، ومن هـذه القصائد قصيدته التي جاء في مطلعها:

(1) ابن خاقان، قلائد العقيان، ص73-74.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص338، 416؛ المراكشي، المعجب، ص98.

للحُـــبّ، فِي تِلْـــكَ القِبَـــابِ، مَــــرَادُ[1] لَـــوْ سَـــاعَفَ الكَلِـــفَ المَــشُوقَ مُـــرَادُ[2]

وفي تلك القصيدة يمدح المعتضد قائلًا:

يــــا أيّهـــضا المَلِـــكُ الّـــذِي، فِي ظِلّـــهِ[3] رِيــــــضَ الزّمَـــــانُ، فَـــــذَلّ مِنْـــــهُ قِيَـــــادُ

يـــــا خَـــــيْرَ مُعْتَـــــضِدٍ بِمَـــــنْ أَقْـــدَارُهُ، فِي كُـــــــلّ مُعْـــــــضِلَةٍ، لَـــــــهُ أعْـــــضَادُ

لَــــمّا وَرَدْتُ، بِـــوَرْدِ حـــضرَتكَ، المُنَـــى، فَهقَـــتْ[4]، لَـــدَيّ جِمَامُهَـــا[5] لـــدَيّ الأعْـــدَادُ[6]

مدح ابن زيدون، المعتضد في كثير من القصائد، كما أنـه عـاد لمنـصبه الـسابق كـما كـان في قرطبة، سفير السلطة إلى ملوك وأمراء الطوائف، ولكن في تلك المـرة في بـلاط بنـي عبـاد في إشـبيلية، فقد توثقت علاقته بالمعتضد بدرجـة جعلـت منـه مفكـر ومثقـف إشـبيلية الأول، وهـو مـا يجعلنـا نستنتج أن جميع رسائل وكتابات وأشعار المعتضد كانت من تأليف ابن زيدون نفسه، فعـلى الـرغم من أن المعتضد له شعر يضعه في مراتب الشعراء المبرزين، إلا أنه كانت له أشعار تجعل المرء يشكك في شاعريته[7].

لم يكن ابن زيدون يكتب خطابات ورسائل المعتضد لكنه كان يؤلفها كلها، فيبدو أن المعتضد كان يكتفي بـأن يحدد له الأفكار التي يريد الحديث فيها، والمعـاني التـي يريـد الطـرق إليهـا، والقـضايا التـي يريـد أن يبـدي فيهـا رأيًـا،

---

(1) من أراد الشيء أي طلبه.

(2) من أراد الشيء أي رغب فيه؛ (انظر: ابن زيدون، ديوان، ص83).

(3) أي يا أيها الملك الذي ظله رُوِّض الزمان ففُكَّ قيده.

(4) أي امتلأت.

(5) أي ماؤها الكثير.

(6) الماء الدائم ؛ (انظر: ابن زيدون، ديوان، ص89-90).

(7) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص67-80؛ علي أدهم، المعتمد بن عبـاد، سلـسلة أعـلام العـرب، رقـم 2، مكتبـة مصر، القاهرة، بدون تاريخ، ص76.

بل كان يحدد بالطبع بعض التصريحات أو التلميحات أو التهديدات التي يريد عرضها أو تسريبها، وكان ابن زيدون يجتهد في تقديم أفضل الصياغات لهذه المعاني، فلم يكن شريكًا للمعتضد في الرأي تجاه الأحداث المفاجئة، لكنه كان صانعًا لهذا الرأي، صحيح أن المعتضد كان يملك قدرة جيدة على اختيار البديل، لكن ابن زيدون كان هو صاحب البدائل كلها وكان بهدوء أعصابه وهدوء أدائه قادرًا على الوصول بالمعتضد إلى النقطة الحاسمة في التوجه السياسي والاستراتيجي[1].

سادسًا: سعاية ابن زيدون بعدد من مفكري عصره

اتبع ذو الوزارتين ابن زيدون سياسة معادية ضد الكثير من مفكري عصره للتخلص منهم، نتيجة المنافسة الشديدة بينهم، فسعى للتخلص من ابن عبد البر[2] وإراقة دمه، فوشى به إلى المعتضد بن عبَّاد، فزعم ابن زيدون أن ابن عبد البر يطعن في الدولة[3]، حيث كان مركز ابن عبد البر غير مستقر في إشبيلية، ومعرَّضًا للخطر بحيث وصلت المكائد التي دبَّرها ضده ابن زيدون إلى محاولة اغتياله، وكانت علاقة ابن عبد البر بالمعتضد متوترة إلا إنه اتخذ موقفًا لينًا ومرنًا تجاه الحاكم الإشبيلي[4]، فعندما سعى به ابن زيدون، تغير عليه المعتضد وحبسه، فسار أبوه العالم أبو عمر بن عبد البر النمري من مستقره بشرق الأندلس حتى دخل على المعتضد بن عبَّاد، وهو ينادي بصوتٍ عالٍ "ابني يا معتضد...ابني يا معتضد... شفعني فيه" فأحسن المعتضد استقباله وعفا عن ابنه وأكرمه وانصرفوا آمنين[5]، وكان قبول

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص338، 416؛ المراكشي، المعجب، ص98.

(2) هو أبو محمد عبد الله بن أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، من أصحاب الأدب البارع والبلاغة الذائعة والتقدم في العلم والذكاء، وله ولأبيه قبله لواء سبق، ولسان صدق، وكفى بأبيه علمًا لا يخفى؛ (انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص125).

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق3، م1، ص125؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص402.

(4) عبود، جوانب من الواقع الأندلسي، ص179.

(5) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج2، ص538-539؛ ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص220.

المعتضد ابن عبَّاد شفاعة أبيه لمكانته العلمية، فقد كان فقيهًا مالكيًّا بارزًا، وعالماً كبيرًا، فعفا عن ابنه وأطلق سراحه. توفي ابن عبد البر 474هـ/1081م[1].

كما سعى ابن زيدون في التَّخلُّص من الأديب الشاعر أبي الحسن علي بن غالب، فوشى به إلى المعتضد بن عبَّاد، ففتك به المعتضد بن عبَّاد، فقد كان ابن زيدون يسعى للتخلص من جميع منافسيه من أجل المكانة السياسية[2].

نتيجة للمكانة التي تمتع بها ابن زيدون في إشبيلية خاصة في عهد المعتضد بن عبَّاد، فقد وصل إلى مرحلة أنه كان يأخذ بكل وشايات ابن زيدون، فيتخلص بمن يوشي بهم دون التحقق من تلك الوشايات، فقد وجد ابن زيدون الطريق مفتوحًا أمامه وممهدًا للتخلص من جميع منافسيه من أجل الانفراد بمكانة سياسية بارزة في إشبيلية دون منافسة من أي شخص، وهو ما نجح على ما يبدو في تحقيقه.

سابعًا: وشاية المفكرين بابن زيدون عند السلطة

بعد أن توفي المعتضد عام 461هـ/1068م، وتولى ابنه المعتمد من بعده، ولقى منه ابن زيدون كل تقدير واحترام، فقد كان صديقًا لابن زيدون قبل أن يتولى الملك، كما أن المعتمد كان تلميذًا عنده، أضف إلى ذلك أن المعتمد كان شاعرًا يقرب إليه الأدباء والشعراء والمفكرين، وكان بلاطه وجهة كل أديب ومنزل لكل شاعر، وقد حاول أعداء الشاعر ومنافسوه أن يوقعوا بين الشاعر والمعتمد عند تولية الحكم، ولكن المعتمد فوت عليهم غرضهم، ولم يصغ إليهم، فحمد ابن زيدون له هذا العمل، ومدحه بقصائد كثيرة، منها قصيدته التي يعرض فيها بحساده ومطلعها:

(1) عبود، جوانب من الواقع الأندلسي، ص179-180.

(2) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص250-251.

الـــدّهْرُ، إنْ أمْـــلى[1]، فَـــصِيحٌ أعْجَـــمُ[2] **يُعطـــي اعتِبَـــارِي مـــا جَهِلــتُ، فــأعلَمُ**

إنّ الـــذي قَـــدَرَ الحَـــوَادِثَ قَـــدْرَها، **سَـــاوَى لَدَيْــهِ الــشّهْدَ[3] مِنْهَــا العَلْقَــمُ[4]**

وفي نفس القصيدة يقول فيها عن حساده:

تَلقَــى الحَــسُودَ أصَــمَّ عــن جَــرْسِ[5]الوَفــا، **وَلقـــد يُـــصِيخُ، إلى الرُّقـــاهِ[10]، الأرْقَـــمُ**

قُـــلْ للبُغَـــاةِ[6] المُنْبِـــضِينَ[7] قِـــسِيَّهُمْ **سَـــتَرَوْنَ مَـــنْ تُـــصْمِيهِ تلـــكَ الأســـهُمُ**

أسْرَرْتُـــمُ[8]، فـــرَأى، نَجـــيَّ[9] غُيُـــوبِكُمْ، **شَـــيحانُ[11]، مَـــدْلُولٌ عَلَيهـــا، مُلهَـــمُ [12]**

تعرض ابن زيدون لسعايات الكثير من المفكرين خاصة هؤلاء المنافسين له وممن أوقع بهم ابن زيدون في أيام المعتضد، فأغروا بنكبته وسعوا في طلبه، والتخلص منه، وكتبـوا رقعـة إلى المعتمـد منها:

يـــا أيهـــا المَلِـــكُ العـــلِي الأَعظَـــمُ **اقطَـــع وريـــدَي كُـــل بـــاغٍ ينـــئِمُ [13]**

(1) أي أن أعطى مواعظه.

(2) أي أخرس.

(3) أي العسل الحلو.

(4) أي المر؛ (انظر: ابن زيدون، ديوان، ص291).

(5) أي الصوت.

(6) أي الظالمون.

(7) أي من أنبض القوس: جذب وترها.

(8) أي أخفيتم.

(9) أي أسرار.

(10) أي من يصنع الرقية وهي أن يستعان على أمر بقوى تفوق الطبيعة في زعمهم ووهمهم.

(11) أي الطويل، الحازم.

(12) ابن زيدون، ديوان، ص292.

(13) أي صوت القوس والأسد والظبي؛ (انظر: ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1، ص73-74).

فعندما قرأ المعتمد الرقعة التي كتبوها، أعرض عنهم ونبذهم، ومما قال لهم:

كَـــذَبت مُنَـــاكُمْ ، صَرحـــوا أو جَمجِمُـــوا الـــدِين أَمـــتَنُ والـــسجِيةُ أَكــــرَمُ [1]

وعندما علم ابن زيدون بذلك شكره ومدحه[2]، فقد كان المعتمد شاعرًا بل وتلميذًا لابن زيدون، لذا لم تفلح كل المحاولات التي سعت لإيقاع ابن زيدون، ولم تنجح تلك السعايات[3]، وقد كان المعتمد بن عبَّاد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء مخالفًا لأبيه في القهر والسفك، ولم يكن يأخذ بأدنى سعاية[4]، غير أن ابن زيدون كان مقربًا وعزيزًا على المعتمد بن عبَّاد.

ولم يلبث ابن زيدون أن يتخلص من الساعين به لدى السلطة حتى يصله تهديد سلطة قرطبة، فلم يترك أبو الوليد بن جهور، ابن زيدون في حاله، فكان يرسل له التهديدات، ويتعرض له في حديثه بما يسوءه، وهو ما أحزن ابن زيدون، فخاطب بني جهور قائلاً:

بنـــي جهـــورٍ أحرقتُمـــو بجفـــائكم فـــؤادي، فـــما بـــال المـــدائح تعبـــقُ

تعـــدُونني كـــالعنبرِ الـــورد إنمـــا تفـــوح لكـــم أنفاسُـــه حـــين يُحـــرقُ [5]

لقد كان رد ابن زيدون، يعكس مدى ما وصل إليه في إشبيلية من مكانة وسلطة ونفوذ، لقد نجح في أن يصل إلى أعلى وأرقى المناصب في بلاط إشبيلية مكنته من تحقيق كل طموحه وأهدافه.

---

(1) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1، ص76-77.

(2) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج1، ص77.

(3) ابن زيدون، ديوان، ص291؛ عناني، تاريخ الأدب، ص102.

(4) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص54.

(5) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص354؛ المراكشي، المعجب، ص98.

وفي سنة 462هـ/1069م استولى المعتمد على قرطبة، بتحريض من ابن زيدون، الذي راح يساعد المعتمد لتسهيل مهمة إحكام السيطرة على موطنه قرطبة، مستغلًا شعبيته وتعلق الناس به، فنادى أهالي قرطبة بالمعتمد ملكًا عليهم، ويدخل ابن زيدون قرطبة قرير العين، فرحًا بعودته إلى وطنه، ويزداد قدره عند المعتمد، فتتحرك كوامن الحقد والحسد في قلب الوزيرين ابن مرتين، وابن عمار، فيكيدان له، ويشيران على المعتمد أن يرسله إلى إشبيلية ليهدئ فتنة قامت هناك، ويغادر ابن زيدون قرطبة، وهو مريض أشد المرض فيهلك في الطريق، ويكون ذلك في سنة 463هـ/1070م، فيحزن الناس عليه في قرطبة، ويشتد أساهم على شاعرها العبقري الذي سكت صوته الصداح بعد أن غنى شعرًا خالدًا[1].

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص419-421؛ الذهبي، العبر، ج2، ص315.

الفصل الثامن

ولادة بنت المستكفي

رائدة المنتديات الأدبية

الفصل الثامن

ولادة بنت المستكفي رائدة المنتديات الأدبية

تمتعت المرأة في الأندلس بكامل حريتها في ظل بيئة جديدة لم ترتبط تقاليدها بأعمال وأثقال كتلك التي ارتبطت بها بيئة المشرق، ومن هنا شاركت المرأة الشاعرة في كل فنون الشعر، فكانت تتغزل في الرجل تمامًا كما يتغزل الرجل فيها، وكانت تلح في إغرائه وتصف محاسنها، وتذهب إليه زائرة تطرق بابه وتنادمه، كما كانت تمدح وتفخر، ولكن في ظل أنوثتها، وتهجو ولا تتورع عن استعمال أساليب الهجاء.

أولاً: نشأتها العلمية ومولدها

اشتهرت ولادة كمفكرة أديبة، من أبرز شاعرات عصر الطوائف في الأندلس، فهي واحدة من أميرات بني أمية في الأندلس، جدها عبد الرحمن الناصر(300-350هـ/ 912- 961م)، وهي نموذج للأميرة المثقفة النابغة الذكية، أبدعت في مجال الشعر والأدب، فكانت على درجة كبيرة من المعرفة، فخالطت الشعراء، وناظرت الأدباء، وتفوقت على أبرز المفكرين المعاصرين لها في ذلك الوقت[1].

وقد بخلت علينا المصادر التي أرخت لحياتها بذكر السنة التي ولدت فيها شاعرتنا، وذكرت السنة التي توفيت فيها، وقد اتفق كل من ابن بشكوال في الصلة، والضبي في بغية الملتمس، على أنها توفيت سنة 484هـ/1091م[2]، وقد قاربت المائة، فيكون مولدها قريبًا من سنة 385هـ/995م.

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق1، ص429؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، رقم1552، ص996؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1602، ص733؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص207.

(2) ابن بشكوال، الصلة، ج3، رقم1552، ص996؛ الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1602، ص733.

أخذت ولادة قسطًا وافرًا من التعليم قبل وفاة أبيها حيث أحضر لها العلماء والمثقفين والمفكرين، وحرص على تربيتها، لكنها ورثت عنه وعن أمها ميلها إلى المرح والتحرر نوعًا ما من قيود المجتمع[1].

ثانيًا: أخلاقها وصفاتها

وقبل أن نخوض في الحديث عن صالون أو منتدى ولادة الثقافي لابد أن نوضح أخلاقها وصفاتها، حيث اتهمها كثير من الباحثين والمؤرخين بالمجون والفساد، إلا إننا عندما نتقصى الحقائق نجد الأمر غير ذلك، فابن سعيد يقول عنها: "ولادة بالغرب كعلية أخت الرشيد في الشرق، إلا أن ولادة تزيد بمزية الحسن الفائق، وأما الأدب والشعر والنادرة، وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها، وكان لها صنعة في الغناء، وكان مجلسها يغشاه شعراء قرطبة وظرفاؤها، فيمر فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير لما اقضاه عصرها"[2].

ربما كان للمكانة العالية التي احتلتها ولادة عظيم الأثر في أن منحتها حرية خاصة في التعامل والتصرف، إلا أن هذه الفترة لم تدم طويلًا من حياتها، حيث كانت قرطبة مدينة غير آمنة، (فترة الاضطرابات السياسية) التي بدأت مع اغتيال المظفر بن المنصور (392-399هـ/1002-1008م)، وانتهت بقيام ملوك الطوائف، وخاصة خلال سنوات الفتنة، إذ حل الخراب، وطمست معالم قرطبة الجميلة، وهدمت القصور العظيمة التي بناها الأمويون[3].

كانت السنوات الذهبية لولادة قليلة، تلك السنوات التي كان لأدبها، وجمالها، وظرفها ما يجذب إلى مجلسها الشعراء والكتاب من ذوي الشأن في عصرها، فقد جاءت ولادة على خلاف أبيها، قوية الشخصية، مستقلة الرأي،

---

(1) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص143.

(2) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص143؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص208.

(3) منى ربيع بسطاوي، بين ولادة بنت المستكفي وحفصة بنت الحاج الركونية، العدد32، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 2000م، ص101.

حادة الذكاء، واسعة الثقافة، عارفة بالأدب، مقتدرة على قول الشعر، جميلة متحررة، أضافت إلى تحرر عصرها ألوانًا من التحرر، فجعلت قصرها ملتقى أدبيًا يتنافس المتنافسون فيه على حبها، ومحاولة كسب قلبها، "إنها الفاتنة صاحبة الصالون الأدبي"[1].

جمعت ولادة إلى ذكائها، نبلها وطهارة ثوبها، لكن التقليل من شأنها في المناسبات أعطى الفرصة لكثير من الشائعات حول سلوكها، "مما فتح الباب للقيل والقال"[2]، وهذا ما عبر عنه ابن بسام حين قال: "على أنها سمح لها، وتغمد زللها، أطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها"[3]، ومما قيل فيها أنها "لم يكن لها تصاون يطابق شرفها"[4]، وذهب ابن نباته في كتابه سرح العيون بقوله: "وتعشقها الكبراء منهم"[5].

ومن بين المحدثين الذين لم ينصفوا ولادة بل وجهوا لها لومًا لاذعًا لا نرتضيه للشاعرة كان د. محمود صبح، فقد ذهب في دراسته التي أعدها عن "ابن زيدون شاعر قرطبة" عند تناوله لموضوع علاقتها بابن زيدون يقول: "لم تكن ولادة عفيفة الحصان... ثم نراه عندما يتحدث عن علاقتها بمهجة

(1) Maria Jesùs Rubiera Mata, Poesia femenina hispano-àrabe, Editorial Castalia, Instituto de la Mujer, Madrid, 1989, P.100.

(2) ابن دحية، المطرب، ص8.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص429.

(4) الضبي، بغية الملتمس، ج2، رقم1602، ص733.

(5) ابن نباته، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، المطبعة الأميرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص7.

القرطبية[1] يقول: ومهجة هذه كانت رعناء ماجنة خرقاء... ولم تكن ولادة بأقل منها مجونًا، ولا أعقل منها لسانًا، فقد هجت ابن زيدون..."[2].

مما سبق يتضح لنا مدى تباين آراء المؤرخين حول شخصية ولادة فمنهم من كان متحاملًا، ومنهم من كان منصفًا.

والذي يغلب على الظن أن ولادة كانت بعيدة عن التبذل، مصونة عن الأسفاف، حسبها من ذاك للقاء ظفرها بالإعجاب والحب والتقدير، وتنافس الجميع في إرضائها والتغني بها لإرضاء غرورها لا أكثر، وقد أكد لنا ذلك ابن بسام بقوله: "كانت يعشو أهل الأدب إلى ضياء غرتها، ويتهالك الشعراء والكتاب إلى حلاوة عشرتها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب، وطهارة أثواب"[3].

فولادة في ظننا لم تكن من بائعات الهوى كما حاول البعض أن يصورها، لكنها في إطار وضعها الاجتماعي، وهذا الملتقى الأدبي وما يدور فيه من مناقشات وعواطف محتدمة، وخصومات، وتنافس كل هذا ربما دفع بها إلى مجاراة ضيوفها، والخوض مع الخائضين، فتورطت في الحديث الصريح عن عواطفها على غير عادة الشاعرات العربيات خاصة في الشرق، كما تورطت في بعض الشعر الذي يدخل في باب الأدب المكشوف، والذي كان أغلبه -كما ذهب الدكتور هيكل- يأتي في مقام الهجاء الذي وجدت نفسها مسوقة إليه[4]، وفي كثير من الأحيان لا يعدو أن يكون لعبة أدبية، أما عن

(1) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص143؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص208.

(2) كان أباها يبيع التين، وكانت صديقة لولادة، ووصفت بأنها من أجمل نساء زمانها، وقد أعجبت بها ولادة، فقامت على تربيتها حتى أصبحت شاعرة؛ (انظر: ابن سعيد، المغرب، ج1، ص143، 144؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص293).

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص377.

(4) هيكل، الأدب الأندلسي، ص375.

البيتين اللذين طرزت بالذهب بهما ثوبها وكشفت فيهما عن مدى اللامبالاة، والتي قالت فيهما:

الأول قالت فيه:

أنـــا واللـــــه أصـــلحُ للمعـــــالي وأمـــــشي مـــــشيتيْ وأتيـــــهُ تيهـــــا

والثاني قالت فيه:

وأُمْكِـــنُ عاشـــقي مـــن صَـحْن خـــدي وأُعطـــــي قبلتــــي مَــــنْ يــــشتَهيها[1]

فالصحيح عندنا هو ما ذهب إليه -الدكتور الشكعة- حين قال: "إن ولادة لم تكن من الانحراف بحيث يكون بعض شعرها قرينه على سوء بها، وإنما طبيعة ندوتها وجمالها وحسبها، وذكاؤها كل ذلك دفعها إلى مجاراة طبيعة زملنها، والاستجابة إلى المناخ العام في منتداها"[2].

وهناك أدلة أخرى تؤكد لنا على مدى استقامة ولادة وعفافها ما ورد في "نزهة الجلساء" إذ يقارنونها بإحدى الأميرات العباسيات، وهي "علية بنت المهدي" التي توصف بجمالها ومواهبها الأدبية التي جعلت منها شاعرة جديرة بالتقدير وأيضًا بتصاونها وعفافها[3].

أضف إلى ذلك ربما قالت ولادة البيتين -اللذين طرزت بهما ثوبها- تحريضًا لغيرة من تحب، أو رغبة منها في لفت الانتباه إلى كونها مسترسلة

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص376-379؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص205.

(2) مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، الطبعة السادسة، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، 1986م، ص219.

(3) السيوطي، نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة الكتاب الجديد، بيروت، بدون تاريخ، ص60.

في الحرية والانطلاق، وإن كانت ولادة بهذين البيتين قد تحدت المجتمع والناس تحديًا مستهجنًا لم يغفره لها أحد من قبل ولا من بعد"[1].

ساعد تحرر ولادة من الأصفاد الاجتماعية بعد موت أبيها، أنها أصبحت رائدة لأكبر منتدى أدبي وثقافي في عصر الطوائف في الأندلس، فسفرت عن وجهها[2]، وفتحت أبواب قصرها للأدباء والشعراء والكتاب والوزراء وكبار رجال الدولة، فغدا منتداها الثقافي يجمع بين المفكرين والسياسين، "فكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبًا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب"[3].

ثالثًا: منتدى وصالون ولادة الثقافي

وهكذا كان منتدى ولادة، تجمع فيه بين الجمال والأدب والذوق، والسياسة والفكر، وأنيق الشعر، ورفيع الغناء، وحسن المعشر، ورواء الحديث، وحلاوة الرد، وحرارة النكتة، حتى أصبحت من كبيرات ربات المجالس الأدبية، أو "الصالونات" في الأدب العربي، بل في الأدب العالمي، فسبقت به أديبات فرنسا بعدة قرون، فولادة فتحت صالونها الأدبي في قرطبة في القرن الحادي عشر الميلادي، بينما عرفت فرنسا هذه الصالونات لأول مرة في القرن السابع عشر الميلادي، وكثرت في القرن الثامن عشر الميلادي[4].

---

(1) سلمى الحفار الكزبري، أثر ولادة في حياة ابن زيدون وفنه، العدد الحادي عشر والثاني عشر، السنة التاسعة، من مجلة الكتاب العراقية، بدون تاريخ، ص302.

(2) ابن نباتة، شرح العيون، ص22.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص429.

(4) الطاهر أحمد مكي، الصالونات الأدبية في الشرق والغرب، العدد103، مجلة الدوحة، بدون تاريخ، ص39؛ سعد بن حسين بوفلاقة، ولادة بنت المستكفي الأميرة الشاعرة، العدد21، 2005م، ص347.

وكان صالون "أوتيل وبي رامبوييه" أقدم صالون أدبي عرفته فرنسا وأوروبا بأكملها، وكانت صاحبة الصالون "كاترين دبي فيفون"، و"مركيزة رامبوييه" (1588-1665م) والتي فتحت صالونها الأدبي سنة 1608م تشبه ولادة، فهي فتاة جميلة مصقولة (مهذبة) التربية من أم رومانية وأب فرنسي، ثم كثرت الصالونات الأدبية في فرنسا، فكان صالون "مادام ريكاميه" في بداية القرن التاسع عشر، وصالون الروائية الفرنسية "جورج ساند" التي جاءت إلى باريس عام 1831م، وصالون "مادام دي ستال"، وكذلك صالون الأديبة "مي زيادة" (1886-1914م) في أدبنا العربي الحديث[1].

غدت ولادة رائدة الصالونات الأدبية والفكرية في العالم أجمع، فمهما يكن من أمر فقد استطاعت شاعرتنا أن تفتن شعراء عصرها بجمالها وسحرها وذكائها وحلاوة عشرتها، فاجتمع في ندوتها من معاصريها شعراء وأدباء ووزراء من الرجال والنساء، وكانت تستقبل الجميع ببشاشة ولطف، فيعجب بها الرواد، ويتمنى كل واحد منهم أن تكون له وحده، ففي صالونها كانت تدور مناقشات في مسائل الحب وألاعيبه على غرار ما جرى في فرنسا في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي، وكان الشاعر ابن زيدون من رواد هذا الصالون، وعلى رواده، يقرأ شعره، فأعجبت ولادة بشعره، وفصاحته، ووسامته، وطموحه، وأعجب هو الآخر بسحرها وخفة روحها، وظرفها وأدبها، وأنوثتها الصارخة، فانبعث في كل منهما ميل قوي نحو الآخر تدرج إلى حب عنيف، وقد اتفقنا في ميولهما، إذ كانا شابين، سريين، جميلين، شاعريين، وكلاهما كان مفتونًا بالموسيقى والغناء، ميالًا إلى معاقرة الشراب، وكلاهما من صفوة الطبقة الراقية، وسنهما متقاربة، وكلاهما غرب[2].

---

(1) لمزيد من التفصيل عن الصالونات الأدبية؛ انظر: مكي، الصالونات الأدبية، ص38 وما بعدها.

(2) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص430-432؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص205-208؛ بوفلاقة، ولادة بنت المستكفي، ص348-351.

رابعًا: تغير العلاقة بين ولادة وابن زيدون وأثرها عليها

وقد أشرنا عند الحديث عن ابن زيدون عن جزء كبير من العلاقة بينه وبين ولادة، وأن العلاقة لم تدم بينهما، فلم تدم سعادة العاشقين، وكأن القدر حسدهما، فبعث لابن زيدون منافسين يقاسمونه حب ولادة، فأبعد الكثير من منافسيه بهجائه لهم، إلا أنه لم يستطع إبعاد الوزير ابن عبدوس الذي ظل يزاحم ابن زيدون في حب ولادة حتى أدركته المنية، ولم يكن الوزير ابن عبدوس في مستوى ابن زيدون أدبًا، وظرفًا، وفكرًا، ويقافةً، وجمالًا إلا أنه كان يفوقه دهاء، وكان معتزًا بنفسه يحاول تغطية جهله بماله من قدرات سياسية ومكانة اجتماعية، وكانت ولادة كثيرة العبث به أول الأمر[1].

ولما بلغ ابن زيدون أن الوزير ابن عبدوس يحاول الإيقاع بينه وبين ولادة، كتب رسالته التهكمية البديعة على لسان ولادة، وأرسلها إليه، فنالت من الوزير ابن عبدوس كل منال، وأمسك عن التعرض لولادة إلى أن سجن الشاعر ابن زيدون، فوصفه فيها بالحمق والجهل، والغباوة والفحش، وجفاء الطبع، وثقل السمع، والعمى، والبله، والبشاعة، ونتانة الأنفاس، وكثرة المعايب[2].

وردًا على فعلة ابن زيدون هذه مع الوزير ابن عبدوس، نجد ولادة تستنكر وتغتاظ لذلك الفعل من قبل ابن زيدون، فتغيرت عليه بسبب ما نسبه إليها من ألفاظ هجا بها الوزير ابن عبدوس، أضف إلى ذلك مغازلة ابن زيدون جاريتها، مما دفع ذلك ولادة على الأرجح أن تثير الغيرة في قلب ابن زيدون، مظهرة الحب للوزير ابن عبدوس، بعد أن لمست منه ازدراء وخيانة،

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص432؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص208.

(2) ابن زيدون، ديوان، ص147؛ ابن نباتة، سرح العيون، ص25وما بعدها.

فما لبثت أن ركنت إلى الوزير ابن عبدوس الذي كان يعدها بالمال، ويساعدها في تدبير شؤونها الخاصة[1].

بذل ابن زيدون الكثير من المحاولات لإعادة ولادة إليه، بل أنه راح يعصر أفكاره عصر، ويحرك جوارحه كلها نحوها، كي تعود إليه ولادة، لكن كل ذلك لم يقدم له أي شيء، حتى أنه لم يجد أمامه، لما يأس من عودة ولادة إليه، إلا أن يهجو ولادة والوزير ابن عبدوس[2].

ويبدو أن ولادة أعرضت عن ابن زيدون، ولم تنجذب إليه مرة أخرى بسبب أنها كرهت منه تشهيره بها وبحبهما، فطار صيتها على كل لسان، ولم يكن ذلك في قرطبة فحسب، بل في الأندلس كلها، ولم يعد الشاعر بعد ذلك في حاجة إلى التستر مثل ما كان من قبل، فقال:

يَامَن غَدوْتُ بِه، فِي النَاسِ، مُشتهرًا　　قَلْبِي عَلَيْكَ يُقاسِي الهَمّ والفِكرَا

إنْ غِبْتَ لم ألْقَ إنْسانًا يُؤنّسُني؛　　وَإنْ حضرْتَ فكلُّ النّاس قد حَضَرَا[3]

فضاقت من أن تلوك ألسنة الناس خبرها مع ابن زيدون، ووجد الحساد الفرصة سانحة للدس والسعاية، فأوغروا صدر ولادة على الشاعر ابن زيدون، الذي حاول أن يلتمس عفوها والصفح مرة أخرى بأي طريقة، فكتب إليها يعتذر ويعاتب ويتودد إليها، فقال:

(1) وليم الخازن، ابن زيدون: أثر ولادة في حياته وأدبه، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص48.
(2) ابن زيدون، ديوان، ص136.
(3) ابن زيدون، ديوان، ص103.

واللـــه مــا ســاءني أنّي جُفِيــتُ[1] ضَــنىً[2]   بـــلْ ســـاءني أنّ سرّي، بالـــضّنى[3]، عَلَـــنُ

لَـــوْ كَـــانَ أمـــرِيَ، في كَـــتمِ الهَـــوَى، بيـــدي   مـــا كـــانَ يعلـــمُ، مـــا في قلبـــيَ، البَـــدَنُ[4]

إلا أن ولادة لم تقبل أي شيء من ابن زيـدون فـصمت أذنيهـا عنـه، ومـادام ابـن زيـدون لم يستطع كتمان سرها، فقد انسحبت من الحياة الاجتماعية، ثم أن بنـي جهـور في قرطبـة مـن المؤكـد أنهم ضاقوا ذرعًا بندوتها الأدبية، ولعلهم كانوا يخـافون أن يتـأثر الـشعب بكلامهـا، وأن تجعـل مـن ندوتها مكانًا للتآمر متعللة بإرجاع الملك إلى أسرتها الأموية، فعلى الأرجح أن ولادة كانت تخفي فعلًا وراء تأسيسها لندوتها الأدبية في قرطبة أفكارًا سياسية، ولذلك أصبحت تتحرج من تشهير ابن زيدون بها، وكانت من قبل لا تكترث لما يخدش شرفها، إذ كيف يركن الشعب لفتاة لا هم لهـا سـوى تلبيـة دواعي قلبها، وإواء شهواتها وعواطفها[5].

وعلى ذلك اختفى ذكر ولادة مـن المـصادر، فـصمتت عـن التحـدث عنهـا، فمـن المؤكـد أن فضلت حياة العزلة في بيتها، ولم يعد لها اتصال بأي شخص بعـد ذلـك، نتيجـة لتتـضيق بنـي جهـور عليها من جهة، وتشهير ابن زيدون بها من جهة أخرى.

---

(1) أي أبعدت.

(2) أي تعبت.

(3) أي أن تعبي وعذابي أصبحا معروفين.

(4) أي الجسم؛ (انظر: ابن زيدون، ديوان، ص316).

(5) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص429-430؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص206-208؛ الخازن، ابن زيدون، ص48-49.

الفصل التاسع

ابن حيان القرطبي

عميد المؤرخين

الفصل التاسع

ابن حيان القرطبي عميد المؤرخين

أولاً: نسبه وحياته

هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن وهب المعروف بابن حيان، وكنيته أبو مروان، وُلد في قرطبة سنة 377هـ/989م، وتوفي سنة 469هـ/1076م[1]، وهو أموي بالولاء وأسرته من أصل إسباني اعتنقت الإسلام، وكان جدّه مولى للأمير الأموي الأول عبد الرحمن الداخل (138-172هـ/756-788م) "صقر قريش"[2]، لذا حظيت أسرته بمكانة مرموقة في عهده، وبقيت كذلك في حكم أبنائه من بعده.

إلا أن المصادر لم تشر إلى تفاصيل تلك الأسرة في عهد الدولة الأموية وعلاقتها بالسلطة، فقد يكون سبب صمت المصادر عن ذكر أجداده رغم هذا الولاء للبيت الأموي، أنهم كانوا من صغار العاملين في ذلك الوقت في ظل الدولة الأموية بالأندلس، وإن بداية ظهور اسمهم مع رجال الدولة في الأندلس كان مع ظهور الحاجب المنصور بن أبي عامر[3].

اشتهرت أسرة ابن حيان بالعلم والثقافة، وهو ما جعل الحاجب المنصور بن أبي عامر يلحق أحد أفرادها ببلاطه وهو خلف بن حسين والد المؤرخ ككاتب في ديوان الجبايات[4]، ثم غدا أقرب مستشاريه وكاتمي

(1) ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم349، ص247-248؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص218؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج3، ص33؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج1، ص88.

(2) ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم349، ص247؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص289.

(3) مكي، المقتبس، 1973، ص8-10من مقدمة المحقق؛ خالد حسن مطر، ابن حيان القرطبي ودوره في كتابة تاريخ الأندلس 377-469هـ/987-1076م، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن، 2007م، ص25.

(4) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص198؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم821، ص241.

أسراره، وظلّ على مكانته وحظوته في ظل حجابة ابنه عبد الملك المظفر(392- 399هـ / 1002-1008م)[1].

لذلك نشأ ابن حيان في بيت علم وسياسة وثراء، وقد تعهده والده بالرعاية، فجلب له خيرة علماء الأندلس في الأدب والتاريخ والفقة والحديث[2]، فغدا ابن حيان من أبرز مفكري الأندلس، ورائد أبرز مدرسة تاريخية بها، فقد كانت قرطبة أعظم مركز للدراسات الممتازة بالأندلس وخاصة منذ أواخر عهد الخليفة الحكم المستنصر(350-366هـ/961-976م)، وأوائل عهد الحاجب المنصور، حيث نشأ في قرطبة التي كانت مليئة بالعلماء من أبنائها، خلافًا عما يقصدها من العلماء للعمل فيها خاصة في هذا القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهي فترة نشأة ابن حيان.

كانت نشأة ابن حيان في دواليب السلطة تتيح له حسن الإطلاع والوقوف على شؤون الدولة، ودراسة مختلف التيارات السياسية، فقد شهد في شبابه سقوط الدولة العامرية التي عاش في أحضانها، وما تلاها من حرب أهلية أدت إلى ضعف الخلافة الأموية ثم انهيارها، وقيام دول الطوائف على أنقاضها في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بلا شك أن هذه الأحداث التي مزقت وحدة بلاد الأندلس، قد وسعت من مداركه، وقدّمت له الكثير من التعليقات الصائبة والملاحظات النقدية القوية في ما كتبه عن الأحداث المعاصرة له[3]، فقد اجتمعت في ابن حيان مجموعة من الصفات، أهلته لأن يحتل مكانًا متميزًا في تاريخ وطنه، كما احتل مكانة متميزة بين مفكري ومؤرخي هذا الوطن.

(1) ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس " قطعة تؤرخ للسنوات الأخيرة من عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط"، نشر وتحقيق د. محمود علي مكي، بيروت، 1973م، ص13من مقدمة المحقق؛ ابن بسام، الذخيرة، ق4، م1، ص50؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص25-26.

(2) ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم349، ص247.

(3) محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1970م، ص272.

ثانيًا: نشأة ابن حيان عميد المؤرخين العلمية

لم تبين لنا المصادر من أساتذة وشيوخ ابن حيان الذي وجهه إلى دراسة التاريخ، فإنه لا يُحتَمل أنّ أحدًا منهم قد وَّجهه إلى دراسة التاريخ، بوجه خاص، ولهذا فمن المعتقد أن اتجاهه إلى كتابة التاريخ تولّد من شخصيته هو، وقد يكون لوالده خلف بن حسين تأثير في ذلك، فتتبُّع الأخبار التي نقلها عن أبيه يسمح بأن نرى في خلف بن حيان معدن مؤرخ حقيقي، نافذة النظرة على الأمور، باحثًا عن الأخبار بحث من يشتغل بها حقَّ الاشتغال[1].

أضف إلى ذلك أن الفترة التي عاشها ابن حيان، والأحداث التي رواها واكتوى بها، قد زاد من إرهاف روحه، حيث "انتقلت الأندلس تحت بصره نقلة مفاجئة من تلك العظمة التي وافقت أواخر الدولة العامرية إلى هذه الفتنة الجائحة المدمرة التي انفجرت في سنة 399هـ/1008م على يد عبد الرحمن شنجول[2].

لذلك نرى أن ابن حيان رجلًا قد "اهتدى منذ شبابه إلى موهبته واتجاهه الحقيقي الذي رسم له دوره في الحياة، وهو التوفر على كتابة التاريخ عملًا فرغ له، وكرس عمره من أجله، ولم يرَ عنه مّعُدِلًا، ولا صرفه عنه غير ذلك من الشواغل"[3].

(1) ابن حيان، المقتبس، 1973م، ص25-26من مقدمة المحقق.
(2) ابن حيان، المقتبس، 1973م، ص26من مقدمة المحقق.
(3) ابن حيان، المقتبس، 1973م، ص27من مقدمة المحقق؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص576-578.

ومن أسفٍ أن ابن حيان وهو الذي كتب بالتفصيل عن أحداث قرطبة "لم يترك لنا شيئًا عن حياته في هذه السنوات العصيبة السوداء، ولكن الذي نعرفه على وجه اليقين هو أنه لم يغادر قرطبة أبدًا حتى وفاته"[1].

وعلى الرغم مما نستخلصه فيما وصلنا من إنتاجه من سعة ثقافته، وحُسن إدراكه، إلا أنه لم يتجاوز ما أراد لنفسه أن يتخصص فيه ويكرس حياته له من كتابته للتاريخ، وحتى في هذا المجال "لم يفتح على نفسه باب التنويع والتفريع أو الاستطالة بسعة العلم ليكتب في غير ما فنَّ كما نسمع عن كثير من علماء عصره"، بل كان ابن حيان "ممن فطنوا إلى قيمة التخصص الدقيق بالمفهوم الحديث لهذا اللفظ"، فاقتصر على كتابة تاريخ بلده من الفتح الإسلامي حتى عصره[2].

فكان ابن حيان مؤرخًا موهوبًا، رزق القدرة على الوصول إلى لب الحقيقة وأصولها من بين الوقائع والروايات، وكانت أدواته وأسلحته في هذا الوصول ثقافة واسعة، ونظرة حادة، وعلمًا غزيرًا، وفكرًا نافذًا إلى دلالة الوقائع وأساساتها، ومنهجًا قادرًا على الفحص والدرس والمقارنة والاستنتاج.

وكان قبل هذا باحثًا علميًا متميزًا، قادرًا على الوصول إلى المجال الذي يمكن له أن يجد فيه الحقيقة، وقادرًا على الذود عن صواب استنتاجاته وعن صواب الطريق الذي سلكه من أجلها.

كما كان ابن حيان كاتبًا قادرًا على الإقناع بما يريد أن يقنع به، والهجوم على ما يريد أن يهاجمه والانتصار لما يؤمن به ونقص ما يخالفه وربما تسفيهه.

(1) ابن حيان، المقتبس، 1973م، ص31من مقدمة المحقق.

(2) ابن حيان، المقتبس، 1973م، ص56من مقدمة المحقق.

وكان مع هذا مثقفًا واعيًا لدور التيارات المتلاطمة في الحياة الفكرية والعقلية، ولطبيعة الصراع الاجتماعي والسياسي.

وبهذه الصفات الأربعة انطلق ابن حيان يخوض معاركه في ثقة، ويعرض آراءه في اعتزاز، ويدافع عن وجهات نظره بإصرار، ويقدم أحكامًا قاطعة من دون توسط أو تحرز أو تهيب أو إمساك للعصا من غير أطرافها.

ثالثًا: أسلوب ابن حيان في الكتابة التاريخية

وأسلوب ابن حيان في التاريخ يبين لنا على أنه كان أديبًا مفكرًا من الدرجة العالية، يمتاز من الناحية الأدبية والفكرية بأسلوب سلس معبر، سهل العبارة ورصينها، مع بلاغة وفصاحة، بعيد عن التزويق والمحسنات اللفظية التي ولع بها كثير من معاصريه[1].

ولم يصرفه هذا الأسلوب الأدبي الرفيع في الكتابة عن تسجيل تاريخ الأندلس بدقة وتفصيل متناهين، متميزًا بصواب نظراته وطريقة تحليله وأصالة رأيه وعدالة نقده ونزاهة حكمه، وقد تبلغ الدقة في أخباره أنه لا يكتفى بتعيين يوم الحادثة، بل يذكر الساعة، كما يعطي أحيانًا التاريخ الهجري ومقابله الميلادي[2].

ومع هذا التخصص الدقيق في كتابة التاريخ إلا أنّ لابن حيان مشاركة جانبية ثانوية في علوم أخرى، لم يقصد إليها قصدًا بقدر ما كانت روافد تمد تيار علمه الحقيقي الذي كرّس حياته له، وهو علم التاريخ[3]، فقد برع في علوم اللغة والمنطق[4]، والجغرافيا التي شهدت اهتمام بالغ بها على يديه،

(1) ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، نشر د. عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965م، ص11، 12من مقدمة المحقق.

(2) ابن حيان، المقتبس، 1965م، ص12من مقدمة المحقق؛ Alvarez de Morales (C.), Aproximacion a la Figura de Ibn Abi-L-Fayyad Y su historia, Cuadermos de Historia del Islam, No,9, Granada, 1978, P.4-113.

(3) ابن حيان، المقتبس، 1973م، ص56من مقدمة المحقق.

(4) ابن خير الإشبيلي، فهرسة، ج2، ص434، 437، 468.

فمن يريد التعرف على جغرافية الأندلس الإسلامي لا يستغني عن استصفاء الفوائد الجغرافية الواردة في كتابات ابن حيان، فهو يذكر المدن والحصون والقرى، ويؤرخ لاختطاط المدن وإنشاء الموانئ والحصون والجسور والقناطر، ويذكر الطرق التي تمر بها الجيوش في مسيرها وما يلقاه الجيش من حصون ومدن وقرى، كل ذلك في دقة لا تظفر بها في مرجع آخر[1].

استطاع ابن حيان في الفترة التي عاشها في الأندلس من خلال قدراته العلمية والفكرية أن يؤسس مدرسة تخرج منها الكثير من الطلاب الذين كانوا روادًا لشتى العلوم والمعارف في الأندلس بعد ذلك، وهو ما يشير إلى تنوع ثقافة ابن حيان، فقد كان شيخًا لنخبة من العلماء الذين تنوعت اهتماماتهم وتوزعت بين اللغة والأدب والحديث والجغرافية[2].

فقد رزق ابن حيان حظوظًا عظمى من مميزات التكوين العلمي والفكري، وتنامت هذه الحظوظ مع كل خطوات حياته، فرزق من خلال التعليم المبكر قدرًا كبيرًا من الصقل العقلي للقدرات الفطرية التي كان يتمتع بها، وعرف أن هناك خطأً وصوابًا، وأن القاعدة العلمية هي التي تحكم الخطأ والصواب، وأن الهوى وحده لا يكفي لتبرير موقف أو رأي، وهكذا جاءت كتاباته حافلة بالأسانيد والتأصيل المنطقي، والبعد عن الشطط، وتجنب التفسيرات التي لا يمكن الدفاع عنها، والأهم من هذا كله أنه نجا مما وقع فيه كثير من معاصريه من الإسراف في الأدلجة، أو الاعتماد على نظرية المؤامرة، أو حتى التفسير المادي المطلق للتاريخ.

---

(1) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967م، ص101-102.

(2) ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم551، ص376؛ ج1، رقم153، ص122-123؛ ج1، رقم170، ص131؛ ج2، رقم616، ص442؛ ج2، رقم638، ص437؛ ج2، رقم753، ص512-514؛ ج3، رقم1375، ص896.

رابعًا: ابن حيان في بلاط بني جهور

من المؤكد أن علاقات ابن حيان بالسلطة بدأت وهو في سن صغير، فقد كان من رجال الدولة المقربين عندما تمت مبايعة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمستظهر بالله سنة 414هـ/1023م، وقد حضر المبايعة ووصفها كما رآها[1].

وعلى ما يبدو أن حال ابن حيان مع السلطة، كان كحال الكثير من المفكرين الذين تقلبوا ما بين مؤيدين ومعارضين للخلافة الأموية في تلك الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس، حتى شاءت الأقدار، أن نضيع وحدة الأندلس، ويسيطر ملوك الطوائف على مدنها، فقد سمحت له الظروف وهو المعاصر لدول الطوائف ومدون لأحداثها أن يشتغل في بلاط بني جهور في قرطبة لما شهدته من استقرار سياسي واجتماعي جراء الإصلاحات التي قام بها أبو الحزم بن جهور 422-435هـ/1031-1044م، وابنه أبو الوليد 435-457هـ/1044-1064م، إلا أن هذا الحال لم يدم على ذلك وبدأ يتغير بتولي ولديه عبد الرحمن وعبد الملك، ورغم ذلك كانت قرطبة على أيام الجهاورة أكثر أمنًا واستقرارًا مقارنة بدول الطوائف الأخرى، وهو الأمر الذي دفع بابن حيان إلى تولي منصب إملاء الذكر في ديوان الأمير أبي الوليد، ويصبح المؤرخ الرسمي لدولتهم[2].

فما يذكره ابن حيان عن وظيفة إملاء الذكر، أنها تشبه كاتم أسراره فيقول: "لولاها أخذ علي كتم ما أسداه لجهرت في وطفه"، كما أن وظيفة إملاء الذكر تعني أن ابن حيان عمل في تدريس التاريخ في ديوان أبو الوليد بن جهور، فيقول عن الوظيفة: "المطابق لصناعتي اللائق بحرفتي"، وكان متخصصًا في كتابته وتدريسه، وتلقى مقابل ذلك راتبًا واسعًا ، وعلى ما يبدو

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص48-50؛ المراكشي، المعجب، ص47؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص136.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص605.

أنه عمل بهذه الوظيفة في الفترة ما بين 435-462هـ/1043-1069م، وهي فترة حكم أبي الوليد بن جهور، وقد تقدم به العمر فيقول: "مع كلال الحد وضعف الآلة... وقد أرتشف الدهر بلالتي"، أي أنه عمل بعد الثامنة والخمسين من عمره، إلا أن الدراسة لم تعثر على ما يحدد كم استمرت فترة عمله هذه، بسبب صمت المصادر التي اعتمدت عليها الدراسة ورجعت إليها[1].

وعلى الأرجح أن هذه الوظيفة وهذا الراتب الواسع من أجل أن يلتزم ابن حيان الصمت، اتجاه أبي الوليد بن جهور حيث يذكر أن عبد الملك بن أبي الوليد محمد بن جهور حلف بأن يقتله لولا تدخل والده أبي الوليد محمد ومنعه من ذلك، ويرد هذا في نص مبتور لابن سعيد ذكر فيه أن أبا الوليد محمد قال لابنه: "واللـه لقد صدق، وأني واللـه ما أصلح لهذا الأمر، ولكن مكرهًا لزمته"، عندما حلف عبد الملك أن يقتله، فأحضره والده وقال: "واللـه لئن طرأ على ابن حيان أَمرٌ لا آخذنَّ أحدًا فيه سواك، أَتُريد أن يُضَرَبَ بنا المثلُ في سائر البلدان بأَنا قتلنا شيخَ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كَنَفِنَا مع أن ملوك البلاد القاصية تُدَاريه وتُهاديه؟!... وأَنشد له نظمًا، وقال: "سبحان من جعله إذَا نَثَر في السماء، وإذا نَظَم تحت تُخُوم الماء"[2].

يتضح من النص السابق أن ابن حيان تعرض لأبي الوليد بن جهور، ووجه إلى دولة الجهاورة نقدًا لاذعًا ، فعلى الرغم ما اتسم به حكم بني جهور من ميزات حسنة لم يسلموا من نقده مما جعله يتعرض للإيذاء، وكاد يقتله عبد الملك لولا تدخل أبي الوليد كما أشرنا، فقد كان لابن حيان آراء نقدية كثيرة في كتاباته منها ما كان نقدًا اجتماعيًا وآخر سياسيًا، وغالبًا ما كان أيضًا نقدًا نفسيًا للشخصيات التاريخية التي يتحدث عنها[3].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص605.

(2) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص117.

(3) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب "نقد الشعر" من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، الطبعة الرابعة، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ص127، 361-362.

فقد خرج ابن حيان إلى الحياة الفكرية متسلحًا بالعلم والفهم والفكر والمنهج، لكنه مع هذا كان جادًا في ردود أفعاله على نحو ما كان جادًا في عروضه، وكان لا يمانع في الإسراع إلى فتح باب الخصام على نحو ما كان لا يمانع في الاندفاع إلى إطلاق الأحكام، وكان قادرًا على الجدل والهجوم وإعادة الهجوم، وكان يفعل هذا كله بتلقائية غريبة، وبقدرة متناهية على الانتصار لما يراه صوابًا.

لذلك لم يقتصر ابن حيان على وظيفة إملاء الذكر في دولة الجهاورة، فقد سمحت له السلطة بأن يتولى مهام التدريس وأن يؤسس مدرسة علمية في قرطبة تولت مهام تدريس التاريخ وعلوم اللغة والجغرافيا وعلم الحديث، ولم تشر المصادر إلى الأجر الذي كان يتقاضاه، إلا أن ما سبق من إشارات تعني بأن ذلك أيام إمارة أبي الوليد بن جهور، وتذكر بعض المصادر أن ابن حيان تولى وظيفة صاحب الشرطة[1].

إلا أننا نجد بعض الباحثين أمثال غارسيه غوماز Garcia Gomes، وملشور أنطونيا Melchor Antuna يشككان في هذا الأمر لبعد هذا العمل عن مجال اهتمامه ونشاطه الفكري[2].

خامسًا: علاقة ابن حيان بالمأمون ذي النون صاحب طليطلة

ولا بد أن نلاحظ أن رؤية ابن حيان للأمراء في عصر ملوك الطوائف عرفت بعض المتناقضات، فها هو يهدي المأمون بن ذي النون 435-467هـ/1043-1074م صاحب طليطلة بهدية ثمينة وهي نسخة من كتابه

(1) ابن خير، فهرسة، ص293، 296، 298؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص567.

(2) انظر: مناقشة ملشور أنطونيا وغارسيه غوماز في مقال هذا الأخير "حول ابن حيان" في مجلة الأندلس: Melchor Antuna – Garcia Gomez, “A proposito de ibn Hayan”, Al-Andalus, XI, 1946, P.401-402.

الكبير، ومن المؤكد أنه المتين[1]، ويصفه بـ "الأمير المؤثل الإمارة، ذي المجدين، الكريم الطرفين"[2].

فعلى ما يبدو أن المأمون بن ذي النون أراد من وراء قبول تلك الهدية من ابن حيان هو كسب وده، ومما لا نستبعده من هذا الاستنتاج أن سبب تلك الهدية من ابن حيان إلى المأمون، هو طلب المأمون نفسه نسخة من هذا الكتاب، فقد هدف من وراء ذلك ألا يتعرض له ابن حيان فيما يكتب إذا علمنا ما كتبه ابن حيان من وصف لمساوئ من سبقوا ابن ذي النون من أجداده ومفاسد حكمهم[3].

رغم تلك العلاقة بين المأمون وابن حيان إلا أنه لم يسلم من نقد ابن حيان له، وسلاطة لسانه عليه، فنجده يكاتب المعتمد بن عباد، ويهنئه بسيطرته على قرطبة 462هـ/1070م، وانتصاره على غريمه المأمون بن ذي النون، الذي كان قد بعث بجنوده لحصار قرطبة 462هـ/1070م، ويصف

(1) كتاب المتين: تحدث عن الفترة من 399هـ/1008م بداية الفتنة البربرية عارضًا لأحداث الدولة الأموية في الأندلس حتى سنة 422هـ/1030م، نهاية الخلافة الأموية في الأندلس، مستمرًا في كتابة تاريخ ما يؤرخ لما أدركه من مدة ملوك الطوائف حتى قبيل وفاته 463هـ/1071م، والمتين تاريخ لما أدرك من أحداث الزمن الذي عاش فيه، فهو شاهد لما رأى وموثقًا لما سمع أو قرأ، وقد اعتمد عليه ابن بسام في كتابه الذخيرة، وأخذ منه نقولًا كثيرة، كما أخذ عنه ابن سعيد، ويشمل الكتاب عصر ابن حيان كاملًا حتى قبيل وفاته أي الأربع والستين سنة من بداية الفتنة البربرية، مسجلًا فيه ما رأى وسمع وقرأ من أخبار الأندلس، وعلاقاتها مع من جاورها، والأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، مع ذكر من عاصره من قادة ووزراء وعلماء وأدباء، مترجمًا للكثير منهم، مضمنًا ذلك قصائد من الشعر الذي قيل في عصره؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص35؛ ابن سعيد، المغرب، ج1، ص123؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص181).

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص578.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص582-585.

المأمون بأسوأ التهم، ويهاجمه بصفات لاذعه، وفي نفس الوقت يمجد ويعظم ويشيد بأعمال المعتمد بن عباد، ويصفه بأروع وأنبل الصفات(1).

هذه التناقضات جعلت من ابن بسام الذي أشاد بمجهود ابن حيان التاريخي، ونقل عنه في كتابه الذخيرة الكثير من الفقرات مستشهدًا بها في مواطن عدة، أن يوجه له انتقادًا لمواقفه المتناقضة من أمراء الطوائف، وتردده في ذكرهم بين المديح والذم، كما نجده ينتقد أحد ملوك الطوائف الذي لم يذكر ابن بسام اسمه، حيث ابتعد عنه الأدباء والمفكرون لبخله، وقلة عطائه لهم(2).

ويمكن تفسير مواقف ابن حيان المتناقضة من بعض ملوك الطوائف فيمكننا أن نستنتج من ذلك أن سبب ذلك التناقض أن أسلوبه في كتابة التاريخ تعتمد على تناوله الأحداث كما هي ويذكر المخطيء والمصيب دون تردد.

كما يمكننا أيضًا أن نستنتج مواقف ابن حيان المتناقضة من ملوك الطوائف أنه كان يخشى ويخاف من بطش ملوك الطوائف به لأدنى سبب وهذا بتغير مواقفهم فتارة يتظاهرون بالعدل، وتارة تنقلب أوضاعهم بصفة جنونية تكون متبوعة بردود فعل عنيفة، والغالب أن هذه السلوكيات هي سمة هذا العصر تجعل من المستحيل على مفكر أو كاتب أو شاعر أن ينجو من ذلك بسبب مواقفه المعارضة، إلا إذا أحسن اختيار الأماكن التي يستطيع من خلالها إبداء آرائه(3).

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص582-584.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص573-574، 586-588.

(3) علي زيان، المؤرخ الأندلسي الكبير ابن حيان مكانته ومؤلفاته (موارده ومنهجه في كتابة المقتبس)، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد السابع، 2013م، ص453.

ارتبط ابن حيان بعلاقات صداقة مع عدد كبير من الوزراء ورجال الدولة خاصة في قرطبة[1]، أما عن حياته الخاصة، فلا تحمل لنا الأخبار القليلة عنه كثيرًا من جوانبها، إلا أن أخباره تنقطع عنا في نحو سنة 463هـ/1071م، وهو قد قارب الخامسة والثمانين، ويبدو أنه قضى سنواته الستة أو السبعة الباقية من عمره آمن السرب في كِسْرِ داره القرطبية، بعد أن أدى رسالته خير ما يكون الأداء، إلى أن انطفأت شعلة هذا القلم في نهاية ربيع الأول 469هـ/ في الثلاثين من أكتوبر 1076م[2].

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص583.

(2) مكي، المقتبس، 1973م، ص55-56.

الفصل العاشر

ابن الحدّاد الأندلسي

ناظر الدولة

الفصل العاشر

ابن الحدّاد الأندلسي ناظر الدولة

أولاً: اسمه وكنيته ولقبه

هو أبو عبد اللـه محمد بن أحمد بن خلف بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم المعروف بالحداد[1]، القيسي[2]، النُّميري[3]، ويلقب بمازن، وقيل اسمه مازن[4].

ثانيًا: ولادته وموطنه

ولد ابن الحداد الأندلسي في وادي آش[5]، إلا أنه استوطن المرية منذ طفولته، فعاش فيها صباه وشبابه، وقضى فيها أكثر عمره، حيث بدأ حياته

(1) وفي لقب ولفظ حداد نجد أن المصادر أشارت إلى أن والده كان يعمل بالحداده؛ (انظر: ابن فضل اللـه العُمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبُوري، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ج17، رقم415، ص281-282).

(2) نسبة إلى قيس عَيْلان بن مُضَر بن نزار بن مَعَدّ بن عدنان، أخي إلياس بن مضر؛ (انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص10)؛ وقيل في لسان العرب مادة (قيس): قيس عَيْلان أبو قبيلة من مُضَر ، وهو لقب واسمه الحقيقي الناسُ بن مُضَر بن نزارة؛ (انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص188).

(3) نسبة إلى نُمَيْر بن عامر بن صَعْصَعَة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عِكْرِمَة بن خَصَفَة بن قيس عَيْلان بن مُضَر؛ (انظر: ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص272، 279).

(4) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن فضل اللـه العُمري، مسالك الأبصار، ج17، رقم415، ص281-286؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص691؛ ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص336-337؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص41؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1974م، ج3، ص283؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1140، ص322-323؛ ابن الأبار، المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983م، ص174؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص143؛ ابن سعيد، رايات المبرزين، ص74؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص48-49.

(5) وادي آش Guadix: ويقال لها أيضًا وادي الأشات أو وادي الأشي، وهي مدينة تابعة لكورة ألبيرة، وتقع شمال شرقي غرناطة على نهر كان يسمَّى بأسمها أيام العرب، ويسمَّى الآن Rio Fardes، حيث تقع بين غرناطة وبجّانة، وتبعد عن غرناطة أربعين ميلًا، وهي مدينة جليلة، يكثر بها التوت والعنب والزيتون والقطن، وزينتها البساتين والأنهار؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج1، ص198؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص110؛ الحميري، الروض المعطار، ص604).

الأدبية والعلمية من مكانة متقدمة، فقد كان نموذجًا بارزًا للاجتهاد والدأب، وحب العلم وأهله، حيث لازم بلاط بني صمادح فاشتهر بمدح رؤسائهم[1]، ورغم أن المصادر لم توضح بشكل مباشر سبب انتقال أسرته من وادي آش إلى المرية، فمن المرجح أن أسرته وصلت إلى مكانة مرموقة في وادي آش جعلتها ذات تأثير ضخم بها، الأمر الذي سرعان ما دفعها إلى معركة عابرة مع الكثير من الحاقدين عليها من أهل الفكر والسلطة في المدينة، مما أفقدها ذلك مكانتها وثروتها، وتسبب في خروجهم من موطنهم، وهو ما ذكره ابن الحداد الأندلسي في إحدى رسائله قائلًا: "ومَطْلَعُنا من أفق، ومَرْجَعُنا إلى تحقّق، وإن كانت أيدي الفتن قد أزعجت أسلافنا عن الوطن (وادي آش)، واغتصبت أملاكنا..."[2].

ثالثًا: حياته العائلية وتحصيله العلم والثقافة ومؤلفاته

أغفل مؤرّخو الأدب الحديث عن عائلة ابن الحداد، باستثناء ابن عبد الملك المراكشي الذي أشار إشارة عابرة إلى أنَّ والدته من أسرة عربية مرموقة بقرطبة تنسب إلى بني تميم: "وأمّه أخت القاضي أبي عمر بن الحذاء"[3].

(1) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق1، م1، ص692؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1140، ص322-323؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، رقم10، ص10-11؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص333؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص602؛ كحالة، معجم المؤلفين، ج8، ص291؛ سالم، تاريخ مدينة المرية، ص77.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص696-697.

(3) هو أبو عمر أحمد بن أبي عبد الله محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يعقوب بن داود التميمي القرطبي المالكي المعروف بابن الحذاء، كان من أبرز رجال العلم والفقه والشعر، عندما وقعت الفتنة بقرطبة نزح عنها وسكن سرقسطة والمرية، ثم تقلَّد أحكام القضاء بطليطلة ودانية، وفي آخر عمره عاد إلى قرطبة، ولكنه ظل يتنقل بينها وبين إشبيلية إلى أن توفي سنة 467هـ/1074م؛ (انظر: ابن بشكوال، الصلة، ج1، رقم133، ص110-111؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص344-345).

وإغفال المؤرخين ذكر عائلة ابن الحداد يعود إلى كونها فقيرةً متواضعة ليست من تلك البيوتات الكبيرة التي وَلِيَتْ مناصب ذات أهمية كبيرة في الدولة، وتلك ظاهرة ليست لصالح أدباء الأندلس ومؤرّخيها الذين لم يكونوا يهتمون إلا بالطبقة الحاكمة ومن يسير في فلكها[1].

ولكننا من خلال تتبعنا لسيرة ابن الحداد نجده ينحدر من أصل عربي مشرقي لجهة الأب والأم معًا، ولكنه كما بينا لم يكن من أسرة ثرية يسَّرَت له المناخ العلمي المشجع، وسمحت له بأن يتأدب على شيوخ عصره أو يقوم برحلة للعلماء، فاستقى بذلك ثقافته عن طريق مطالعة الكتب، ولقد أشار إلى ذلك في إحدى رسائله قائلًا: "إنّي لم أَرِمْ ذَرَايَ، ولا بَرِحْتُ مَثوايَ، ولا أُعمِلَت لي رحلةٌ للعلماء، ولا هِجرةٌ للفهماء"، وبذلك يكون قد اعتمد في تحصيل معارفه وعلومه على ذاته، وإن كان روى عن خاله ابن الحذاء وأفاد منه كما يشير إلى ذلك ابن عبد الملك المراكشي[2].

وفي فترة تأهله العلمي في مدارس الأندلس العلمية وبالتحديد في المرية لمع اسم ابن الحداد الأندلسي القادر على تأليف أبيات شعرية مؤثرة، وكتابة رسائل نثرية رائعة، وعلى الإسهام النشيط في الحياة السياسية في المرية، لكن تفوقه الساحق ظهر حين أقبل على تعلم مختلف العلوم والفنون، وحين اتصل بالعديد من علماء عصره يتلقى منهم المعارف والثقافة، وحين ألف كتابًا عظيمًا في مجال علم العروض سماه بالمستنبط، فابن الأبار يقول:

(1) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص10 من مقدمة المحقق.

(2) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، رقم10، ص10.

"وكان له حظ من التعليم وافر"[1] فيه نظر، لأن ذلك يفيد أن ابن الحداد أخذ عن كثير مـن العلـماء وشيوخ عصره[2].

نتيجة لذلك لم تقف إبداعات ابن الحداد الأندلسي عند حدود أي نمـط مـن أنمـاط العلـوم المختلفة، فكان نموذجًا فذًا في الثقافة، واسع العلم، عميق الإدراك، عَرَفَ كيف يُفيـد بذهنـه المتوقـد الكثير من موروث العرب والإسلام، فكانت له مـشاركة في علـوم العـروض، والفلـسفة، والرياضـيات، والفلك، والنحو، والفقه، والتاريخ، والموسيقى، والغناء فهو الفيلسوف الذي مارس الفلسفة في كل ما كتب وقدم، وكان بمثابة رسول الفلسفة في الأدب العربي الإسلامي، وهو المفكـر الـذي فـتح بجـسارة شديدة كثيرًا من الأبواب المغلقة وسيطر باقتدار بالغ على كل زوايا الفكر المتميزة التـي قـدر لـه أن يوجدها وينشئها وينميها في التفكير العربي الإسلامي الأندلسي، ولقد أدلى في نثره وشعره بـآراءَ قيمـةٍ في هذه العلوم دلت على تضلعه منها وممارسته لها[3].

فهو المزيج ذو الكود الـسري الأمثـل مـن رباعيـات العلـم والفـن والأدب والفلـسفة، وهـو السبيكة النفيسة النادرة في تناسق نسبها بين كل هذه المكونات الأربعة التي يندر أن تجتمع بأقدار مثالية في شخص واحد أو قلم واحد، وكما أن سبيكته عبقرية في جوهرها، فإنهـا عبقريـة في قـشرتها الخارجية بما انصهر عليها من مقادير محسوبة من بلاغة وفصاحة وإشراق ودقة ونعومة.

---

(1) ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1140، ص322.

(2) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص11 من مقدمة المحقق.

(3) لمزيد من التفاصيل انظر: ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص215-216، 220، 285-292؛ ابن بسام، الـذخيرة، ق1، م2، ص703.

فابن الحداد الأندلسي هو النموذج المعبر عن الفن الراقي الذي يدرك عن فهم أصيل مبادئ الصنعة وآفاق التجديد، وهو في الوقت ذاته النموذج البارز للأدب الذي يرتقي بالمعرفة ويوجهها في اتجاهات لم يكن لصاحبها عهد بها قبل أن يقرأ كتاباته.

صنَّف ابن الحداد الأندلسي كتبًا في علم العروض لا نظير لها نبلًا وإفادة، وقد انفرد ابن عبد الملك المراكشي بذكر ثلاثة منها: "المستنبط في علم الأعاريض المهملة عند العرب مما تقتضيه الدوائر الأربع من الدوائر الخمس التي تنفك منها أشعار العرب"، وهو تصنيف حسن، و"قَيْدُ الأوابد وصَيْدُ الشوارد في إيراد الشواذّ والردّ على الشّذّاذ"، و"الامتعاض للخليل"، وهو تصنيف مشهور يمزج فيه صاحبه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية[1]، ومن الغريب أن باقي الذين ترجموا لابن الحداد، منهم من لم يُسَمِّ هذه التصانيف الثلاث كابن بسام واكتفى بالقول: "وله في العَرُوض تأليفٌ، وتصنيف مشهورٌ معروفٌ، مَزَجَ فيه بين الأنحاء[2] الموسيقية، والآراء الخليلية"[3]، واقتصر غيره، ممن ترجموا لابن الحداد، على ذكر مصنف واحد له[4].

---

(1) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، رقم1140، ص10.

(2) يتعذر علينا أن نتصور طبيعة هذه الأنحاء الموسيقية، لأن كتاب "الامتعاض" لابن الحداد من الكتب التي لم تصلنا، ولكنا نقدِّر أن الأصول التلحلينية التي وضعها زرياب وتلامذته ظلَّت أساسًا للغناء الأندلسي، وربما جدَّت تفريعات في شؤون الألحان اقتضتها طبيعة الموشحات والأزجال، كما إن المصادر لم تُشِر بوضوح إلى ما كانت عليه الموسيقى في الأندلس في عصر ابن الحداد، وظلَّت الناحية الموسيقية قبل ظهور ابن باجة فيلسوف الأندلس وإمامها في الألحان غير واضحة المعالم؛ (انظر: ابن سعيد، المغرب، ج2، ص119-120؛ عباس، تاريخ الأدب "عصر الطوائف والمرابطين"، ص50-51).

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص692.

(4) ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص334؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص283؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1140، ص322؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص86؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص502؛ ج7، ص26.

رابعًا: مكانته الأدبية والعلمية

لم تنجب المرية مثل ابن الحداد في الشعر، فقد نجا من كل أنواع التكلف الخلقي والاجتماعي والأدبي والسياسي والفكري، فإنه يمثّل بحقٍّ ثمرة الشاعرية الأندلسية في أزهى عصور الأندلس، ولقد اتفق كثير من النقاد والمؤرخين على أنه أعظم شاعر أَنجَبَته الأندلس، ومع ذلك فإنَّ ما وصلنا عن حياته قليلٌ لا يتناسب ومكانته العالية التي اعترف بها هؤلاء الباحثون[1].

ويندر أن تجد في الفكر العربي الإسلامي من نجح في توظيف ألفاظ اللغة العربية على نحو ما وظفها ابن الحداد الأندلسي في التعبير عن المعاني الدقيقة والمبتكرة على حد سواء، وعلى نفس النمط فعل بقواعد المنطق وبأصول التفكير الفلسفي وبحقائق التاريخ، فقد مكنته دراساته المتصلة وقراءاته المتعمقة من أن يحقق بكل هذه الأدوات مستوى رفيعًا من الفكر الأدبي الراقي.

وهكذا كان ابن الحداد محطّ إعجاب وتقدير المؤلِّفين والمؤرخين والأدباء على اختلاف أجناسهم وألوانهم وعصبيتهم، فابن بسام في الذخيرة يقول فيه: "وكان أبو عبد الله بن الحداد الأندلسي هذا شمسَ ظهيرة، وبَحرَ خَبرٍ وسِيرة، وديوان تعاليمَ مشهورة؛ وَضَحَ في طريق المعارف وُضُوحَ الصُّبحِ المُتَهَلِّل، وضَرَبَ فيها بِقِدحِ ابن مُقبل[2]، إلى جلالة مَقطَع، وأصالة مَنزِع، ترى العلمَ ينمُّ على أشعاره، ويتبين في مَنَازعه وآثاره"[3]؛ وقال فيه

---

(1) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص27من مقدمة المحقق.

(2) هو أبو كعب تميم بن أُبَيٍّ بن مُقبِل بن عوف بن حنيف بن العجلان بن عبد الله بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صَعصَعة؛ شاعر خنديد، أدرك الإسلام وأسلم، إلا أنه ظل يبكي أهل الجاهلية ويذكرها، وكان من أوصف العرب لِقِدح، ولذلك يقال: قِدحُ ابن مُقبل، عده ابن سلام في الطبقة الخامسة من شعراء العرب، وعاش أكثر من مائة سنة، فتوفي بعد 37هـ/657-658م؛ (انظر: ابن سلام، طبقات الشعراء، نشر الألماني جوزف هل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م، ص61؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، 1969م، ص366-368؛ الزركلي، الأعلام، ج2، ص87).

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص691-692؛ المقري، نفح الطيب، ج7، ص26.

أيضًا: "ولزمه (أي لزم المعتصم بن صمادح) جملة من فحول شعراء الوقت كأبي عبد الله بن الحداد"[1].

ويقول فيه ابن خاقان: "شاعرٌ مادح، وعلى أيكِ النَّدَى صادح، لم يُنطِقهُ إلا مَعنٌ أو صُمَاحٍ، فلم يَرِم مَثوَاهُما، ولم يَنتَجِع سِوَاهما... مع تميُّزه بالعلم، وتحيُّزه إلى فئة الوَقَار والحِلم... وكان له لَسَن، ورُوَاءٌ حَسَن، يشهدانِ له بالنَّبَاهة، ويقلدان كاهله ما شاء من الوَجَاهَة، وقد أَثبَتُّ له بعض ما قذفه من دُرَرَه، وفَاهَ به من محاسن غُرَرِه..."[2].

لفت ابن الحداد الأندلسي نظر الكثير من المؤرخين بقدراته العلمية والفكرية، فهو نمط نادر من الكتاب والأدباء والنوادر في تاريخ الآداب العربية والعالمية الذين تتاح لهم فرصة الشهرة المبكرة ولكنهم يؤخرون -عن عمد- انتشارهم من أجل التجويد، ثم إذا هم بعد الوصول إلى أقصى درجات الشهرة والتجويد لا يبخلون على طلابهم ولا على معاصريهم بإنتاج غزير كثيف لا يكف عن الارتقاء والتفوق على كل ما سبقه فإذا هم من قمة إلى قمة، وإذا هم يجمعون ويحرزون ويحصدون تفوقًا في الكم والكيف يصعب أن يفكر أحد في اللحاق به، فحضوره الطاغي غطى حتى على تقييم مجمل أعماله، لأنه أصبح في مخيلة المؤرخين بمثابة المحيط الذي لا يمكن وصف حدوده، ولا تصويرها إلا بالخروج من الكرة الأرضية، ويكفي الأحياء أنهم يجدونه محيطًا بهم من أي ناحية اتجهوا إليها[3].

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص733؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص175؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص190؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص82.

(2) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص336-337؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص49.

(3) ابن سعيد، المغرب، ج2، ص143؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص333؛ القفطي، المحمدون من الشعراء، ص99؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص283؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1140، ص322؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص86؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص366، 502؛ ج7، ص26.

خامسًا: صورة من شخصيته وأخلاقه

كان ابـن الحـداد الأندلـسي ظريـف الطـابع، يتَّـسم بالدعابـة، لطيـف العبـارة، قـادرًا عـلى استخلاص الجمال من مكامنه، وعلى التعبير عنه بمـا يـستحق الجـمال مـن ألفـاظ تليـق بـه، وتليـق بالمجتمع أيضًا، فيذكر ابن الخطيب أن ابن الحداد الأندلسي "فَقَدَ سَكَنًا عزيزًا عليه"، أي فقـد امـرأة كان يحبها فيما يبدو، مما دفعه ذلك إلى البحث عن وسيلة تسليه تبعد عنه الهم والحـزن، وتخرجـه من حالة الاضطراب والاكتئاب التي أصابته، فأسرع إلى مجلس ندمائه، وكان قد رَصَدَ خسوف القمر، وتحقق من وقوعه، فأخذ العود وغنَّى هذين البيتين:

شَـــــقِيْقُكَ غُيِّـــــبَ فِي لَحْـــــدِهِ   وتُــــشْرِقُ يـــا بَــــدْرُ مِـــنْ بَعْـــدِهِ

فَهَـــلَّا خَـــسَفْتَ وكـــان الخُـــسُوْفُ   حِـــــدادًا لَبِـــــسْتَ عـــــلى فَقْـــــدِهِ[1]

وجعـل يـردّدهما ويخاطـب البـدر، فلـم يـتمَّ ذلـك إلا وقـد اعـتراه الخـسوف، مـما جعـل الحاضرين يتعجبون، وينبهرون مما حدث[2]؛ ويستفاد من هذا النص أنَّ ابن الحـداد الأندلـسي كـان إلى جانب معرفته بالفلك والتنجيم، مغنيًا وعازفًا على العود[3].

ومما اتصف به ابن الحداد أيضًا أنه كان يتحيـز إلى فئـة الوَقَـار والحِلْـم، وأنَّ مذهبـه كـان مذاهب أهل الشرف[4]، وقـال القفطـي: "وكـان شريـف الـنفس عزوفهـا"[5]، وقولـه في المعتـصم بـن صمادح صاحب المرية:

(1) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص207.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص334.

(3) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص22من مقدمة المحقق.

(4) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص337؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص49.

(5) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص27من مقدمة المحقق.

وكَــمْ قَــدْ رَأَتْ رَأْيَ الخــوارِجِ فِرْقَــةٌ فَكُنْـــتَ عَلِيًّـــا في حُـــرُوبِ شُرَاتِهـــا[1]

وهنا نجد ابن الحداد الأندلسي، يشبه المعتصم بن صمادح بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ويشبه ملوك الطوائف المناهضين له بالشُّراة أي الخوارج[2] الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وحاربوه، مما يجعلنا ذلك الوصف نميل إلى أن ابن الحداد الأندلسي كان أهل التشيع، وصاحب أفكار فيه.

سادسًا: مركزه في بلاط سلطة المرية

رغم تقرب ابن الحداد الأندلسي من المعتصم بن صمادح حاكم المرية إلا أن الذين ترجموا له لم يحددوا المنصب الذي تبوأه في بلاط المرية، وقد انفرد الذهبي بجعله ناظر الديوان الكبير[3]، وناظر الدواوين بمفهوم القلقشندي، هو الذي يُعَبَّر عنه بناظر الدولة، ويتحدَّث في كلِّ ما يتحدث فيه الوزير، وكلُّ ما كتب فيه الوزيرُ كَتَبَ فيه هو، أي إنّه يشارك الوزير في التصرّف[4].

وقد يقصد الذهبي بالديوان الكبير ديوان الإنشاء، وصاحبه هو كاتب الرسائل، وهو ذو محلّ رفيع وقدر شريف، يكاد أن لا يكون عند الملك أخصُّ

(1) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص166.

(2) لمزيد من التفاصيل عن الخوارج انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق أ. محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج1، ص114-138؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق مفيد محمد قميحة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت،1983م، ج2، ص388وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ج3، ص289-341؛ أحمد محمود صبحي، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1978م، ص19.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص602.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ج4، ص31؛ ج5، ص465.

منه ولا ألزمُ لمجالسته، ولم يزل صاحبه معظمًا عند الملوك في كل زمن، مقدمًا لديهم على مـن عـداه، وهو أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في ليله ونهاره، لا يثق بأحد من خاصته ثقته به، ولا يتولَّى ديوانَ الإنشاء إلا أجـلُّ كُتاب البلاغة، ويخاطب بالأَجَلّ[1].

كما لم يذكروا أنه كان وزيرًا باستثناء النويري[2]، وأيده في ذلك المستـشرقون الأسـبان، فقـال إميليو غرسية غومس: كان ابن الحداد وزيرًا في المرية[3]، وقال أنجل بالنثيا: من شعراء المعتـصم بـن صمادح الوزير ابن الحداد الوادي آشي[4]، وذهب مذهبهما الأستاذان عبد العزيز سالم، وأبو الفـضل، فقال الدكتور عبد العزيز سالم: وأعظم شعراء المعتصم بلا مُنَازعٍ هو أبو عبد الـلـه محمد بن أحمـد الحداد، الذي تقلَّد الوزارة لعلوِّ مكانته[5]، وقال الدكتور أبو الفضل: ارتفعت منزلته عند المعتصم إلى حدٍّ أن أَسنَدَ إليه الوزارة[6].

كما رجح بعض الباحثين أن ابن الحداد الأندلسي كان ناظر ديوان، واستبعد أن يكون وزيرًا، معتمدين في ذلك على شعره الذي يشتكي فيه مـن الـدهر الخـؤون والـذي يعكـس الـصورة التـي انحـطَّ فيهـا أصـحاب الكفـاءات، وهـو

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص89، 101؛ ج3، ص490.

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1976م، ج2، ص266.

(3) Emilio Garcià Gomez, Poemas aràbigoandaluces, 4^{e}, ed, Madrid, 1959,P.35

(4) Angel Gonzales Palencia, Historia de la literatura arabigoespanola, ed, Madrid, P.90

(5) سالم، تاريخ مدينة المرية، ص77.

(6) محمد أحمد أبو الفضل، تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتـى اسـتيلاء المـرابطين عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1981م، ص237.

منهم، وارتفع إلى مناصب دولة المعتصم بن صمادح العليا أهل السَّفَة والجهل[1].

ونحن بدورنا نرجِّح أن يكون ابن الحداد الأندلسي مستشارًا للمعتصم، وأن سلطته تخطت مهام الوزراء والكُتاب، فقد كان بمثابة ناظر دولة المعتصم والمحرك الرئيسي بها، فعلى ما يبدو أن ابن الحداد الأندلسي وصل إلى مركز قوي في بلاط المرية، فلم يكن يكتب رسائل المعتصم لكنه كان يؤلفها، فكان يكتب ما يريد على نحو ما يريد، وهو ما أدى إلى ارتفاع المستوى الفكري لرسائل المعتصم، ورقي مضموناتها، وبقدرتها على الاستشراف والتنبؤ.

سابعًا: سعاية المفكرين به وفراره من المرية

ارتقى ابن الحداد الأندلسي إلى مكانة عالية في بلاط المرية، فغدا رجل البلاط الأول، وشعاره، ومفكره، وكاتبه، لقد أصبح يجمع بالإضافة إلى إعجاب السلطة به، إعجاب الأذكياء والعامة والمتذاكين والمتبسطين، ويجمع بين تقدير المفكرين والمثقفين وطلاب العلم، ويجتمع على تقدير موهبته كل الناس شبابًا وشيبة ورجالًا ونساءً وأطفالًا، ولكنه يضحى بإعجاب أنصاف المثقفين وأنصاف المفكرين.

وإذا هو في كل ما يمارس وينشئ من زاد فكري عميق المحتوى ينسج الخطوط من حرير الوطنية الحقة التي لا تختلط بأي قدر من أقدار الشوفونية، ولا تصطبغ بأي نسبة من الأيديولوجية، إنما هي وطنية راقية متزنة عاقلة مبصرة حفية بكل تقدير وإعجاب، ولهذا فإن صاحبها يتنازل طوعًا عن افتنان أنصاف الوطنيين وأنصاف السياسين.

(1) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص140؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص709-710؛ الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص271-273.

ولذلك لا عجب أن توثقت العلاقة بين ابن الحداد الأندلسي والمعتصم صاحب المرية، وكانت معظم أشعاره في المعتصم، وكثر مدحه فيه من ذلك:

لعلَّكَ بالوادي المُقَدَّسِ شاطئُ فكا لعَنْبَرِ الهِنْدِيِّ ما أنا واطئُ

وإنِّي في رَيّاكَ واجِدُ رِيْحِهِمْ فَرَوْحُ الهوى بين الجوانحِ ناشىء[1]

لم يكن ابن الحداد ذا رحلة إلى الملوك، بل اقتصر على المرية وظل وفيًا لها لا يبغي بها بديلًا حتى وفاته، وهو إن خرج منها مُكرَهًا إلى مرسية[2] وسرقسطة كان بسبب مُطالبةٍ نَالَته.

ولم يُعرف سبب تلك المطالبة بالتحديد، إلا أنه يمكننا أن نتبين من خلال رواية عبد الملك المراكشي أن نحدد بعض أسباب ما حدث لابن الحداد الأندلسي، حيث بدأت علاقته تدهور بالسلطة في المرية عند قام أخوه بقتل رجل، وفر هاربًا، دون أن يعرف مكانه، ونتيجة لذلك اتهم ابن الحداد الأندلسي أنه هو المسئول عن ذلك، وأنه استغل سلطته ومركزه في بلاط المرية لمساعدة أخيه على ارتكاب تلك الجريمة، كما ساعده على الهروب من أيدي العدالة، فطالب أهل القتيل بالثأر من ابن الحداد الأندلسي، كما طالبوا المعتصم بن صمادح أن يأخذ حقهم من مستشاره، مما دفع ذلك ابن الحداد إلى الهروب والاختفاء، حتى قبض على أخيه واعتقل، إلا أنه لم يعد إلى

---

(1) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص207.

(2) مرسية Murcia: مدينة بشرق الأندلس من كورة تدمير، تقع على نهر كبير، وقد بناها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة 216هـ/831م، فخلفت تُدمِيرَ، وأصبحت كورة تدمير تسمى كلها باسمها، وكانت القاعدة قبلها أُريُوله، وهي ذات أشجارٍ وحدائق مُحدقةٍ بها، وكان بها منـزلُ ابـن مَردَنِيش Martinez، فانعمرت في أيامه حتى صارت قاعدة الأندلس؛ (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج5، ص107؛ الحميري، الروض المعطار، ص539؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص331؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ج2، القاهرة، 1955م، ص285؛ أرسلان، الحلل السندسية، ج1، ص74-76).

سابق مركزه في المرية، حيث ظل في صراع مع المعتصم بن صمادح الذي جد في البحث عنه[1].

وجد ابن الحداد الأندلسي نفسه مضطرًا للإسراع بالخروج من موطنه المرية، فكانت وجهته مرسية، ثم عبر منها إلى سرقسطة، فدخلها سنة 461هـ/1069م، حيث لاقى أعظم استقبال وترحيب من قبل المقتدر بن هود[2] حاكمها، فارتفعت مكانته في سرقسطة وتوثقت علاقته بحاكمها، الذي صب عليه المكافآت والعطايا صبًا، فأقام مدة كبيرة في رعايته وحمايته، حيث اغتنم المقتدر بن هود قدومه إليه، فضمه إلى بلاطه لمكانته العلمية والثقافية في الأندلس من جهة، ومن أجل منافسة بلاطات ملوك الطوائف الأخرى من جهة أخرى[3].

قابل ابن الحداد الأندلسي تلك المعاملة من قبل المقتدر بن هود بأن أكثر من مدحه في أشعاره، كما امتدح ابنه الحاجب المؤتمن[4]، ورغم أن ابن

---

(1) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص11.

(2) هو أحمد بن المستعين سليمان بن أحمد بن هود عميد بني هود وعظيمهم، وَلِيَ سرقسطة سنة 438هـ/1046م بعد موت أبيه سليمان، وكان له الغزوات المشهورة والوقائع المذكورة، إلا أنه ضرب على رعيته ضريبة مال للروم، واستمر في الحكم إلى أن توفي سنة 475هـ/1082م بسرقسطة؛ (انظر: ابن سعيد، المغرب، ج2، ص618-619؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص160-171-172؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص222-229؛ ج4، ص54-55؛ Afif Turk, El reino de Zaragoza en el Siglo XI de Cristo (v de la Hégira), Madrid, 1978,P.75-122).

(3) عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص11.

(4) هو يوسف بن المقتدر، وقد ولي الحجابة لأبيه، وبعد مهلك أبيه 475هـ/1082م، ولي مملكة سرقسطة فتصيَّر له مُلك الثغر كله، وكان قائمًا على العلوم الرياضية وله فيها تآليف منها "الاستكمال" أو "الاستهلال" و"المناظر"، وكان بينه وبين المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية، ما يكون بين الفحول في الهَجَمَات، والليوث في الأَجَمَات، لذلك لحقَ به ابن عمار الشاعر الشهير لما خالف على المعتمد بن عباد، استمرت أيامه في الثغر إلى أن هلك سنة 478هـ/1084م، فولي بعده ابنه المستعين أحمد بن المؤتمن، فلم يزل المستعين بن هود أميرًا بسرقسطة إلى أن هلك شهيدًا في سنة 503هـ/1110م بظاهر سرقسطة في زحف الطاغية الإسباني إليها؛ (انظر: ابن سعيد، المغرب، ج2، ص437؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ق2، ص172؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ج4، ص55؛ Turk, El reino de Zaragoza, P123-144).

الحداد الأندلسي وجد في بلاط بني هود الراحة المادية والجسدية إلا أنه لم يجد الراحة النفسية والذهنية لتعلق قلبه وفكره بموطنه المرية[1].

لم يكن غضب المعتصم صاحب المرية على ابن الحداد الأندلسي بسبب فعل أخيه القاتل، فقد كان هذا سبب ظاهري، لكن السبب الخفي وراء بحث المعتصم عن ابن الحداد الأندلسي هي تلك الأبيات الشعرية التي هجا فيها المعتصم، واتهمه بأن شَرَّهُ بَعدَ جميله واقعٌ لا محالة، واتهمه بالجبن وقلة الجود، كما دعا فيها نظراءه من الشعراء طَالِبِي المعروف إلى ترك بلاطه؛ لأنها باتت كريهة تهدِّدُهم وتُنَغِّص عليهم عيشهم، فقال:

يا طالبَ المعروفِ دُونَكَ فاتْرُكَنْ ... دار المرية وارفُضِ ابنَ صُمادِحِ

رَجُلٌ إذا أَعطَاكَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ ... أَلْقَاكَ في قَيْدِ الأَسِيْرِ الطَّائِح

لو قد مَضَى لكَ عُمْرُ نُوْحٍ عِنْدَهُ ... لا فَرْقَ بينكَ والبعيدِ النَّازِحِ[2]

غاظت المعتصم تلك الأبيات، فجد في البحث عنه في كل مكان إلا أنه فر إلى بني هود كما أشرنا، ولكن يمكننا أن نؤكد من خلال تحليل المصادر المختلفة أن تلك الأبيات التي هجا فيها ابن الحداد، المعتصم لم يلقيها إلا لما يأس من عفو المعتصم عنه، فقد كان السبب الحقيقي والخفي وراء سوء العلاقة بين المعتصم ومستشاره ابن الحداد سعايات المفكرين به، فعلى الرغم من علاقاته الطيبة ببعضهم إلا أنه حصد عداوة بعضهم، وهم الذين استغلوا فرصة توتر العلاقات بينه وبين المعتصم، بسبب فعل أخيه فأشعلوا نيران الغضب في صدر المعتصم عليه، مستغلين فرصة غيابه عن البلاط، خوفًا من الثأر منه، وهم أهل القتيل الذي لَفَظَ أنفاسه الأخيرة على يد أخيه.

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص692، 725.

(2) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص184؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص505.

وإذا بحثنا عن هؤلاء الساعين به يتبين لنا من خلال شعره أنه لم يكن على علاقة حسنة بمعاصريه ابن اللبانة[1] والسُّمَيْسر[2]، فذكر ابن خاقان أن ابن الحداد الأندلسي حضرَ مجلسَ المعتصم بن صمادح بحضور ابن اللبانة، فأنشد هذا في المعتصم قصيدةً أبرز به من عُرَى الإِحسان ما لم يَنفصِم، واستمر فيها يستكمل بدائعها وقوافيها، فإذا هو قد أغار على قصيد ابن الحداد الذي أوله:

عُــج بــالحِمَى حيــثُ الغِيَــاضُ[3] الغِــيْنُ[4] فَعَــسَى تَعِــنُّ لنــا[5] مَهَــاهُ[6] العِــيْنُ[7]

فارتجل ابن الحداد عندئذ أبيات قال فيها:

---

(1) هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، ولد في دانية، ونسب إلى أمه التي كانت تبيع اللبن، كان أشعر أهل زمانه، وفد على ملوك الطوائف ومدحهم، وحين وفد على المعتمد بن عبَّاد ظل ملازمًا له مادحًا إياه، مستقرًا في كنفه حتى استولى المرابطون على إشبيلية، وسجنوا المعتمد، وظل الشاعر وفيًا كل الوفاء للمعتمد، وتشهد على ذلك أشعاره التي خاطبه بها في سجنه أو التي رثاه بها بعد موته؛ (انظر: ابن بسام، الذخيرة، ق3، م2، ص666؛ ابن دحية، المطرب، ص178-179).

(2) أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري المعروف بالسميسر، كان من شعراء إلبيرة (غرناطة)، ثم غادرها، لأنه لم يطق العيش في ظل أمرائها بني زيري، ولجأ إلى بلاط المعتصم بالمرية. توفي سنة 480هـ/1087م؛ انظر: (ابن سعيد، المغرب، ج2، ص100؛ مريم قاسم طويل، مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح 443-484هـ/1051-1091م، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م، ص115).

(3) جمع غَيضة وهي الأجمة ومجتمع الشجر.

(4) الكثيرة الورق الملتفة الأغصان.

(5) أي تظهر أمامنا.

(6) جمع مَهَاة وهي البقرة الوحشية.

(7) جمع عَيْنَاء وهي الواسعة العين أو التي عَظُمَ سوادُ عينها في سَعَة، وهنا يستفتح الشاعر مديحه بالغزل على طريقة شعراء الجاهلية؛ (انظر: ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص265؛ الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص278؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص144؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص101).

حَاشَــا لِعَــدلِكَ يــا ابــنَ مَعْــنٍ أنْ يُــرَى   فِي سِـــــلْكِ غَـــــيْرِي دُرِّيَ المَكْنُـــــونُ
وإلَيْكَهَـــا تَـــشْكُو اســـتلابَ مَطِيِّهــــا: عُــجْ بــالحِمَى حَيْــثُ الخــمِاصُ[1] العِــيْنُ
فــاحكُمْ لهــا واقطَـــعْ لِـــسَانًا لا يَـــدًا   فلـــسانُ مَـــنْ سَرَقَ القـــريضَ[2] يَمِـــيْنُ[3]

وهو في تلك الأبيات يحثُّ المعتصم على معاقبة ابن اللبانة، لأنه أغار على قصائده وسرق منها دُرًّا مكنونًا لا نظير له، بل ويطلب من المعتصم أن يحكم بقطع لسان ابن اللبانة لا بقطع يده اليمنى، لأن لسانه هو الذي سرق القريض، وليس يَمِيْنُه، وهذا دليل على مدى الخصومة بينهما.

وإذا كانت تلك هي علاقته بابن اللبانة، فإن علاقته بالسُّمَيسر يمثلها بيت قاله في هجاء السميسر[4] ردًا على بيتين قالهما هذا الأخير في هجاء ابن الحداد، حيث وصف السميسر فيهم ابن الحداد بأفظع الأوصاف[5].

لذلك فإننا نؤكد على أن ما حدث بين ابن الحداد الأندلسي والمعتصم صاحب المرية نتيجة السعاية به والتحريض عليه، بسبب تقربه من المعتصم بن صمادح، حيث حسده العديد من الأشخاص، فأرادوا الإيقاع به عند مليكه، وبالفعل نجحوا في ذلك، فكان من الطبيعي أن يغتاظ المعتصم من شاعره ليأخذ قراره بالتخلص منه، وكانت محنة ابن الحداد محنة غيره من شعراء

---

(1) جمع خَمْصانة وهي الضامرة البطن.
(2) الشعر.
(3) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص263؛ ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص338؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص49-50.
(4) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص243؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص904.
(5) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص894.

الأندلس الذين اضطهدوا أو قُتلوا أو شردوا طوال حياتهم، وخير ما يصور محنة الشعراء في عصر ابن الحداد بيتان قالهما أحد أدباء قرطبة:

الحمـــــــدُ لله عـــــــلى أنَّنـــــــي كَـــــــضِفْدَع في لُجَّـــــــةِ الـــــــيَمِّ

إن هِـــيَ قالـــتْ مَـــلَأتْ حَلْقَهـــا أو سَـــكَتَتْ ماتـــتْ مـــن الغَـــمِّ[1]

أقام ابن الحداد في سرقسطة في بلاط احتفى به وعمل على تحقيق كل ما يتمناه، غير أنه لم يجد في سرقسطة الراحة النفسية خاصة وأن أخاه مازال حبيسًا في المرية، فقد كان ابن الحداد شديد التعلق بأهله وموطنه المريـة، إذ ظـل يحـنُّ إلـيهما وهـو في الغربـة، لا يقـوى عـلى مفـارقتهما؛ لأن اشتياقه إليهما بات كبيرًا[2]، لذلك لم ييـأس في طلـب العفـو مـن المعتـصم، فغـازل المعتـصم بأبيـات شعرية ذكره فيها بالماضي، وحاول فيها أن يخاطب وده وقلبه وعقله، فقال:

وســما إلى المُلـــكِ الـــرضى ابـــنُ صُـــمادح[3] فـــأدالني بالـــسُّخطِ مـــن رضوانـــهِ

وهـــوى بَنجمـــي مـــن ســـماءِ سَنَائِـــهِ وقـــضى بحطـــي مـــن ذُرى ســـلطانِهِ[4]

نجح الشاعر ابن الحداد أن يستثير في المعتصم عطفه، ويستلين قلبه، فلما بلغت الأبيات إلى المعتصم قال "شعره أعقل منه، صدق؛ فإنه لا يتهيأ له صلاح عيش إلا بأخيـه، وهو بمنزلة الـسنان مـن الـرمح" ثـم أمـر

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، رقم829، ص522؛ ابن بشكوال، الصلة، ج3، رقـم1391، ص904-905؛ الـضبي، بغيـة الملتمس، ج2، رقم1383، ص631.

(2) ابن الحداد الأندلسي، ديوان، ص210.

(3) الرضى بن صمادح: هو المعتصم ملك المرية.

(4) ابن حـداد الأندلـسي، ديـوان، ص301-302؛ ابـن بـسام، الـذخيرة، ق1، م2، ص724-725؛ محمـد سـعيد، سراج الأندلس دراسة تحليلية للشفاعات الدنيوية في عصر ملوك الطوائف (400-483هـ/ 1010-1090م)، دار أقـلام عربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2021م، ص197.

بإطلاقه، ولحاقه به[1]، فعفا المعتصم عن أخيه، كما سامح الشاعر ابن الحداد على ما بدَر منه[2].

لم يكتفِ المعتصم بالعفو عن أخو ابن الحداد فحسب، بل عفا عن ابن الحداد نفسه وسمح له بالعودة إلى موطنه ومعشوقه المرية، وهكذا لم يكن ابن الحداد كغيره ممن ماتوا غمًا خارج بلدهم، إذ نجا من العاقبة وعاد إلى المعتصم بعد رحلة إلى سرقسطة لم تستغرق طويلًا، حيث عاد إلى المرية سنة 464هـ/1072م، فقصر أشعاره ومدائحه على المعتصم دون غيره من ملوك الطوائف، كما أن المعتصم عاد فأجزل له العطاء، واحتفى بعودته إليه[3].

لم تتناول المصادر حياة ابن الحداد بعد عودته إلى المرية بالتفصيل، فانقطعت أخباره دون أن نهتدي إلى السنة التي ولد فيها، أو نتعرف معالم طفولته وشبابه، أو نحدد الشهر واليوم اللذين توفي فيهما، غير أننا نؤكد أنه ظل مقيم في المرية في كنف حاكمها، وفي ظل بلاطها، حيث أجمعت المصادر على أن شعلة هذا الرجل الفذّ انظفأت في المرية في سنة 480هـ/1086-1087م[4].

(1) المقري، نفح الطيب، ج4، ص49.

(2) سعيد، سراج الأندلس، ص197.

(3) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص728؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص11؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1140، ص322-323.

(4) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص283؛ الذهبي، الوافي بالوفيات، ج2، ص86؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص728؛ عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس، ص11؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، رقم1140، ص322-323.

الفصل الحادي عشر

السُّميسر

بائع البر

الفصل الحادي عشر

السُّمَيْسِر بائع البر

أولاً: اسمه وكنيته ولقبه

على كثرة ما عنيت كتب التراجم ومعاجم الأعلام بالتأريخ للأدباء، فإن السُّمَيْسِر لم يحظ بترجمة تتقصى أبرز أطوار حياته، ولعل ذكره هكذا في زمنه كان كافيًا للتعريف به لشهرته يومئذ، فلم تختلف المصادر وكتب التراجم التي تحدثت عن السُّميسر حول كنيته واسمه واسم أبيه ولقبه، وإنما اتفقت على أنَّ كنيته أبا القاسم، واسمه خلف، واسم أبيه فرج، فقالوا: "أبو القاسم خلف بن فرج"[1]، وأمّا لقبه السُّمَيْسِر، وهو مصغر سمسار، ومعناه: بائع البر أو من يتوسط بين الناس في البيع والشراء[2]، ومع أننا لا نعرف من الذي أطلقه عليه، إلا أنه غلب عليه واشتهر به، حتى إن بعض الذين ترجموا له من القدماء كانوا يكتفون بالقول "السُّميسر"[3]، ومن المؤكد أن سبب ذلك اللقب أنه كان يعمل بحرفة التجارة، وأنه اتخذ من الوساطة في البيع والشراء بين الناس مهنة أساسية لكسب العيش، وتحقيق مكاسب مادية تساعده في الحياة، وتجلب له الراحة والطمأنينة في حياته، ولذلك اشتهر بذلك اللقب ولصق به طوال حياته وحتى بعد مماته.

كما أضاف معظم الذين ترجموا له من المؤرخين والأدباء القدماء لفظة الإلبيري إلى سلسلة نسبه، فقالوا: "أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري المعروف بالسُّميسر"[4]، وهم بهذا ينسبوه إلى مدينة إلبيرة.

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص882؛ أحمد بن محمد السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق دكتور إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، 1963م، ص28، 83، 123؛ الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص167؛ ابن دحية، المطرب، ص93؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص100؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص293.

(2) السِّمسارُ: أصلها كلمة فارسية، استخدمها العرب زمن الجاهلية، والجمع السَّمَاسِرَةُ، وفي الحديث أن النبي صلى اللـه عليه وسلم، سماهم التجار بعدما كانوا يعرفون بالسماسرة، وهو في البيع اسم للذي يدخل بين البائع والمشتري متوسطًا لإمضاء البيع؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص380-381).

(3) ابن فضل اللـه العُمري، مسالك الأبصار، ص463؛ المقري، نفح الطيب، ج1، ص227، 291، 302؛ ج4، ص20.

(4) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص882؛ السلفي، أخبار وتراجم، ص28؛ الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص167؛ ابن دحية، المطرب، ص95؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص100.

ثانيًا: ولادته وموطنه

مع أنَّ الذين ترجموا للسُّميسر نسبوه إلى إلبيرة كما أشرنا، إلا أن أيًا منهم لم يورد شيئًا عن مكان ولادته وزمانها، ولكننا حينما نعود إلى ما وصل إلينا من شعره نجد فيه ما يشير إلى أن غرناطة احتضنته جنينًا أو كانت مسقط رأسه، إذ كان يعبر عن حنينه إليها، وعن تعلقه بها دون غيرها من البلاد، فيقول:

قالوا أتسكُنُ بلدَةً نفْسُ العزيز بها تَهونُ؟
فأجبتُهم بتأوُّهٍ كيف الخلاصُ بما يكونُ؟
غرناطةٌ مَثوى الجَنينِ يلذُّ ظلمتهُ الجَنينُ؟[1]

وفي ضوء ذلك إذن نستطيع أن نؤكد أن شاعرنا السُّميسر إلبيريّ النسب، لأن أصل أسرته من إلبيرة فنُسب إليها، غرناطيُّ المولد والنشأة، وأما نشأته الأولى في كنف والديه وأُسرته، وأقرانه الذين تعامل معهم في مراحل حياته المبكرة، وشيوخه الذين تتلمذ عليهم، فكلها جوانب غامضة لم يكشف لنا عنها الذين ترجموا له، ولعل ذلك مردّه إلى أمور ومنها: أنّ السُّميسر كان من الشعراء الهجّائين المقذعين، وأمثال هؤلاء لم يلقوا من المؤرّخين وكُتّاب التراجم والسير في الأندلس اهتمامًا وعناية، وإنما وقفوا منهم موقف المعارض الرافض لنقل أخبارهم ومعظم أشعارهم، ومنها أيضًا أنّ السُّميسر

(1) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص887.

نفسه لم يحدّثنا عن هذه الجوانب الضرورية من حياته في شعره الذي توافر لنا[1].

ومع أن المصادر وكتب التراجم التي بين أيدينا لم تحـدّثنا عـن أُسرة السُّميـسر المكوّنـة مـن زوجة وأولاده، إلا أننا نجد في شعره ما يؤكد أنّه لم يتزوج، ولم ينجب، وذلك يتضح من خلال قوله:

يَمنَعنـــــي مِـــــن تكـــسُّب الولــــدِ   عِلْمـــــي بـــــأنَّ البَنــــيَن مِــــن كبـــدِي

فــــإنْ يعيـــــشوا أعِــــش ظَلـــــعٍ   وإنْ يموتــــوا أمـــــت مِــــن الكمَـــــد

وإنْ أمُــــــتْ قَـــــبلهم تــــــركتُهمُ   أهــــونَ بـــينَ الأنـــامِ مِــــن وَتِـــدِ[2]

ثالثًا: مكانته العلمية والأدبية

عاش السُّميسر عصر ملوك الطوائف، فعاصر بعض إيجابياته، واحتـك بـالكثير مـن سـلبياته خاصة تفكك وحدة الأندلس السياسية، فقـدر لـه أن يعـيش رمـزًا للتجديـد أو بمعنـى أدق محاولـة التجديد الذي كان عصره قد انتهى، وللتعبير المجيد عن المشاعر الرقيقة والنادرة.

عاش هذه الحياة علمًا في السياسة والأدب والشعر وفنون القول جميعًا، كان يحاول أن ينقد برقة، وأن خانه النقد في كثير الأحيان، فجلب له كثير من المتاعب والمصاعب، كما حاول أن يعلق بدقة، ويـستقرئ الأحداث، ويحلل النوازع، ويحرص على كل ما من شأنه أن يحقق أمله في توحد الأمة الأندلسية التي هو ابن من أبنائها، كما كان يحـرص بالقـدر ذاتـه أن ينفـي عنهـا التمـزق، فقـد كـان مـن الـشعراء الـذين اشـتهروا بالمقطوعـات، وقلـما جـادت قريحتـه بقـصيدة، ويبـدو أنـه غلـب عليـه -وأكـثر شـعره هجـاء خاصـة-

(1) حلمي إبراهيم عبد الفتاح الكيلاني، السميسر: حياته وشعره، العدد الأول، مؤتة للبحـوث والدراسـات، سلـسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة مؤتة، 1992م، ص105.

(2) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص896.

حدة الطبع، وشدة القلق، وسرعة الانفعال، وهي صفات نفسية تحول -عادة- دون الإتيان بالمطولات الشعرية، وهو ما فطن له ابن بسام حين نبه على أن السُّميسر ذو طبع حسن، وداهية عصره، وتصرف مستحسن في مقطوعات الأبيات، وخاصة إذا هجا وقدح، وأما إذا طول ومدح فقلما رأيته أفلح[1].

من خلال المصادر القليلة التي أشارت إلى السُّميسر يمكننا أن نؤكد أنه خرج إلى الحياة الفكرية متسلحًا بالعلم والفهم والفكر والمنهج، ولكنه مع هذا كان جادًا في ردود أفعاله على نحو ما كان جادًا في عروضه، وكان لا يمانع في الإسراع إلى فتح باب الخصام على نحو ما كان لا يمانع في الاندفاع إلى إطلاق الأحكام، وكان قادرًا على الجدل والهجوم وإعادة الهجوم، وكان يفعل هذا كله بتلقائية غريبة، وبقدرة متناهية على الانتصار لما يراه صوابًا، وهو ما أفقده الكثير من مكانته لدى السلطة، إلا أنه ظل المفكر المعبر عن أحاسيس وواقع المجتمع الذي يعيش فيه.

لم يكن السُّميسسر عف اللفظ، ولم يكن عف القلم أيضًا، حيث اتصف بسلاطة اللسان، وقوة البنيان، ولقد برع في الهجاء وبلغ فيه شأوا بعيدًا، وتأتت له في ملكة فذة أظفرته بناصيته، وأقدرته على التصوير الدقيق الوجيز الذي يكون جامعًا مانعًا، ولا يدع مزيدًا لمستزيد، لذلك لن أكون مغاليًا إذا أوضحت أن شعرًا كثيرًا للسُّميسر في الهجاء قد حرمناه، وأن أكثر ما حيل بيننا وبينه أملته أسباب أخلاقيه بحتة، وها هو ابن بسام يعلن ذلك صراحة، فيقول: "وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح في أهل عصره صنت الكتاب عن ذكره"[2].

(1) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص882-883.

(2) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص883؛ بنيونس الزاكي، شعر السميسر: أبي القاسم خلف بن فرج الإلبيري، العدد الأول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996م، ص209.

مع أنّ معظم الذين ترجموا للسُّميسر وحفظوا شعره أكدوا أنه كان شاعرًا مكثرًا، وخاصة في الهجاء، إلا أننا مع ذلك لم نعثر على ديوان مجموع يضم شعره، ولم أقع على ذكر له فيما توافر لي من كتب التراجم والفهارس العامة، ولكننا وجدنا في بعض المصادر إشارات تفيد أنّ السُّميسر ألـف كتابًـا أسماه "شفاء الأمراض في أخذ الأعراض"، فيقول العماد الأصفهاني: "... وله كتاب لقبه: شفاء الأمـراض في أخذ الأعراض"[1]، ويقول ابن دحية في المطرب: "... له مجلدات سـماها بـــ شـفاءالأمراض في أخـذ الأعراض"[2]، ويبدو لنا أنّ السُّميسر قد جمع شعره، وخاصة الهجائي منـه في هـذا الكتـاب، إلا أنَّ أيًـا من الذين ترجموا له، وتحدثوا عن شعره لم يذكر أنـه رأى الكتـاب المـذكور أو نقـل عنـه شـيئًا مـن شعره، إذ ربما يكون قد فُقد من تراثنا العربي[3].

رابعًا: حياته في غرناطة والمرية

كما أشرنا لم تسعف أشعار السُّميسر بما يمكن أن يستعان به على تركيب ترجمـة لـه، سـوى أنه كان يحيا حياة مضطربة لا يشوبها استقرار، ويعاني قلقًا دائمًا لا يصحبه اطمئنان فضلًا عن طموح كبير في تحقيق ذاته داخل مجتمع كانت أجواؤه كدرة لا يجلوها صفاء.

فعلى الرغم من قلة الأخبار التي وصلت إلينا عن حياة السُّميسر في ظل حكام غرناطة مـن البربر وصلاته بهم، إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نرجح أنه نبغ بغرناطة، واكتملت شخصيته ومواهبه في ظل حاكمها باديس بن حبوس الذي حكم من سنة 429هـ/1037م إلى سنة 467هـ/1074م، ذلك لأننا نجـد في شـعره الـذي وصـل إلينـا مـا يـدل عـلى أنـه كـان صـاحب موقـف مـن قـضايا عـصره

(1) العماد الأصفهاني، خريدة القصر، ج2، ص167.
(2) ابن دحية، المطرب، ص96؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص108.
(3) الكيلاني، السُّميسر، ص109.

ومجتمعه من ناحية، ومن حكام غرناطة البربر من ناحية أخرى، إذ كان يشارك في توجيه الرأي العام ضدهم.

حيث كان الهجاء لدى السُّميسر له قيمة أخلاقية، فقد كان ذمًا للرذيلة، وتقبيحًا للقبيح، وذلك في هجائه لأعدائه وخصومه، وإن تجاوز بعض الشيء في حق بعض المفكرين من أمثال ابن الحداد الأندلسي، فإذا تناولنا شعر السُّميسر بالدراسة والتحليل وجدناه حقًا كثير الهجاء، والذي يبدو لي من هجائه أنه ساخط على الواقع الذي يعيشه، فهو غير مندمج بالمجتمع الذي حوله، فيقول:

ضِعْتُ في مَعْشَرٍ كما ضَاعَ نوحٌ ... بينَ قَوْمٍ قد أصبحوا كُفَّارْ

ضَرَبُوه وما ضُرِبْتُ ولكنْ ... جَعَلُونِي مِمَّنْ يُنَافِرُ دَارَهْ

فتأخَّرتُ عن دِيَارِي لهوني ... والهُوَينا لِمَن يُخَلِّي دِيَارَهْ[1]

ومن الجدير بالذكر هنا، أنّ المصادر وكتب التراجم التي توافرت لنا، لم تحدثنا بشيء ذي بال عن صلاته بحكام وسلطات غرناطة من البربر، ولا عن مكانته عندهم على الرَّغم من إقامته غير القصيرة في كنفهم، كما أننا لا نجد في شعره ما يدل على أنه كان على علاقة طيبة بهم، وإنما نجد ما ينم عن عدم رضاه عنهم، وعن سياسة دولتهم القائمة على التسلط والاستبداد، ولذا فإننا لا نجد فيما وصل إلينا من شعره مقطوعة واحدة -على الأقل- في مدحهم والثناء عليهم[2].

عاش السميسر في غرناطة يتنقل فيها من مكان لآخر، ينعم وسط أشجارها المخضرة، ويستنشق رائحة أزهارها المتفتحة، إلى أن وجّه سهام

(1) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص895.

(2) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص885؛ الكيلاني، السميسر، ص106.

نقده إلى حكّامها، وجهر بموقفه الصريح منهم ومن سياستهم، وخاصة حينما أدرك أنهم استبدوا دون العرب بحكم غرناطة، واستعانوا بعناصر غير إسلامية من اليهود والنصارى، في تدبير شؤون دولتهم، إذ اتخذوا منهم وزراء وكُتاب، وهو ما دفعه إلى هجاء باديس بن حبوس صاحب غرناطة فقال:

رأَيْتُ آدَمَ فِي نَوْمِي فقلتُ لَه أَبَا البَرِيَّةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا

أَنَّ البرَابِرَ نَسْلٌ مِنْكَ قَالَ إِذَنْ حَوَّاءُ طَالِقَةٌ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا[(1)]

وهو ما أغضب صاحب غرناطة باديس بن حبوس الذي اشتهر بالقسوة وسفك الدماء[(2)]، لذا فقد هرب السُّميسر من موطنه غرناطة ناجيًا بنفسه من سخط باديس حاكم غرناطة إلى المرية حاضرة بني صمادح[(3)].

ورغم أن المؤرخين وكتاب التراجم الذين اهتموا بالحديث عن السُّميسر لا يختلفون حول أسباب هروبة من غرناطة إلى المرية، إلا أنهم يختلفون في عهد مَن مِن حكام غرناطة كان ذلك؟!.

فالسلفي يرى أن السُّميسر هرب من غرناطة في عهد باديس بن حبوس، فيقول: "... كان لباديس بن حبوس الحميري صاحب غرناطة وزير يهودي[(4)] فهلك واستوزر بعده نصرانيًا، فقال أبو القاسم خلف بن فرج

(1) المقري، نفح الطيب، ج3، ص412؛ محمود محمد العامودي، شعر السميسر أبي القاسم خلف بن فرج الإلبيري ت480هـ العدد2، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، غزة، 2001م، ص466.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص436؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص87؛ رينهارت دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كمال كيلاني، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 2012م، ص57.

(3) ابن بسام، الذخيرة، م1، ق2، ص885؛ الكيلاني، السميسر، ص106.

(4) هو أبو الحسين يوسف بن إسماعيل بن نغرالة توفي سنة 459هـ/1066م؛ وزر لباديس بن حبوس صاحب غرناطة بع أبيه إسماعيل، وكان قد استأثر بعطف باديس وثقته إلى أن ثار عليه أهل غرناطة وقتلوه، ولما قتل استوزر باديس النابة النصراني، وهو من عبيد المعتضد بن عباد، وكان متهمًا في المؤامرة التي دبرها ضده ولده إسماعيل، ففر من إشبيلية والتجأ إلى باديس وخدمه وحظي عنده، وكانت المنافسة بينه وبين ابن النغرالة شديدة؛ (لمزيد من التفاصيل انظر: الأمير عبد الله، التبيان، ص85-87؛ ابن حزم، رسائل، ج3، ص7-15؛ ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص767؛ ابن سعيد، المغرب، ج2، ص115؛ عنان، دولة الإسلام، ج2، ص136-140).

الإلبيري الشاعر المنبوز بالسُّميسر ثلاثة أبيات وكتب بها نسخًا عدّة ورماها في شوارع البلد والطرقات وسار من ساعته إلى المرية معتصمًا بالمعتصم بن صُمادح، وطارت الأبيات في أقطار الأندلس، ولما وقف باديس عليها أرسل وراءه أصحاب الخيل، ففاتهم ولم يلحقوه"[1].

ومن هنا يتبين لنا إذا علمنا أنّ يوسف بن النغرالة اليهودي قد قتل سنة 459هـ/1066م، وحل محله النابة النصراني، فهذا يعني أنّ السُّميسر من المؤكد أنه يكون قد غادر غرناطة هاربًا إلى المرية في هذه السنة، أو بعدها بقليل، وأما المقري في نفح الطيب، فيرى أنَّ السُّميسر قد غادر غرناطة في عهد الأمير عبد الله بن بلقين، وذلك إذ يقول: "... ولما بلغ المعتصم أنّ خلف بن فرج السُّميسر هجاه احتال في طلبه حتى حصل في قبضته، ثم قال له: أنشدني ما قلت فيّ، فقال له: وحق من حصلني في يدك ما قلت شرًا فيك... فنذر ابن بلقين صاحب غرناطة دمي، فخرجت هاربًا إلى بلادك فوضع عليّ من أشاع ما بلغك عنّي لتقتلني أن فيدرك ثأره بك، ويكون الإثم عليك، فقال له (المعتصم): وما قلت فيه خاصة مضافًا إلى ما قلته في عامّة قومه؟! فقال: لما رأيته مشغوفًا بتشييد قلعته التي يتحصّن فيها بغرناطة قلت:

يَبْنِـــي عـــلى نفْـــسِه ســـفاهًا ... كأنَّــــــه دُوَدةُ الحريــــــــر

(1) السلفي، أخبار وتراجم أندلسية، ص83-84.

فقال له المعتصم: "لقد أحسنت في الإساءة إليه"[1].

من خلال استعرضنا للروايتين نستطيع أن نؤكد أن الرواية الأولى، رواية السلفي هي الأقرب للصواب، وذلك لأنه أقرب عهدًا بالسُّميسر، ولأن فترة إقامة السُّميسر بالمرية كانت طويلة، إذ من المؤكد أنه التجأ إليها قبل تولي الأمير عبد الله الحكم بغرناطة، ولذا، فقد أطلق عليه المقري نفسه لقب (شاعر المرية)[2]، ولا يمكن أن يحظى السُّميسر بهذا اللقب مع إقامته القصيرة في حاضرة ابن صمادح الحافلة بأفذاذ الشعراء، يضاف إلى هذا كله أن البيت الذي أورده المقري في هجاء الأمير عبد الله قاله السُّميسر فيه حينما أمعن في تحصين نفسه، وعقد الهُدن[3] مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ليقف معه ضدّ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[4].

إذن يتراءى لي أن السُميسر أقام في غرناطة أثناء حكم باديس بن حبوس، ولكنه كان من أبرز المعارضين له، مما دفعه إلى الهروب منها خاصة بعد أن أهدر باديس دمه، لما علم أنه هجاه بأبيات من الشعر كما أشرنا، ولما دخل المرية أعجبته الإقامة بها، فقد راقت له الإقامة في ظل بني صمادح، وخاصة بعد أن نال فيها الحظوة والمكانة، وغدا من شعراء المعتصم وخاصة بلاطه، ودليل ذلك أن السُّميسر لم ينتقل عن المرية إلى أية مدينة أُخرى، وإنما آثر الإقامة بها، حتى بعد وفاة ابن صُمادح وزوال عرشه، فيقول المقري: "... فأقام في إحسانه بأوطانه، حتى خُلع عن مُلكه وسلطانه"[5].

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج3، ص412-413؛ سعيد، سراج الأندلس، 194-196.

(2) المقري، نفح الطيب، ج3، ص490.

(3) الأمير عبد الله، التبيان، ص99-102؛ عنان، دولة الإسلام، ج2، 339-340.

(4) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص887؛ المقري، نفح الطيب، ج3، ص412.

(5) المقري، نفح الطيب، ج3، ص413.

ورغم استقرار السُّميسر في المرية إلا أنه ظل يتتبع أخبار غرناطة، ويهجو حكامها، ويهاجم سياستهم، فربما كان ذلك الهجاء بتحريض من المعتصم بن صمادح نفسه نتيجة طبيعية للتنافس بين ملوك الطوائف، وخاصة أن الصراع كان على أشده بين الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح صاحب المرية(1).

ومن المؤكد أن الأمير عبد الله هو الآخر لم يعد يتحمل هجاء السُّميسر، فلم يكف عن ملاحقته والتخلص منه، حتى وهو بعيد عن أرضه، فدفع من يدس له أبيات على لسانه عند المعتصم، يعارض فيها المعتصم، ويهجو المرية، اتهم فيها السُّميسر بأنه قالها، فقد جاء فيها:

بئس دار المرية اليوم دارًا	**ليس فيها لساكن ما يحبُّ**
بلدة لا تُمَارُ إلا بريحٍ	**ربما قد تهُب أو لا تهُبُّ**(2)

ومما قيل أيضًا على لسانه:

قالوا المرية فيها	**نظافة قلتُ إيهِ**(5)
كأنها طِستُ(3) **تبرٍ**(4)	**ويبصق الدم فيهِ**(6)

---

(1) الأمير عبد الله، التبيان، ص98-99؛ نمر بو مدين هشام، التراث الفكري الأندلسي في نظر المستشرقين الأسبان، رسالة دكتوراة غير منشورة نوقشت كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، 2019م، ص337.

(2) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص374؛ المقري، نفح الطيب، ج4، ص360.

(3) طِست: إِناءٌ كبيرٌ مستديرٌ من نحاس أَو نحوه، يغسل فيه َ]طشْت بالشين[يُؤَنَّثُ ويذكَّرُ والجمع: طُسُوتٌ.

(4) التبرِ: فُتات الذهب أَو الفضة قبل أَن يُصاغا.

(5) إيه: اسم فعل للاستزادة من حديث أو عمل معهود.

(6) ابن بسام، الذخيرة، ق1، م2، ص374.

وهو ما أغضب المعتصم عليه لولا أنه كما أشرنا استطاع أن يبرأ نفسه، بعدما أثبت أن الأمير عبد اللـه بن بلقين هو من دسه، فأطلق سراحه وهو يمـدح المعتـصم، ومـن المـرجح أن الأمـير عبـد اللـه استغل أحد المنافسين له من المفكرين ليدس له تلك الأبيات على لسانه، فقد كان العلاقة بينه وبين عدد من المفكرين غير صالحة، كنتيجة طبيعية لكثرة هجائه لهم.

ومن المؤسف أن المصادر وكتب التراجم لم تقدم لنا شيئًا ذا بال عن تفاصيل حياة السُّميسر في حاضرة ابن صُمادح، ولم تحفظ لنا شيئًا أيضًا من أشعاره التي رفعها إليه، على الرغم من أنه كـان من أبرز مفكري المرية في ذلك الوقت، وأما مكان وفاة السُّميسر وزمانها، فغير معـروفين أيـضًا، إذ لم تشر إليهما المصادر وكتب التراجم التي ظفرت بها، وأغلب الظن أنه توفي بالمرية حاضرة المعتصم بن صُمادح في حدود سنة 488هـ/1094م.

الخاتمـــة

الخاتمة

استقصينا في تلك الدراسة وشائج الفكر والسلطة في عصر ملوك الطوائف في الأندلس(400 - 483هـ/1010- 1090م)، وأمكنا استنادًا إلى تحليل كثير من المصادر واستنطاقها، إلى التأكيد على بعض الحقائق، والتوصل إلى حقائق أخرى جديدة، ومنها:

1- أن عصر الطوائف شهد تميز علمي رغم حالة الانحلال السياسي التي عانى منها.

2- أن السلطة المثقفة والراعية للثقافة حرصت على استقطاب المفكرين إلى بلاطها.

3- أن كثير من ملوك وأمراء الطوائف كانوا من أرباب العلم والمعرفة، لذلك لجأوا إلى اختبار قدرات المفكرين كشرط للالتحاق ببلاطهم ومنتدياتهم الثقافية والعلمية.

4- أن الكثير من ملوك وأمراء الطوائف حرصوا على تقريب المفكرين خاصة المتميزين منهم إلى بلاطهم، وإسناد مناصب حيوية إليهم، للاستفادة من علومهم وثقافتهم.

5- أن تشجيع السلطة للعلم والعلماء كانا لهما دورًا كبيرًا في ترك الكثير من المفكرين بصمات عظيمة في تشكيل ثقافات الأندلس خاصة، والعالم عامة.

6- أن كثير من المفكرين في عصر الطوائف يُعدوا مرجعًا أساسيًا ومصدرًا من المصادر التي يعود إليها أهل الأندلس في دراساتهم المتصلة بالعلوم خاصة الأدبية واللغوية.

7- أن ملوك وأمراء الطوائف حرصوا على تعليم أبنائهم على يد أبرز وألمع مفكرين العصر خاصة المرشحين لخلافاتهم، واتبعهم في ذلك الوزراء، وكبار رجال الدولة.

8- أن السلطة المثقفة والواعية كانت تقبل بنصائح المفكرين وتأخذ بإرشادتهم في مختلف القضايا، في حين أعرضت السلطة الغير الواعية بدور المفكرين عن نصائحهم وسعت للتخلص منهم.

9- أن ملوك وأمراء الطوائف خاصة العلماء منهم كانوا يشجعون المفكرين على تأليف الكتب العلمية والأدبية، ونشر علومهم في أرجاء مدنهم، ونشر الوعي بين الناس.

10- أن سعاية بعض المفكرين بإخوانهم كان بسبب تفوقهم العلمي عليهم، فسعوا للتخلص منهم بتحريض السلطة.

11- أن بعض المفكرين التزموا أوامر السلطة في كل شيء حتى في أفكارها بغية التقرب منها، والحصول على مكاسب شخصية لأنفسهم.

12- أن بعض المفكرين لجأ إلى اعتناق أفكار ومذاهب غير مذاهبهم الأصلية تقربًا من السلطة واسترضاءً لها.

الملاحق والخرائط

ملحق رقم (1) دول الطوائف

الدولة	العاصمة	حكامها	سنة حكمهم	سنة السقوط
بنو عباد	إشبيلية	أبو القاسم محمد بن إسماعيل	1023-1042م	484هـ/ 1091م
		أبو عمر عباد بن محمد المعتضد	1042-1069م	
		أبـو القاسـم محمـد بـن عبـاد المعتمد	1069-1091م	
بنو جهور	قرطبة	أبو الحزم بن جهور بن محمد	1031-1043م	463هـ/ 1070م
		أبو الوليد محمد بن جهور	1043-1064م	
		عبد الملك بن جهور	1064-1070م	
بنو زيري	غرناطة	زاوي بن زيري	حتى 1019م	483هـ/ 1090م
		حبوس	1019-1038م	
		باديس بن حبوس	1038-1073م	
		عبد اللـه بن بلقين	1073-1090م	
بنو برزال	قرمونة	إسحاق	/	459هـ/ 1067م
		عبد اللـه بن إسحاق	/	
		محمد عبد اللـه	حتى سنة 1042م	
		العزيز المستظهر	1042-1067م	
بنو الأفطس	بطليوس	أبـو محمـد عبـد اللــه المنـصور الأول	/	488هـ/ 1094م

الدولة	العاصمة	حكامها	سنة حكمهم	سنة السقوط
		أبو بكر محمد المظفر	حتى سنة 1068م	
		يحيى المنصور الثاني	/	
		عمر المتوكل	حتى سنة 1094م	
بنو ذي النون	طليطلة	إسماعيل الظافر	1036-1038م	478هـ/ 1085م
		أبو الحسن يحيى المأمون	1038-1075م	
		يحيى بن إسماعيل بن يحيى القادر	1075-1085م	
بنو هود	سرقسطة	أبو أيوب سليمان بن محمد المستعين الأول	1039-1046م	503هـ/ 1110م
		أحمد المقتدر	1046-1081م	
		يوسف المؤتمن	1081-1085م	
		أحمد المستعين الثاني	1085-1110م	
		عبد الملك عماد الدولة	1110م	
بنو قاسم	البونت	عبد الله الأول بن قاسم الفهري نظام الدولة	1009-1030م	495هـ/ 1102م
		محمد يمن الدولة	/	

		أحمد عضد الدولة	حتى سنة 1084م	
		عبد اللـه الثاني جناح الدولة	1084-1092م	
دانية	دانية	أبو الجيش مجاهد موفق الدولة	حتى سنة 1044م	484هـ/1091م
		علي إقبال الدولة	1044-1076م	
		المقتدر	1076-1081م	
		الحاجب المنذر	1081-1091م	
مرسية	مرسية	خيران	1016-1028م	483هـ/ 1094م
		زهير	1028-1038م	
		عبد العزيز المنصور	1038-1061م	
		عبد الملك المظفر	1061-1065م	
		ابن رشيق	حتى سنة 1090م	
بلنسية	بلنسية	الصقلبيان: مبارك والمظفر	/	487هـ/ 1094م
		الصقلبي لبيب	/	
		عبد العزيز المنصور	1021-1061م	
		عبد الملك المظفر	1061-1065م	
		ابن جحاف (صارت جمهورية)	1092-1094م	

المرية	المرية	خيران	حتى سنة 1028م	484هـ/1091م
		زهير	1028-1038م	
		عبدالعزيز المنصور	1038-1041م	
		أبو الأحوص	1041-1051م	
		محمد المعتصم	1051-1091م	
		عزَ الدولة	1091م	
بنو مرزين	شلب	أبو بكر بن سعيد بن مزين	1028-1050م	444هـ/ 1051م
		أبو الأصبغ عيسى	1050-1051م	
شنتمرية	شنتمرية	أبو سعيد بن هارون	1016-1043م	445هـ/ 1052م
		محمد بن أبو سعيد بن هارون	1043-1052م	
بنو حمود	مالقة	إدريس الأول	1035-1039م	450هـ/ 1057م
		يحيى بن إدريس الأول	1039م	
		حسن بن الخليفة يحيى بن علي	1039-1041م	
		الصقلبي: نجاء	1041-1043م	
		إدريس الثاني	1043-1047م	
		محمد الأول بن الثاني لإدريس الأول	1047-1053م	
		إدريس الثالث	1053م	

		إدريس الثاني (للمرة الثانية)	1053-1055م	
		محمد الثاني	1055-1057م	
بنو حمود	الجزيرة	محمد بن الخليفة القاسم بن حمود	1035-1048م	451هـ/ 1058م
		القاسم بن محمد بن الخليفة	1048-1058م	
رندة	رندة	أبو نور بن أبي قرَة	1014-1053م	446هـ/ 1053م
		أبو النصر بن أبو نور	1053م	
مورو	مورو	نوح	1013-1041م	446هـ/1053م
		أبو مناد محمد وابنه	1041-1053م	
نبلة	نبلة	أبو العباس أحمد بن يحيى اليعقوبي	1023-1041م	444هـ/ 1051م
		محمد بن يحيى اليعقوبي	/	
		فتح بن خلف بن يحيى بن أخي السابقين	حتى سنة 1051م	
أركش	أركش	ابن خزرون	حتى سنة 1053م	446هـ/ 1053م
ولبة	ولبة	أبو زيد محمد بن أيوب	من سنة 1011م	444هـ/ 1051م

		أبو المصعب عبد العزيز	إلى سنة 1051م	
مرتلة	مرتلة	ابن طيفور	إلى سنة 1044م	437هـ/ 1044م
بنو رزين	السهلة	أبو محمد هذيل الأول بن خلف بن رزين	من سنة 1011م	496هـ/ 1103م
		أبو مروان عبد الملك الأول بن خلف (شقيقه)	/	
		أبو محمد هذيل الثاني عزَ الدولة (نجل السابق)	/	
		أبو مروان عبد الملك الثاني حسام الدولة يحيى	إلى سنة 1103م	

انظر: رينهارت دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ص136.

خريطة رقم (2)

نقلًا عن: حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الطبعة الأولى، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1987م، ص173.

مصادر الدراسة ومراجعها

مصادر الدراسة ومراجعها

أولاً: المصادر العربية

1- **القرآن الكريم.**

2- **ابن الأبار (أبو عبد الـلـه محمد بن عبد الـلـه) ت 658هـ/1260م:**

- إعتابُ الكُتابِ، تحقيق د. صالح الأشتر، الطبعة الأولى، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1961م.

3- ـــــــــــ:المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبـراهيم الأبيـاري، دار الكتـاب اللبنـاني، بيروت، 1983م.

4- ـــــــــــ:الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1985م.

5- ـــــــــــ:التكملة لكتاب الصلة، تحقيق د. عبد السلام الهـراس، دار الفكـر للطباعـة والنـشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1995م.

6- **ابن أبي أصيبعة (أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي) ت669هـ/1269م:**

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق ودراسة د.عامر النجـار، الهيئـة المـصرية العامـة للكتـاب، 2001م.

7- **ابن بسام (أبو الحسن بن علي) ت 542هـ/1147م:**

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيـروت، 1997م.

8- **ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت 578هـ/1183م:**

- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقائهم وأدبائهم، تحقيـق إبـراهيم الإبيـاري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت، 1989م.

9- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود) ت278هـ/891م:

- فتوح البلدان، تحقيق عبد اللـه أنيس الطباع وزميله، بيروت، 1987م.

10- البونسي (أبو إسحاق إسحاق إبراهيم الفهري الشريشي) ت651هـ/1053م:

- كنز الكتاب ومنتخب الآداب، تحقيق د. حياة قارة، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2004م.

11- ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد الشيباني) ت 630هـ/1233م:

- الكامل في التاريخ، راجعه وصححه د. محمد يوسف الدقاق، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

12- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد اللـه) ت1067هـ/1657م:

- كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، استانبول، 1941م.

13- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) ت 456هـ/1064م :

- رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987م.

14- ـــــ: جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، 1965م.

15- ـــــ: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، بدون تاريخ.

16- ابن الحداد الأندلسي (أبو عبد اللـه محمد بن أحمد بن عثمان القيسي) ت480هـ/1087م:

- ديوان ابن الحداد الأندلسي، تحقيق يوسف علي الطويل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

17- الحُميدي (أبو عبد اللـه محمد بن فتوح) ت 488هـ/1095م :

- أخبار وأشعار لأبي عبد اللـه الحميدي عن شيوخه، تحقيق خلاف محمود عبد السميع، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.

18- ـــــــــــــ: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، حققه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمد بشار عواد، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م.

19- الحميري (محمد بن عبد المنعم) ت 705هـ أو 709هـ/1306م أو 1308م:

- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، 1984م.

20- ابن حوقل النصيبي (أبو القاسم محمد بن علي) ت 380هـ/990م :

- صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992م.

21- **ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حسين) ت469هـ/1076م:**

-السفر الثاني من كتاب المقتبس، حققه وقدم له وعلق عليه د. محمود علي مكي، الطبعة الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2003م.

22- **ـــــــــــــــــــ:** المقتبس، نشره بدرو شالميتا وآخرون، مدريد، 1979م.

23- **ـــــــــــ:** المقتبس من أنباء أهل الأندلس " قطعة تؤرخ للسنوات الأخيرة من عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط"، نشر وتحقيق د. محمود علي مكي، بيروت، 1973م.

24- **ـــــــــــــــــــ:** المقتبس في أخبار بلد الأندلس، نشر د. عبد الرحمن الحجي، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

25- أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس) ت414هـ/1023م:

- الامتاع والمؤانسة، صححه وضبط غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1953م.

26- ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد القيسي الإشبيلي) ت 529هـ/1134م :

- قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق د. حسين يوسف خربوش، الطبعة الأولى، مكتبة المنار للنشر والتوزيع، الأردن، 1989م.

27- ـــــــــ: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق د.محمد علي شوابكة، الطبعة الأولى، مؤسسة رسالة، بيروت، 1983م.

28- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله) ت 776هـ/1374م:

- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق د.محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973م.

29- ـــــــــــــ: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، إ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المكشوف، بيروت، 1956م.

30- **الخطيب البغدادي (أبو بكر بن ثابت بن أحمد) ت463هـ/1070م:**

-تاريخ بغداد، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، بدون تاريخ.

31- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت 808هـ/1406م :

-مقدمة موسوعة العلامة ابن خلدون، طبعة مزيدة ومنقحة، دار الكتاب المصري- القاهرة، دار الكتاب البناني- بيروت، 1999م، ص1041.

32- **ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد) ت 681هـ/1282م:**

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

33- ابن خير الإشبيلي (أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة) ت 575هـ/1179م:

-فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق بشار عواد معروف، محمود عواد معروف، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2009م.

34- **ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن حسن) ت 633هـ/1235م :**

- المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق أ.إبراهيم الإبياري ود.حامد عبد المجيد ود.أحمد أحمد بدوي ، دار العلم، بيروت، 1955م.

35- ابن دراج القسطلي (أحمد بن محمد) ت421هـ/1030م:

-ديوان ابن دراج القسطلي، تحقيق د. محمود علي مكي، الطبعة الأولى، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، 1961م.

36- الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد اللـه بن إدريس الحمودي الحسني) ت 548هـ/1155م:

-المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، 1894م.

37- الذهبي (الإمام شمس الدين أبو عبد اللـه محمد بن أحمد) ت 748هـ/1347م :

- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الحادية عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996م.

38- الرشاطي (ت 542هـ/1147م) وابن الخراط الإشبيلي (ت581هـ/1186م):

-الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق إميليو مولينا وخاثينتو بوسك بيلا، المجلس العالي للأبحاث العلمية، مدريد، 1990م.

39- الزبيدي الأندلسي (أبو بكر محمد بن الحسن) ت 379هـ/989م:

- طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1973م.

40- ابن زيدون (أبو الوليد أحمد بن عبد اللـه بن زيدون المخزومي) ت463هـ/1071م:

- ديوان ابن زيدون، شرح وتحقيق كرم البستاني، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، 1975م.

41- الزيري (الأمير عبد اللـه بن بلقين) كان حيًّا 483هـ/1090م:

- مذكرات الأمير عبد اللـه المسماة التبيان، تحقيق د. أمين توفيق الطيبي، منـشورات عكـاظ، الرباط، 1995م.

42- ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى بن محمد) ت 685هـ/1286م:

- المغرب في حلي المغرب، تحقيق د. شوقي ضـيف، الطبعـة الرابعـة، دار المعـارف، القـاهرة، 1993م.

43- ــــــــــــ: كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه د.إسـماعيل العـربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1975م.

44- ــــــــــــ: رايات المبرزين وغايات المميـزين، تحقيـق الـنعمان بـن عبـد المتعال، مطابع الأهرام، القاهرة، 1973م.

45- ابن سلام (محمد بن سلام بن عبد اللـه بن سالم الجمحي) ت232هـ/845م:

- طبقات الشعراء، نشر الألماني جوزف هل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م.

46- السلفي (أحمد بن محمد السلفي) ت576هـ/1180م:

- أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق دكتور إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

47- **السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور) ت562هـ/1166م:**

- الأنساب، تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي، الطبعة الأولى، دار الجنان، بيروت، 1988م.

48- **ابن سناء الملك (أبو القاسم هبة الله بن جعفر) ت 608هـ/1212م:**

- دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودت الركابي، الطبعة الثالثة، دار الفكر، دمشق، 1980م.

49- **السهمي (حمزة بن يوسف بن إبراهيم القرشي) ت427هـ/1039م:**

- تاريخ جرجان، نشر تحت إشراف د. محمد عبد المعيد خان، المطبعة الرابعة، عالم الكتب، بيروت، 1987م.

50- **السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي جلال الدين) ت911هـ/1505م:**

- نزهة الجلساء في أشعار النساء، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة الكتاب الجديد، بيروت، بدون تاريخ.

51- ــــــــــــــــــ: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1964م.

52- **ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن) ت764هـ/1363م:**

-فوات الوفيات، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1974م.

53- **الشهرستاني (أبي الفتح محمد بن عبد الكريم) ت548هـ/1153م:**

-الملل والنحل، صححه وعلق عليه الأستاذ أحمد فهمي محمد، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.

54- **ابن شهيد الأندلسي (أبو عامر أحمد بن أبي مروان) ت 426هـ/1034م:**

- رسالة التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البُستاني، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، 1996م.

55- ـــــــــــ: ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه يعقوب زكي، راجعه محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 2013م.

56- **شيخ الربوة (شمس الدين أبو عبد اللـه محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي) ت 728هـ/1327م:**

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

57- **الأصفهاني (العماد الأصفهاني الكاتب) ت 597هـ/1201م :**

- خريدة القصر وجريدة العصر " شعراء المغرب والأندلس "، تحقيق آذرتاش آذرنوش، الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر، 1986م.

58- **الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) ت 764هـ/1362م :**

- الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفي، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م.

59- ـــــــ: الغيث المسجم في شرح لامية العجم، المطبعة الأزهرية، القاهرة، 1305هـ.

60- **الضبي (أبو جعفر أحمد بن يحيى بن أحمد) ت 599هـ/1202م:**

- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى، دار الكتاب المصري -دار الكتاب اللبناني، القاهرة- بيروت،1989م.

61- ابن عدي التكريتي (أبو زكريا يحيى) ت363هـ/974م:

- مقالة في التوحيد، المكتبة البوليسية، لبنان-المعهد البابوي، رومة، 1980م.

62- ابن عذاري (أبو العباس أحمد بن محمد) كان حيًا سنة 712هـ/1312م :

- البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق كولان وليفي بروفنسال، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

63- العذري (أحمد بن عمر بن أنس) ت 478هـ/988م:

- نصوص عن الأندلس من كتاب "ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك"، تحقيق د.عبد العزيز الأواني، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1965م.

64- ابن عطية الأندلسي (القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب) ت542هـ/1147م:

- فهرسة ابن عطية، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م.

65- ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي) ت 1089هـ/1678م :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.

66- عياض (القاضي أبو الفضل) ت 544هـ/1149م:

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق سعيد أحمد أعراب، مطابع الشويخ، المغرب، 1982م.

67- ابـن غــالب (أبـو عبـد اللـــه محمـد الكاتـب الـوزير بـن غالـب البلنـسي) عـاش في ق6هـ/ق12م:

- فرحـة الأنفس، نشر د. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، ج2، القـاهرة، 1955.

68- ابن الفرضي (أبو الوليد عبد اللـه بن محمد بن يوسف) ت 403هـ/1013م :

- تـاريخ علماء الأندلس، حققه د. بشار عواد معروف، الطبعـة الأولى، دار الغـرب الإسـلامي، تونس، 2008م.

69- الفيروز آبادي (محمد بن يعقوب الفيروز آبادي مجد الدين) ت817هـ/1415م:

- القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.

70- **ابن فضل اللـه العُمري (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن فضل اللـه بن يحيى بن أحمد) ت749هـ/1349م:**

- مسالك الأبصار في ممالـك الأمـصار، تحقيـق كامـل سـلمان الجبُـوري، دار الكتـب العلميـة، بيروت، بدون تاريخ.

71- ابـن قتيبـة (أبـو محمـد عبـد اللـــه بـن عبـد المجيـد بـن مـسلم بـن قتيبـة الـدينوري) ت276هـ/889م:

- الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، 1969م.

72- **القزويني (أبو عبد اللـه زكريا بن محمد بن محمود) ت 682هـ/1283م:**

- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1960م.

73- القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف) ت 646هـ/1248م:

- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.

74- **ــــــ:** إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، مؤسسة الكتب الثقافية، القاهرة، بيروت، 1982م.

75- **ــــــ:** المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تحقيق حسن معمري، نشر جامعة باريس، 1970م.

76- القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد الفزاري) ت821هـ/1418م:

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.

77- **ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر) ت367هـ/977م:**

- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري- دار الكتاب اللبناني، القاهرة-بيروت، 1989م.

78- **ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك) ت 573هـ/1177م:**

- تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971م.

79- **المتنبي الكوفي الكندي (أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن) ت354هـ/965م:**

- المتنبي، ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، 2003م.

80- المقدسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد) ت 378هـ/988م:

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه د.محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1987م.

81- المقري (أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد) ت 1041هـ/1631م:

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م.

82- **ــــــ:** أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1939م.

83- المراكشي (عبد الواحد بن أحمد) ت 669هـ/1270م :

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق د. محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنـشر والتوزيع، المغرب، 1994م.

84- عبد الملك المراكشي (محمد بن عبد الملك) ت 703هـ/1303م :

- الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة، تحقيق د.محمد بن شريفـة، د.إحـسان عبـاس، دار الثقافة، بيروت، 1973م.

85- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري) ت 711هـ/1311م:

- لسان العرب، الطبعة السادسة، دار صادر، بيروت، 1997م.

86- الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري) ت 518هـ/1124م:

- مجمع الأمثال، المعاونية الثقافية للآستانة الضوية المقدسة، 1987م.

87- ابن الأنباري (أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الـلـه) ت577هـ/1181م:

- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، الطبعة الثانية، مكتبة الأندلس، بغداد، 1970م.

88- النباهي (أبو الحسن علي بن عبد الـلـه الجذامي) كان حياً سنة 793هـ/1391م:

- تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القـضاء والفتيـا)، تحقيـق لجنـة إحيـاء التراث العربي في دار الآفاق، الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م.

89- ابن نباته (أبوبكر جمال الدين بن محمد) ت768هـ/1366م:

- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، المطبعة الأميرية، القاهرة، بدون تاريخ.

90- ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق) ت377هـ/987م:

- الفهرست، حققه وقدم له مصطفى الشويمي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985م.

91- النويري (أحمد بن عبد الوهاب محمد بن عبد الدايم البكري التميمي القرشي) ت 732هـ/1332م :

- نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1976م.

92- ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله) ت 626هـ/1229م :

- معجم الأدباء، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1988م.

93- **ــــــــ:** معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977م.

94- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) ت 284هـ/897م:

- البلدان، وضع حواشيه محمد أمين ضناوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422هـ.

ثانيًا: المراجع العربية الحديثة والأجنبية المعربة

1- **أدهم (علي):** المعتمد بن عباد، سلسلة أعلام العرب، رقم 2، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ.

2- **أرسلان (شكيب):** الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الطبعة الأولى، المطبعة الرحمانية، مصر، 1936م.

3- **البابانى (إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم):** هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مطبعة البهية، استانبول، 1951م.

4- **بالنثيا (آنخل جنثالث):** تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955م .

5- **بروفنسال (ليفي):** سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها ألقاها عامي 1947و1948، ترجمة محمد عبد الهادي شعيره، راجعه عبد الحميد العبادي بك، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1951م.

6- **بروكلمان (كارل):** تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة، 1983م.

7- **البستاني (بطرس):** دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

8- **البغدادي (إسماعيل):** هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبعة دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.

9- **بيريس (هنري):** الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 1988م.

10- **الحجي (د. عبد الرحمن علي):** التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 92-898هـ الطبعة الثانية، دار القلم، دمشق-بيروت، 1402هـ.

11- **حسن (حسن وآخرون):** الموسوعة العسكرية، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، 1990م.

12- **الخازن (وليم):** ابن زيدون: أثر ولادة في حياته وأدبه، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

13- **خلاف (د. عبد الوهاب):** السلطات الثلاث في الإسلام، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1405هـ.

14- **دالي (فاضل فتحي محمد دالي):** الفتن والنكبات الخاصة وأثرها في الشعر الأندلسي، الطبعة الأولى، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، 1996م.

15- **دوزي (رينهرت):** المسلمون في الأندلس، ترجمة وتعليق حسن حبشي، الهيئة العامة للكتاب، 1998م.

16- **ـــــــــ:** رينهارت دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كمال كيلالي، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، 2012م.

17- **الركابي (د. جودت الركابي):** في الأدب الأندلسي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1966م، ص285وما بعدها.

18- **الزركلي (خير الدين):** الأعلام "قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين"، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م.

19- **سارنللي (كليليا):** مجاهد العامري قائد الأسطول العربي في غربي البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري، الطبعة الأولى، القاهرة، 1961م.

20- **سالم (د. السيد عبد العزيز):** السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة الأسطول، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1979م.

21- **ـــــــ:** تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م.

22- **سالم (فؤاد الشيخ وآخرون):** المفاهيم الإدارية الحديثة، القاهرة، 1995م.

23- **سعيد (د.محمد):** المثقفون والسلطة في عصر الدولة الأموية في الأندلس (138-422هـ/756-1031م)، الطبعة الأولى، دار ببلومانيا للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020م.

24- ـــــــ: سراج الأندلس دراسة تحليلية للشفاعات الدنيوية في عصر ملوك الطوائف (400-483هـ/ 1010-1090م)، دار أقلام عربية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2021م.

25- **سيسالم (د.عصام سالم):** جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار)، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م.

26- **الشكعة (مصطفى):** الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، الطبعة السادسة، طبعة دار العلم للملايين، بيروت، 1986م.

27- **صبحي (د.**أحمد محمود): دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1978م.

28- **ضيف (د. أحمد):** بلاغة العرب في الأندلس، الطبعة الثانية، دار المعارف، تونس، 1998م.

29- **طويل (مريم قاسم):** مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح 443-484هـ/1051-1091م، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.

30- **العامري (محمد بشير حسن راضي):** تاريخ بلد الأندلس في العصر الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2014م.

31- **عباس (د. إحسان):** تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، الطبعة السادسة، دار الثقافة، بيروت، 1981م.

32- ـــــــ: تاريخ النقد الأدبي عند العرب "نقد الشعر" من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، الطبعة الرابعة، دار الثقافة، بيروت، 1983م.

33- ـــــــ: تاريخ الأدب الأندلسي "عصر الطوائف والمرابطين"، الطبعة الأولى، دار الشروق، عمان، 1997م.

34- **العبادي (د. أحمد مختار):** الصقالبة في إسبانيا، نشر معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1953م.

35- **عبود (د.محمد):** جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، مطبعة النور، المغرب، 1987م.

36- **أبو العلا (د. إبراهيم عبد المنعم سلامة):** أضواء جديدة على المؤثرات الحضارية المشرقية في الأندلس منذ أواخر القرن الثاني حتى الثلث الأول من القرن الخامس الهجريين (180-431هـ/796-1039م)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2020م.

37- **عنان (محمد عبد الله):** تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1970م.

38- ـــــــــــــ: دولة الإسلام في الأندلس (العصر الثاني)، الطبعة الرابعة، مطبعة المدني، القاهرة، 1997م.

39- **عناني (د.محمد زكريا):** تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1999م.

40- **عيسى (د.محمد عبد الحميد):** تاريخ التعليم في الأندلس، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982م.

41- **غومس (إميليو غرسية):** نظرات حول انهيار قرطبة الأموية، المجلد الثاني عشر، مجلة الأندلس، 1947م.

42- **أبو الفضل (د. محمد أحمد):** تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتى استيلاء المرابطين عليها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1981م.

43- **قباني (وسام):** عامريات ابن دراج القسطلي (347-421هـ)، وزارة الثقافة، دمشق، 2011م.

44- **عبد الكريم (د. مصطفى عوض):** فن التوشيح، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، بدون تاريخ، ص18وما بعدها.

45- **كحالة (د.عمر رضا):** معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، دمشق، 1957م.

46- **الكيالي (عبد الوهاب):** موسوعة السياسة، الطبعة الثالثة، بيروت، 1990م.

47- **أبو مصطفى (د. كمال السيد):** تاريخ مدينة بلنسية الإسلامية (95-495هـ/714-1102م)، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، بدون تاريخ.

48- **ـــــــ:** مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1993م.

49- **مطلق (البير حبيب):** الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف، الجامعة الأميركية، بيروت، 1965م.

50- **مكاوي (د.فتحي حسن):** مختصر البناء الفكري، الطبعة الأولى، مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، 2016م.

51- **مكي (الطاهر أحمد):** الصالونات الأدبية في الشرق والغرب، العدد103، مجلة الدوحة، بدون تاريخ.

52- **ـــــــــــــ:** دراسة في مصادر الأدب، الطبعة السابعة، دار المعارف، القاهرة، 1993م.

53- **مكي (محمود علي):** التشيع في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية الدولة الأموية، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م.

54- **مؤنس (د. حسين):** تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1967م.

55- **ـــــــــــــ:**موسوعة تاريخ الأندلس(تاريخ وفكر وحضارة وتراث)، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة، القاهرة، 1996م.

56- **النبهان (فاروق):** المدخل للتشريع الإسلامي، الطبعة الثانية، وكالة المطبوعات، الكويت، 1981م.

57- **هدارة (د.محمد مصطفى):** في البلاغة العربية- علم البيان، الطبعة الأولى، دار العلوم العربية، بيروت، 1989م،

58- **هيكل (د. أحمد):** الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، 1985م.

ثالثًا: الدوريات العربية والرسائل الجامعية غير المنشورة

1- **بسطاوي (منى ربيع):** بين ولادة بنت المستكفي وحفصة بنت الحاج الركونية، العدد32، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 2000م.

2- **البشري (سعد عبد الله صالح):** الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (316-422هـ /928-1030م)، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، 1997م.

3- **بوفلاقة (سعد بن حسين):** ولادة بنت المستكفي الأميرة الشاعرة، العدد21، 2005م.

4- **بوفلاقة (محمد سيف الإسلام):** جماليات المتحول في النص الشعري الأندلسي، الموشحات نموذجًا، مجلة قوافل، العدد32، الجزائر، بدون تاريخ.

5- **الزاكي (بنيونس):** شعر السميسر: أبي القاسم خلف بن فرج الإلبيري، العدد الأول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1996م.

6- **زيان (علي):** المؤرخ الأندلسي الكبير ابن حيان مكانته ومؤلفاته (موارده ومنهجه في كتابة المقتبس)، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد السابع، 2013م.

7- **السحيباني (د.حمد بن صالح السحيباني):** عصر الازدهار العلمي في الأندلس "دراسة تحليلية" لأهم عوامل الازدهار العلمي في عصر ملوك الطوائف، بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1994م.

8- **الشال (عبد اللـه عباس):** ابن الحنـاط الأندلـسي: حياتـه ومـا تبقـى مـن شـعره، كليـة الآداب جامعة القاهرة، العدد2، يناير2018م.

9- **العامودي (محمود محمـد):** شـعر السميـسر أبي القاسـم خلـف بـن فـرج الإلبـيري ت480هــ العدد2، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، غزة، 2001م.

10- **أبو العلا (د. إبراهيم عبد المنعم سلامة):** الأندلس بين سقوط الدولة العامرية ونهاية الخلافة الأموية، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بآداب الإسكندرية، 1993م.

11- **الفاسي (محمـد):** تحقيـق الأعـلام الجغرافيـة الأندلـسية، مجلـة البينـة، الـسنة الأولى، العـدد الثالث، الرباط، 1961م.

12- **الكزبري (سلمى الحفار):** أثر ولادة في حياة ابن زيدون وفنه، العدد الحادي عشر والثاني عـشر، السنة التاسعة، من مجلة الكتاب العراقية، بدون تاريخ.

13- **الكيلاني (حلمي إبراهيم عبد الفتاح):** السميسر: حياتـه وشـعره، العـدد الأول، مؤتـة للبحـوث والدراسات، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة مؤتة، 1992م.

14- **لطرش (حنان):** الـسلطة والمجتمـع في الجزائـر أواخـر العهـد العـثماني، رسـالة ماجـستير غـير منشورة نوقشت بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، 2005-2006م.

15- **محمد (عبد الرحمن حسين محمد):** ابـن زيـدون، حياتـه وأدبـه، جامعـة الأزهـر، كليـة اللغـة العربية، أسيوط، 1984م، العدد4.

16- **المرينـي (نجـاة):** الـشعر المغـربي في عـصر المنـصور الـسعدي، الطبعـة الأولى، المغـرب الأقـصى، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1999م.

17- **أبو مصطفى (د. كمال السيد):** تاريخ مدينة طرطوشة وحـضارتها في عـصر دويـلات الطوائـف (بحث من بحوث ندوة الأندلس قرون من التقلبات)، الرياض، 1994م.

18- **مطر (خالد حسن):** ابـن حيـان القرطبـي ودوره في كتابـة تـاريخ الأنـدلس 377-469هــ/987-1076م، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن، 2007م.

19- **المولد (روضة بنت بلال بن عمر):** الاغـتراب في حيـاة ابـن دراج وشـعره، رسـالة ماجـستير غـير منشورة، نوقشت بكلية اللغة العربية وآدابها جامعة أم القرى، السعودية، 2007م.

20- **نسرين (لميس):** بناء القصيدة عند ابن دراج القسطلي، رسالة دكتـوراة غـير منـشورة، نوقـشت بكلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2019.

21- **هشام (نمر بو مدين):** التراث الفكري الأندلسي في نظر المستشرقين الأسبان، رسالة دكتـوراة غـير منشورة نوقشت كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران، 2019م.

رابعًا: المراجع الأوربية الحديثة

1-**Afif Turk**, El reino de Zaragoza en el Siglo XI de Cristo (v de la Hégira), Madrid, 1978.(

2-**Alvarez de Morales (C.)**, Aproximacion a la Figura de Ibn Abi-L-Fayyad Y su historia, Cuadermos de Historia del Islam, No,9, Granada, 1978.

4-**Angel Gonzales Palencia**, Historia de la literature arabigoespanola, ed, Madrid.

5-**Emilio Garcià Gomez**, Poemas aràbigoandaluces, 4[e], ed, Madrid, 1959.

6-Hartmann (R.)- Boyle (J.A.), Gurgan, The Encyclopedia of Islam, New Edition, Bril, Leiden, 1983.

7-**Huici Miranda (Ambrosio)**, Historia Musulmana de Valencia Y su Region, Valencia, 1969.

8-**Maria Jesùs Rubiera Mata**, Poesia femenina hispano-àrabe, Editorial Castalia, Instituto de la Mujer, Madrid, 1989.

9-**Maria Jesus Rubiera**, La Taifa de Denia, Alicante, 1985.

10-**Melchor Antuna – Garcia Gomez**, "A proposito de ibn Hayan", Al-Andalus, XI, 1946.

11-**Viguera (Maria Jesus)**, Aragon Musulmana, Zaragoza, 1981.

12-**Viguera (Maria Jesus), (Editor)**, Los Reinos de Taifas Al-Andalus en el siglo X1, Espasa Calpe, Madrid, 1994.

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة

www.bibliomaniapublishing.com

2022

وَشَائِجُ الفِكرِ وَالسُّلطةِ

فِي عَصْرِ مُلوكِ الطَّوَائِفِ فِي الأَنْدَلُسِ

المفكر عقل المجتمع الواعي وقلبه النابض الذي يضخ قيم وثقافات وعلوم تعبر عن المجتمع وعاداته خاصة هؤلاء الذين سعوا إلى صلاح مجتمعهم، وفي الأندلس في عصر ملوك الطوائف برز كثير من المفكرين الذين كان لهم دور كبير في التأثير في مجريات الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهو ما يظهر لنا في تناولنا للعلاقة بين السياسة والفكر من خلال تجسدها في أداء بعض الشخصيات في ذلك العصر.

عبناصر
bibliomania.eg
https://bibliomaniapublishing.com